

٢٠١٠

سلسلة العلوم الإجتماعية

نيلسون مانديلا

مسيرة طويلة نحو الحرية

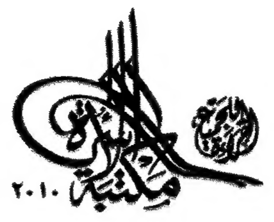
السيرة الذاتية

ترجمة: د. فاطمة نصر

نيلسون مانديلا

مسيرة طويلة نحو الحرية

السيرة الذاتية



برعاية السيدة

سوزان مبارك

المشرف العام

د . محمد صابر عرب

تصميم الغلاف

د . مدحت متولى

الإشراف الفنى

ماجدة عبد العليم
على أبو الخير
صبرى عبد الواحد

التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الجهات المشاركة

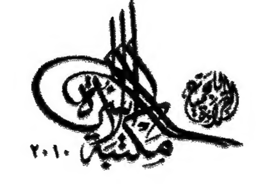
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
المجلس القومى للشباب
وزارة التنمية الاقتصادية

نيلسون مانديلا

مسيرة طويلة نحو الحرية

السيرة الذاتية

ترجمة: د. فاطمة نصر



نيلسون مانديلا: مسيرة طويلة نحو الحرية

نيلسون، مانديلا : مسيرة طويلة نحو الحرية :
السيرة الذاتية / ترجمة: فاطمة نصر . ـ القاهرة:
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.
٣٩٦ ص ؛ ٢٠ سم. (مكتبة الأسرة ٢٠١٠، سلسلة
العلوم الاجتماعية)
تدمك ٩ - ٦٧٥ - ٤٢١ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١ ـ جنوب إفريقيا - رؤساء الجمهورية
٢ - مانديلا، نيلسون، ١٩١٨ -
أ - نصر، فاطمة (مترجم)
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٥٥٧ / ٢٠١٠
I.S.B.N 978-977-421-675 -9
ديوي ٩٢٣,١٦٨٠٦

توطئـة

مثل كل الأحلام الكبرى التى بزغت منها مشاريع عملاقة أدت إلى تطور مجتمعاتها، ولهذا أرسى مهرجان القراءة للجميع جذوره الراسخة فى الأرض المصرية منذ عشرين عامًا.. لقد انطلق أهم مشروع ثقافى فى العالم العربى عام ١٩٩٠ تحقيقًا لحلم السيدة الفاضلة سوزان مبارك راعية المهرجان، وصاحبة فكرته والتى دشنته آنذاك بافتتاح عشرات المكتبات فى جميع ربوع الوطن، وأطلقته فى سماء الواقع برؤية واضحة ومحددة تستند على الإيمان بأن الثقافة هى وسيلة الشعوب لتحقيق التقدم والتنمية بما لها من قدرة على تحويل المعارف المختلفة إلى سلوك متحضر، وإعلاء المُثل العليا، وقيم العمل والإنجاز، وإشاعة روح التسامح والحرية والسلام التى دعت إليها جميع الأديان، بهدف أن تُكوِّن ثقافة المجتمع بتأصيل عادة القراءة وحب المعرفة، لذا فإن وسيلة المعرفة الخالدة ستظل هى الكتاب الذى يسهم فى إرساء دعائم التنمية، وتحقيق التقدم العلمى المنشود.

لقد اتسعت روافد الحملة القومية للقراءة للجميع طوال الأعوام العشرين الماضية، وأصبحت تشكل فى مجملها دعوة حضارية للبناء الروحى والفكرى والوجدانى للإنسان المصرى نابعة من الإيمان العميق بأن الثقافة هى بكل المقاييس أفضل استثمار لبناء مجتمع المستقبل، وهى الجسر الرئيسى للشباب للحاق بركب الحضارة المعاصرة، بل تكاد تكون هى الوسيلة الوحيدة لنشر قيم العلم والتسامح والديمقراطية والسلام الاجتماعى والتطور الحضارى، وترسيخ قيم المواطنة وقيمة دور المرأة،

وتعزيز قيمة التجدد الثقافى والتفكير النقدى والحوار ومعرفة الآخر والتبادل والتواصل المجتمعى والدولى، وأيضًا إبراز تواصل الإبداع المصرى من خلال نشر الآثار الأدبية لـ «مختلف أجيال المبدعين».

ومنذ العام الرابع لمهرجان القراءة للجميع؛ أصبحت مكتبة الأسرة من أهم روافده، وقدمت طوال ستة عشر عامًا دون توقف ملايين النسخ بأسعار رمزية لإبداعات عظيمة لشباب المبدعين وكبار الكتاب الذين أثروا المشروع فكريًا وثقافيًا وعلميًا ودينيًا وتراثيًا وأدبيًا، كما قدمت الموسوعات الكبرى التى تُعتبر أعمدة هذه المكتبة، والتى شكلت مسيرة فكر النهضة فبعثت فى نفوس الشباب من جديد الإحساس بالفخر بما قدمته أمتهم من كنوز إبداعية ومعرفية وفكرية للبشرية، وأقامت جسرًا يصل بين ماضيهم وحاضرهم، ويصل بين حاضرهم ومستقبلهم، كما بعثت فيهم روح الانتماء القوى لهويتهم المصرية والعربية، ولما لا وقد أطلت عليهم مكتبة باذخة الثراء تتكئ على مؤلفات حضارة مصرية قديمة ما زالت قادرة على إدهاش العالم حتى هذه اللحظة بما احتوته من تقدم فنى وفكرى وعلمى وفلسفى وأدبى شكَّل فجر «ضمير الإنسانية» وحضارة إسلامية أنارت ظلمات أفلاك البشرية لحقب طويلة من الزمان، ووضع أعلامها بعض أعمدة الحضارة المعاصرة فى مجالات الطب والفلك والرياضيات والآداب!.

لهذا كله ستواصل مكتبة الأسرة هذا العام نشر رسالتها بالسعى قدمًا نحو تطوير أدائها، وتحقيق حلمها الأكبر بتكوين ثقافة المجتمع كله بأيسر السبل، والتأكد من اطلاعه على جميع ما أنتجته عبقرية الأمم ممثلة فى تراثها الأدبى والعلمى والفكرى المستنير.

مكتبة الأسرة

٢٠١٠

سيرة ذاتية أم وثيقة سياسية؟



السيرة الذاتية فى بدايتها كانت كتابة اعترافية دينية يسبر فيها الفرد أغوار ذاته للتعرف على مواطن ضعفه الإنسانى وليقيم علاقة سليمة مع الخالق. ورغم أن تلك الكتابات انفصلت لاحقا عن أصولها الدينية وأصبحت شكلا من الأشكال الأدبية طرقه الأدباء والمفكرون والساسة فقد احتفظت تلك الكتابات بسمتين أصيلتين وهما محورية الذات وصيغتها الاعترافية. وفى زمننا هذا نَحتْ السيرة مناحى مختلفة وتعددت أساليبها وأهدافها. فإلى جانب السير التى مازالت تلتزم بالسمات الأساسية ظهرت أخرى تهدف إلى الإثارة والكسب السريع. أيضاً نجد أن هناك من بين القادة والمرموقين من الأفراد من يحاول استباق التاريخ بكتابة سيرته الذاتية حتى لا يترك لأقلام الآخرين حرية تسجيل الكلمة الفاصلة عنه، وقد ظهر فى السنوات الأخيرة عدد غير مسبوق من سير القادة والملوك والمشاهير من الأفراد.

وتستدعى طبيعة وأهداف ذلك الشكل من الكتابة التساؤل عن مقصد مانديلا من نشر سيرته ولم تمض شهور على توليه السلطة. فسيرته كما نقرؤها ليست اعترافية والذات ليست محورها فهى ترتكز على الحدث. كما أن مانديلا أصبح رمزا تمتلكه البشرية جمعاء لذلك

يُستبعد أن تكون سيرته محاولة منه لاستباق المؤرخين خوفا من التشويه أو سوء الفهم.

فى سياق سرده للأحداث يذكر مانديللا أنه أثناء تواجده فى المعتقل اقترح زملاؤه عليه كتابة مذكراته احتفاءً ببلوغه الستين على أن يتم تهريبها خارج السجن والبلاد لنشرها كى تعمل على إزكاء شعلة المقاومة التى كانت قد خفتت آنذاك. ونجح مانديللا وزملاؤه فيما اعتزموه. غير أن تلك المذكرات لم يكتب لها أن ترى النور. يقول مانديللا إن تلك المذكرات هى العمود الفقرى لكتابه الحالى، وعلى ذلك فلنا أن نفترض أنه رغم أن كلتا السيرتين قد تحوى نفس الأحداث الرئيسية إلا أنه ربما قد جرى تعديل بالحذف أو بتغيير بؤرة التركيز لأن المذكرات الحالية أريد بها تحقيق هدف مختلف عن ذلك الذى هدفت إليه المذكرات الأولى.

وبقراءتنا للسيرة الحالية يتبين لنا أن هدف مانديللا الأول هو تبيان وترسيخ وتبرير سياسته التوفيقية التى التزم بها واتبعها. وتلك السياسة ليست وليدة الساعة، وليست مسايرة للظروف والمتغيرات لكنها تنبع من عقيدة التزم بها المؤتمر منذ نشأته واعتنقها مانديللا

فكرا عقلانيا وأساسا واقعيا لكفاحه منذ بدايه تسييسه، كما عمقتها التجربة وقوى التزامه بها نضج الفكر وشمولية تجربته الإنسانية.

لم يشب مانديلا على كراهية للبيض. بل على العكس، فإن تجربة طفولته وصباه كما يصورها هى تجربة رعوية لم يفسد صفوها أى شعور بالقهر ولم يكتسب من نشأته الأولى عوامل أثرت فى اختياره طريق الكفاح سوى حس راسخ بالعدالة وإيمان بالديموقراطية وكبرياء لكونه إفريقيا أسود. أما خلال سنوات دراسته بالمدارس والكليات الإرسالية فقد زاد إعجابه بالرجل الأبيض وكان منتهى طموحه أن يصبح «جنتلمان» إنجليزيا أسود.

ولعل من الأهمية بمكان ملاحظة تزامن تفتح وعيه والتزامه السياسى مع دراسته للقانون فى جامعة Wits وقد تزامنت تلك الفترة أيضا مع إجراءات قمعية متزايدة من قبل السلطة لترسيخ نظام الأبارتايد. وربما يسترعى الانتباه أيضا أن زملاء مانديلا من غير السود قد لعبوا دورا كبيرا فى تسييسه. أى أن اختيار مانديلا لطريق الكفاح لم يقرره شعور شخصى بالظلم ورغبة شخصية فى مقاومة من يمارسونه لكنه نتج فى المقام الأول عن عقيدة أيديولوجية فى عدم عدالة الأبارتايد

ورغبة منه فى إقرار العدالة. فهو يذكر فى كل مناسبة أن عداءه لم يكن لأشخاص معينين أو لإثنية بذاتها. لكنه اختار أن يكافح نظاما باطلا ليقر نظاماً عادلا. بل إنه كان يرى أن البيض أنفسهم وهم يمارسون الأبارتايد هم ضحايا للكراهية والتحيز وضيق الأفق.

لا عجب إذن أن مانديللا فى سرده للأحداث لا يتوقف لوصف تفاصيل الممارسات الدموية الشريرة للبيض والتى نقرأ عنها حتى فى كتابات بعض البيض أنفسهم، ولا يتخير وقائع بعينها كأمثلة لمعاناة الأفارقة. فإن أكثر الأمثلة التى يذكرها دموية هى مذبحة شاربفيل التى اقترفها نفر قليل من رجال الشرطة تملكهم الخوف، كما يقول، من كثرة عدد المتحدّين من السود فأطلقوا الرصاص وكان عدد الضحايا أقل من مائة قتيل، وفى المقابل فإن مانديللا يسرد بإسهاب وحشية الممارسات الدموية لأعضاء الإنكاثا من الزولو بطريقة تقشعر لها الأبدان.

ومن ناحية أخرى يعطى مانديللا أمثلة عديدة لعظمة بعض رجال القانون البيض وعدالتهم ومن بينهم بعض القضاة الذين حاكموه. كما يسجل كفاح ومواقف عدد من البيض الذين عملوا معهم وتعرضوا للسجن والنفى والموت.

يتضح إذن أن مانديللا لا يريد التركيز على أو إحياء ممارسات بشعة لنظام وصفه هو بأنه من أعتى الأنظمة التى عرفها التاريخ بل يريد التأكيد على لا إثنية عناصر الشر وعناصر الخير وأن يؤكد تلك المبادئ التى قام عليها المؤتمر والتى كافح هو وغيره من أجلها لإقامة نظام عادل ديموقراطى تعيش الأعراق المختلفة فى ظله حياة عدالة وكرامة وأمان.

وعلى ذلك فسيرة مانديللا ليست ذاتية لكنها تأطير وتأصيل تاريخى وعقائدى وواقعى لسياسته التوفيقية التى التزم بها منذ توليه السلطة.

وقصة كفاح مانديللا وشعب جنوب إفريقيا كما ترويها السيرة هى «أوديسا» الواقع المعاصر قادها شعب عاش مغلوبا على أمره لمئات السنين وسلب حقوق مولده وكيانه الإنسانى ضد نظام من أشرس الأنظمة وأشدها قوة وثراء وصلفا. وتمكنوا وهم الضعفاء الفقراء المحتقرون ليس فقط من زعزعة النظام والإتيان عليه بل أيضا من كسب مؤازرة شعوب الأرض وحكوماتها ودفعها لتبنى قضيتهم سواء كان ذلك عن عقيدة أم مسايرة للتيار العام.

لم ينظر مانديلا للمعركة على أنها معركة بين مجموعتين من البشر فقط لكنه نظر إليها على أنها معركة بين أيديولوجيتين يميزهما التباين والتشابه فى نفس الوقت. فقد قام الأبارتايد على أساس عقيدة سمو الجنس الأبيض ودعمت تلك العقيدة أسطورة دينية تصنف البشر تصنيفا هرميا يتربع الجنس الأبيض فيه على القمة ويرتب بقية البشر فيه بين القمة والقاع الذى يحتله السود. وعلى هذا فرغم تقديس الأفريكان للعدالة والديموقراطية فإن القوانين التى تجسد هذين المفهومين هى قوانين مصدرها البيض ولحماية البيض. وعلى الجانب الآخر تتلخص أيديولوجية المؤتمر ومانديلا فى التأكيد على المساواة بين البشر وأن العدالة والديموقراطية هما من أجل حماية حقوق الفرد والمجتمع بغض النظر عن اللون والعرق. ومن خلال كفاحه أثبت شعب جنوب إفريقيا حذقا غير عادى ومهارة فى التنظيم والتنظير والممارسة مما أجبر عدوهم والعالم أجمع ليس فقط على الاعتراف بهم كنظراء بل على الإعجاب بهم والتسليم لهم.

ولعل تجربة المعتقل التى فاق عدد سنواتها عدد سنوات الكفاح خارج المعتقل هى التى تشعر القارئ ليس فقط بضآلته أمام عمالقة الإرادة

والفكر السليم، لكنها تجدد فى النفس الثقة بالإنسان والعقيدة. فخلال سنواتهم الطويلة فى معتقل جزيرة روبن النائية القاسية الموحشة حيث اختير لها عتاة السجانين والضباط، نقل مانديللا وزملاؤه المعركة هناك حيث لم ينجحوا فقط فى الحفاظ على آدميتهم وتأكيد حقوقهم، بل إنهم حولوا المعتقل إلى جامعة لتربية النفوس والعقول والأجساد، ولتثقيف وتعليم المسجونين السياسيين، وتسييس وتعليم عتاة الإجرام من السجناء العاديين. فإنهم بالإضافة إلى استغلال وقتهم لمواصلة دراستهم أقاموا المساجلات السياسية والثقافية والاجتماعية والتراثية ووضعوا منهجا متكاملا للدراسة. كما قاموا بتكوين لجان للاستشارات القانونية، وتكوين منظمة داخلية للمؤتمر وقيادة عليا له، وعقد المباحثات مع أعضاء المنظمات الأخرى لرأب الخلافات. وفى نفس الوقت عملوا جهدهم كيلا يفقدوا الصلة بالتنظيمات والأحداث خارج المعتقل ولكى يبقوا المعركة حية بعد أن أُعتقل ونُفى جميع الزعماء. وانتهى الأمر بأن ترك القائمون عليها شئون الجزيرة وحفظ النظام بها للسجناء أنفسهم. أما بالنسبة للعالم الخارجى فقد ارتقت الجزيرة وقاطنوها إلى منزلة الرمز والأسطورة مما أجبر العدو فى

النهاية على أن يسعى إليهم وأن يدرك أن لابديل للتفاوض معهم والخضوع لإرادة الحق.

أتى الأفارقة وعلى رأسهم مانديللا مائدة المفاوضات مسلحين بالعلم والمعلومات والخبرة والعقيدة. أتوها وهم يعلمون عن عدوهم أكثر مما يعلم هو عن نفسه وعنهم. ويقول مانديللا فى ذلك الصدد «لم نأت الاجتماعات متسولين لكن مواطنين لنا الحق فى مكان متساو على المائدة». أصر مانديللا ورفاقه على عدم قبول اشتراطات مسبقة ورفض المساومة، كما رفض أن تتوقف النشاطات العسكرية كشرط لبدء المفاوضات ولم يملك الطرف الآخر أمام الوعى والإصرار سوى الخضوع والتسليم.

ومع انبهار القارئ إذ تتفتح أمامه تلك السيرة البطولية فإنه يتوقف عند بعض النقاط المحيرة ولعل أهمها بالنسبة لى كقارئة عربية بعض ما يأتى فى سياق رواية مانديللا. فإنه يذكر أنه إبان اختفائه فى مزرعة ريڤونيا كان معلمه الأول فى فنون حرب العصابات هو آرثر جولدريتش الذى كان ضمن الجناح العسكرى لحركة بالماخ الصهيونية فى فلسطين والذى خاض حرب العصابات هناك. كما يذكر أيضا

ضمن الكتب التى قرأها وأفادته كتّاب الثورة لمناحم بيجين الذى يمتدحه. لم يتوقف مانديلا ذو الحس المرهف بالعدالة لحظة ليفكر أن هذين الشخصين اللذين حازا إعجابه قد خاضا حربا ضد سكان فلسطين الأصليين أعتى من تلك التى خاضها الأفريكانيون ضدهم وأن أيديولوجية الصهيونية تتماثل تماما مع أيديولوجية الأفريكانيين البيض التى عانى من جرائها شعبه ما عاناه.

ومن النقاط المحيرة أيضا موقف مانديلا من الحركات المناوئة للمؤتمر وبالذات من منظمة الـ P.A.C –التى قادها سوبوكوى معلمه ورفيق كفاحه– والتى كانت تتمتع بشعبية بين القادة الأفارقة فى وقت لم يكونوا يعلمون فيه الكثير عن المؤتمر. فإن مانديلا يصور تلك المنظمة للقارئ، كما فعل مع القادة الأفارقة ومن بينهم جوليوس نيريرى، على أنها منظمة صبيانية يعوز أعضاءها الحنكة ومراعاة الصالح العام، وأن هَمَّ أعضائها الأكبر كان محاربة المؤتمر وليس محاربة العدو، كما يغفل دورها فى المعركة ومساهمتها فى تحقيق الانتصار. ولا يملك القارئ إلا ن يتساءل.. أنه لو صحت مثل تلك الادعاءات فلماذا إذن اعتقل زعيمها وأبقى فى المعتقل رغم انتهاء مدة الحكم عليه إلى أن

توفى؟ ولماذا لم يتبنها النظام كما تبنى حركة إنكاثا لو أن هدفها الأول كان فعلا محاربة المؤتمر وكانت دوافع أعضائها هى الغيرة والانتقام.

ورغم ذلك لم أملك -وأنا أقرأ تلك الملحمة- التغلب على مشاعر الخزى والضآلة والانهزام، من تخلف أساليبنا وخواء شعاراتنا، من جهلنا بأنفسنا وبأهدافنا وبعالمنا، من تفرقنا وتطاحننا ونحن أبناء العرق الواحد واللغة الواحدة والتاريخ المشترك، من ضياع الطريق من تحت أقدامنا والهزيمة التى هى واقعنا.

تحية لك مانديلا.. تحية لك جنوب إفريقيا... تحية لكل من ساهم فى تلك المعركة الملحمية من أجل الإنسان.

فاطمة نصر

مايو ١٩٩٥



1

الجزء الاول

طفولة فى الريف

-١-

إن الشئ الوحيد الذى منحه لى والدى، بخلاف الحياة، والبنية القوية، والصلة الوثيقة بعائلة ثمبو الملكية هو روليهلاهلا، اسمى عند الميلاد. والمعنى الحرفى لاسمى هو «نزع فرع الشجرة» ولكن معناه الدارج هو المشاغب. ورغم أننى لا أومن بأن الأسماء تصنع قدر الإنسان لكن فى السنوات التى تلت صار الأصدقاء والأقرباء يَعزون الزوابع التى سببتها وواجهتها إلى اسمى. ولم أكتسب اسمى الإنجليزى المألوف حتى يوم التحقت بالمدرسة.

فقدْ وُلدتُ فى الثامن عشر من شهر يوليو عام ١٩١٨ فى مفيزو، وهى قرية صغيرة فى إقليم أومتاتا. وكانت سنَة مولدى قد وافقت نهاية الحرب العالمية. وانتشار وباء الإنفلونزا فى العالم وزيارة وفد المؤتمر القومى الإفريقى فرساى لكى يعبر عن معاناة الأفارقة فى جنوب أفريقيا. وعلى أية حال فإن مفيزو لبقعة صغيرة منعزلة عن عالم الأحداث حيث كان نمط الحياة قد استمر لمئات السنين.

ويقع إقليم الترانسكى على مسافة ثمانمائة ميل إلى الشرق من كيب

تاون وخمسين ميلا إلى الجنوب من جوهانسبرج ويحده نهر كى وحدود الناتال ومن الشمال جبال دراكنسبرج ومن الشرق المحيط الهندى. وترانسكى بلاد جميلة ذات جبال وأودية حصينة وآلاف من الأنهار والجداول التى تُبقى على اخضرار الأرض. وكان الترانسكى أحد أكبر الأقسام الإقليمية فى جنوب أفريقيا وهو فى مساحة سويسرا وتعداد سكانه حوالى الثلاثة ملايين ونصف من قبائل الإكسهوسا مع أقلية ضئيلة من قبيلة الباسوتوس والبيض. وهو موطن شعب الثيمبو أحد أفرع الإكسهوسا الذين أنتمى إليهم.

وكان والدى رئيسا بالنسَب وطبقا للتقاليد. فقد عمده ملك قبيلة الثيمبو رئيسا لمڤيزو وصدّقت الحكومة على اختياره فى ظل الحكم البريطانى. وكان له -كرئيس معين من قبل الحكومة- راتب كما كانت له نسبة من الرسوم التى كانت الحكومة تفرضها على السكان نظير تطعيم المواشى.

وتنتسب الثيمبو من عشرين جيلا إلى الملك زويدى. وطبقا للتراث فقد عاش الثيمبو على سفوح جبال دراكنسبرج وهاجروا باتجاه الشاطئ فى القرن السادس عشر حيث امتزجوا بالإكسهوسا. أما الإكسهوسا

فهم جزء من شعب النجونى الذى عاش منذ القرن الحادى عشر على الأقل على القنص وصيد السمك فى الإقليم الجنوبى الشرقى الغنى المعتدل من جنوب أفريقيا بين الهضبة الكبيرة الواقعة إلى الشمال والمحيط الهندى إلى الجنوب. ويمكن تقسيم النجونى إلى مجموعة شمالية وهم الزولو والسوازى ومجموعة جنوبية تتكون من القبائل التى تتكون منها أمة الإكسهوسا.

وشعب الإكسهوسا ذو كبرياء ونسب أبوى ولغة معبرة عذبة وعقيدة ثابتة فى أهمية القانون والتعليم والكياسة. وكان مجتمع الإكسهوسا تنظيما اجتماعيا متوازنا يعرف فيه كل فرد مكانه. وينتمى كل إكسهوسا إلى عشيرة تتتبع نسبها إلى سلف معين. أما أنا فأحد أعضاء عشيرة الماديبا التى سُميت على اسم رئيس من الثيمبو حكم فى ترانسكى فى القرن الثامن عشر. وأحيانا كثيرة أُلقب بماديبا كدليل على الاحترام.

وكان نجو بنجكوكا أحد أعظم الملوك الذى وحّد الثيمبو وتوفى عام ١٨٣٢. وكانت لديه طبقا للعرف زوجات ينتمين إلى البيوت الملكية الرئيسية وهى البيت العظيم حيث يُنتقى وريث العرش، وبيت اليمين، وبيت أقل أهمية يدعى الإكسهيبا ويشار إليه أحيانا ببيت اليسار. وكانت مهمة أبناء بيت الإكسهيبا أن يحكموا فى المنازعات الملكية. وكان من بين أبناء البيت العظيم نجانجيلزوى وماتانزيما. أما ساباتا الذى حكم الثيمبو منذ عام ١٩٥٤ فقد كان حفيد نجانجيلزوى وابناً أكبر لماتانزيما الرئيس السابق لترانسكى وقد كان أيضا ابن أخى

طبقا للقانون والعرف الذى هو من سلالة ماتانزيما. وكان الابن الأكبر لبيت إكسهيبا هو سيماكادى الذى كان أخوه الأصغر مانديللا جدى.

ورغم توارد قصص على مدى عقدين من الزمن عن كونى سليلا لعرش ثيمبو فإن النسب الذى ذكرته يدحض تلك الأسطورة. فرغم كونى أحد أعضاء البيت الملكى فلم أكن ضمن القلة المدربة للحكم. ولكن كسليل لبيت إكسهيبا فقد دُربت كأبى على إسداء المشورة لحكام العشيرة.

وكان والدى رجلا أسمر طويلا ذا قوام مستقيم مهيب ورثْتُه عنه. وكان سلوكه صارما لا يتورع عن استعمال العصا فى تربيته لأبنائه كما أنه كان عنيدا للغاية وتلك صفة قد أكون أيضا قد ورثتها.

وأحيانا كان يشار إلى والدى على أنه رئيس وزراء ثيمبو لاند أثناء حكم والد ساباتا الذى حكم فى أوائل القرن، وكذلك فى عهد ابنه الذى خلفه. لكن مسمى هذا اللقب غير صحيح رغم أن دوره كان لا يختلف عن مهام تلك الوظيفة فقد كان يرافقهما فى أسفارهما ويحضر معهما الاجتماعات الهامة مع مسئولى الحكومة. كما كان والدى قيِّماً معترفا به على تاريخ الإكسهوسا وكان هذا أصل اهتمامى أنا بالتاريخ ذلك الاهتمام الذى كان يشجعه والدى. ورغم جهل والدى بالقراءة والكتابة فقد كان خطيبا ممتازا يستحوذ على انتباه الجماهير.

وفيما بعد اكتشفت أن والدى كان أيضا صانعا للملوك. فقد توفى والد ساباتا وهو طفل وعند استشارة والدى أوصى باختيار وصى العرش

الذى سيكون قدوة للأمير الصغير. وثار جدل حول شخص الوصى لكن فى النهاية أخذ الثيمبو والبريطانيون باختيار والدى. وحينما حان الوقت رد الوصى جو تجينتابا الجميل بطريقة لم تخطر ببال والدى آنذاك.

وكان لوالدى أربع زوجات ثالثتهن هى أمى نوز/كينى/ فانى من عشيرة من عشائر الإكسهوسا. وكانت لكل من تلك الزوجات: الزوجة العظمى، والزوجة اليمنى (والدتى) والزوجة اليسرى وزوجة بيت الدعم، وحدتها السكنية، وتتألف من مكان للسكنى وحظيرة فسيحة وقطعة أرض لزراعة المحاصيل وكوخ له سقف من القش وكانت تفصل بين كل من تلك الوحدات أميال وكان والدى يسافر بينهما. وفى أثناء تلك السفريات صار لأبى ثلاثة عشر من الأولاد، أربعة ذكور وتسع أناث. أما أنا فالابن الأكبر لزوجة البيت الأيمن وأصغر أبناء أبى ولى ثلاث شقيقات وفيما عداى فجميع أبناء أبى فى عداد الموتى الآن وكان جميعهم أكبر منى سنا ومرتبة.

وحينما كنت طفلا صغيرا دخل أبى فى جدل نتج عنه حرمانه من الرئاسة فى مڤيزو. كان والدى متمردا عنيدا ذا إصرار على العدالة وإحساس بها وقد ورثت ذلك عنه، فقد كان عليه كرئيس أن يقدم تقريرا عن عمله للملك الثيمبو وللقاضى الأبيض. وذات يوم قدّم أحد رعايا والدى شكوى ضده بسبب ثور كان قد شرد من صاحبه. وأرسل القاضى رسالة لوالدى يأمره فيها بالمثول أمامه وأرسل والدى ردا مفاده أنه لن يحضر لأنه مازال يستعد. وفى تلك الأيام لم يكن لفرد أن

يعصى أمرا لممثل حكومة البيض واعتبر تصرف والدى غاية فى الغطرسة.

لكن رد والدى كان يعبر عن عقيدته بأن ليس لقاضى الحكومة سلطة قانونية عليه. فإنه لم يكن يستعين بالقوانين الإنجليزية فى تصريف شئون القبيلة. ولم يكن ذلك التحدى نوبة غضب ولكنه كان مسألة مبدأ.

وحينما تلقى القاضى رد والدى اتهمه فورا بالعصيان ولم يُجرِ استجوابا أو تحقيقا فقد كان ذلك حقا للموظفين البيض فقط. وقام القاضى بعزل والدى ببساطة وأنهى بذلك رئاسة عائلة مانديللا.

ولم أكن وقتها أدرى بتلك الأحداث ولكنى تأثرت بها. فقد فَقَدَ والدى، الذى كان من النبلاء بمقاييس ذلك الزمن، ثروته ولقبه. وقد حرم من معظم قطعانه وأرضه ومن ريعها. ونتيجة لعسر ظروفنا فقد رحلت أمى إلى قونو، وهى قرية أكبر قليلا إلى الشمال من مفيزو حيث حظيت بدعم الأقارب والأصدقاء. وفى تلك القرية قُرب أومتاتا قضيت أيام صباى ومن هناك يمكننى استعادة أولى ذكرياتى.

-٢-

كانت قرية قونو تقع فى واد ضيق معشب تتخلله جداول الماء وتحيط به التلال الخضراء. وكان السكان بضع مئات يعيشون فى أكواخ مشكلة كخلايا النحل من جدران من الطين وعمود خشبى فى الوسط يسند سقفا مدببا من الأعشاب. وكانت الأرضيات مصنوعة من كثيبات بيوت مستعمرات النمل المجروشة وتحفظ ملساء بطلائها بروث البقر. أما

الفتحة الوحيدة فكانت مدخلا صغيرا كان على الإنسان أن ينحنى ليمر منه. ولم تكن هناك طرق، فقط كانت هناك ممرات بين الأعشاب داستها الأقدام العارية للصبية والنساء. وكانت نساء القرية وأطفالها يرتدون بطاطين مصبوغة بلون يميل للاصفرار ولم يكن يرتدى الملابس الغربية فى القرية سوى الأفراد الذين يدينون بالمسيحية. وكانت الماشية والأغنام والماعز والخيل ترعى فى مراع جماعية. أما الأرض نفسها فكانت ملكا للدولة وفيما عدا استثناءات قليلة فلم يكن للأفارقة فى ذلك الوقت حق ملكية الأرض ولكنهم كانوا مستأجرين يدفعون إيجارا سنويا للحكومة. وفى تلك المنطقة كانت هناك مدرستان ابتدائيتان وحانوت عام وبركة لتغطيس الماشية.

وكانت الذرة والفاصوليا والفول والقرع تكوّن الجزء الرئيسى من طعامنا ولم يكن ذلك لتفضيلنا إياها ولكن لأن الناس لم يكن بمتناولهم الحصول على أطعمة أخرى. أما العائلات الأكثر ثراء فكانت تضيف إلى ذلك الشاى والقهوة والسكر. أما المياه المستعملة فى الزراعة والطهو والغسيل فكانت النسوة ينقلنها من الجداول والينابيع. وفى الواقع فإن قونو كانت قرية نساء وأطفال لأن معظم الرجال كانوا يقضون الجزء الأكبر من العام يعملون فى مزارع بعيدة أو فى مناجم على طول الصخور جنوبى جوهانسبرج وكانوا يعودون إلى القرية أحيانا مرتين فى العام لحرث الحقول. أما بقية الأعباء فكان يُترك أمرها للنساء والأطفال. أفراد قليلون جدا فى القرية هم الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة لأن فكرة التعليم كانت ما تزال غريبة على

الأكثرية.

كانت أمى تشرف على ثلاثة أكواخ فى قونو كانت تعج دائما بالرضع والأطفال من الأقارب ولا أتذكر أية مناسبة كنت فيها وحيدا كطفل. ففى الحضارة الإفريقية يعتبر أبناء وبنات الخالات والأعمام إخوة وأخوات وليس لدينا إخوة وأخوات غير أشقاء وتعتبر أخت أمى أماً لى وابن خالى أو عمى أخا لى وطفل أخى طفلى.

كان أحد أكواخ أمى الثلاثة يستعمل للطبخ والآخر للنوم والثالث للخزين. ولم يكن بالكوخ الذى كنا ننام به أثاث بالمعنى الغربى فقد كنا ننام على حصير ونجلس على الأرض. وكانت أمى تطهو الطعام فى إناء ذى ثلاثة أرجل على نار مكشوفة داخل الكوخ أو بالخارج. وكانت تزرع وتحصد الذرة الخاصة بها. وكانت النساء يستعملن وسائل مختلفة لإعداد الذرة فكن يطحن الحبات بين رحايتين ليصنعن الخبز أو يستخرجن دقيق الذرة ليصنعن اللبن الرائب أو يطهون جريش الذرة. وعلى خلاف الذرة التى كانت تندر أحياناً فقد كان حليب الماعز والأبقار متوافرا دائماً.

وفى صغرى كنت أقضى معظم وقت فراغى فى المروج ألعب وأتعارك مع صبية القرية فقد كان الصبى الذى يقضى وقته ملتصقاً بأمه يُنظَر إليه على أنه مخنث. وفى الليل كنت أقتسم طعامى وبطانيتى مع أولئك الصبية. وعندما عملت بالرعى لم أكن قد تجاوزت الخامسة حيث كنت أسهر على الأغنام والعجول. وقد تعلمت وأنا أعمل فى الحقل الإيقاع

بالطيور بواسطة المقلاع وجمع عسل النحل والجذور التى تؤكل، وأن أرتشف الحليب الدافئ من ضروع الأبقار وأن أسبح فى القنوات الصافية وأن أصطاد السمك بواسطة الخيط المجدول بالأسلاك الحادة. كما تعلمت المبارزة بالعصى وتلك مهارة أساسية لكل فتى ريفى إفريقى.

وكنا كصبية نُترك لنفعل ما شئنا وكنا نلعب بدمى صنعناها من الطين وأغصان الأشجار. وكانت المروج والتلال ملعبنا. وتعلمت الركوب بالتسلق على ظهور العجول التى تم فطامها. وبعد أن سقطت عدة مرات تمرست فى العملية.

وذات يوم تلقيت درسا من حمار جامح، كنا نتبادل تسلق ظهره وحينما جاء دورى قفزت على ظهره فجمح الحمار باتجاه شجرة شوكية وألقى بى بعد أن خدشت وجرحت الأشواك وجهى وسبب لى الارتباك فى حضور أصدقائى. ورغم أن الفاعل كان حمارا تعلمت قسوة إهانة المرء لغيره. فقد كنت أهزم زملائى دون إشعارهم بالمهانة. وعادة كان الصبية يلعبون بمفردهم لكن أحياناً كنا نسمح لأخواتنا بمشاركتنا فى ألعاب مناسبة.

وبعد الانتهاء من تلك الألعاب كنت أعود للكوخ حيث كانت والدتى تقوم بتجهيز طعام العشاء. ومثل ما كان والدى يقص علىّ قصصا عن معارك تاريخية لمحاربى الإكسهوسا كانت والدتى تسحرنا بأساطير الإكسهوسا التراثية وكانت تلك الأساطير تثير مخيلة طفولتى وغالبا ما

احتوت على عبرة أخلاقية.

وكأطفال الإكسهوسا كنت أحصل على المعرفة عن طريق الملاحظة والمحاكاة وليس بتوجيه الأسئلة وكان الكبار يلقوننا المعلومات التى يرونها ضرورية.

وكانت حياتى وحياة معظم الإكسهوسا فى ذلك الوقت تشكلها الأعراف والطقوس والمحرمات. فالرجال كانوا يتبعون الطريق الذى حدده لهم آباؤهم أما النساء فقد عشن حياة أمهاتهن من قبل.

ولم أقابل سوى قليل من البيض فى قونو. فقد كان القاضى أبيض وكذلك بالطبع كان صاحب المتجر القريب. وكان يحدث أحيانا أن يمر مسافرون بيض أو أفراد شرطة عبر منطقتنا. وكان البيض يبدون لى فى عظمة الآلهة وكنت أعلم أنه يجب إبداء الخوف والاحترام إزاءهم.

وكانت المنافسة القبلية الوحيدة فى عالمنا الصغير فى قونو هى بين الإكسهوسا والأمفنجو الذين كان يعيش عدد صغير منهم فى قريتنا. وكان الأمفنجو قد وصلوا من الرأس الشرقى فى تلك الفترة ما بين ١٨٢٠-١٨٤٠ التى حاول خلالها محاربو الزولو غزو كل القبائل وتوحيدها تحت حكم عسكرى. وأُجبر الأمفنجو -كلاجئين- على القيام بأعمال كان لا يقوم بها أفارقة كالعمل فى مزارع البيض ومتاجرهم. كما وكانوا قوما محبين للعمل، ولصلتهم بالأوروبيين فقد أصبحوا أكثر تعليما وغربية من الأفارقة الآخرين.

وحينما كنت صبيا كانت منطقة الأمفنجو أكثر الأقسام تقدما فى

مجتمعنا، وكانت تمدنا برجال الدين والشرطة والكتبة والمترجمين، وكانوا من أوائل الذين اعتنقوا المسيحية وبنوا بيوتا أفضل واستخدموا طرقا علمية في الزراعة وكانوا برهانا على مقولة الإرساليات وهي أن تصبح مسيحيا فإنك تصبح متحضرا ولكي تكون متحضراً فعليك أن تكون مسيحيا. وكان هناك بين الإكسهوسا شعور بالعداوة ضد الأمفنجو أعتقد أن سببه الغيرة.

ولم يسهم والدي في العداء ضد الأمفنجو بل صادق أخوين منهما هما جورج وبن مكبيللا وكانا استثناء في قونو، حيث كانا متعلمين وكان جورج مدرسا متقاعدا أما بن فقد كان شرطيا. ورغم محاولات الأخوين مكبيللا فقد ظل والدي متباعدا عن المسيحية واحتفظ بعقيدة آبائه من الإكسهوسا. أما والدتي فقدت وقعت تحت تأثيرهما واعتنقت المسيحية وأصبح اسمها الذي منحته إياها الكنيسة هو فاني. وأيضا يرجع تعميدي في الكنيسة الميثودية إلى الأخوين. ومن ثم أُرْسِلْتُ إلى المدرسة رغم أن أحدا من عائلتي لم يتلق تعليما من ذلك النوع.

كان مبني المدرسة يتكون من غرفة واحدة ذات سقف أوروبي، تقع على الجانب الآخر من التل من قريتي قونو. وكنت حينذاك في السابعة. وفي ذلك اليوم انتحى بي والدي وأخبرني بأن عليّ أن أرتدي الثياب المناسبة وأخذ أحد سراويله وقصه عند الركبتين وطلب مني أن أرتديه وفعلت. كان الطول مناسبا لكن الوسط كان متسعا جدا وأخذ والدي قطعة دوبارة وحزمني بها عند الوسط وشعرت بالفخر وأنا أرتدي ثيابي تلك.

وفى أول يوم لى فى المدرسة أعطت المدرسة كل واحد منا اسماً إنجليزيا وأخبرتنا أنه من ذلك الحين فصاعدا سننادى به. وعموما فالأفارقة من جيلى وحتى فى يومنا هذا يحملون اسما إنجليزيا وآخر إفريقيا فلم يكن البيض يريدون أو يستطيعون نطق الأسماء الإفريقية وكانوا يعتبرونه تخلفا أن تحمل اسما وطنيا وقالت لى المدرسة فى ذلك اليوم إن اسمى الجديد هو نيلسون.

-٣-

وفى إحدى الليالى وحينما كنت فى التاسعة انتبهت لحركة فى المنزل فقد كان والدى قد جاء إلينا فى غير موعد وصوله المعتاد. ووجدته فى كوخ والدتى راقدا على ظهره على الأرض وقد انتابته نوبة من السعال المتصل. وكان من الواضح أن والدى لن يمكث طويلا فى هذا العالم فقد كان مريضا بالرئة لكنه لم يحدث أن زار طبيباً. ومكث فى الكوخ دون حركة أو كلام لعدة أيام. وفى إحدى الليالى ساءت حالته وكانت أمى وزوجته الصغرى نوداييمانى -التى حضرت لتمكث معنا- ترعيانه. وفى ساعة متأخرة من الليل نادى على زوجته الصغرى وطلب منها أن تحضر تبغه وتشاورت الزوجتان وقررتا أنه من غير الحكمة أن يتعاطى التبغ فى مثل حالته ولكن أمام إصراره ملأت نوداييمانى غليونه وأشعلته وناولته إياه. فدخن والدى وهدأ واستمر يدخن لمدة ساعة تقريباً ثم مات وغليونه مازال مشتعلاً.

لا أتذكر أن حزنى كان بمقدار شعورى بالضياع. فرغم أن والدتى

كانت مركز وجودى فإن معرفتى بذاتى كانت بنسبى إلى أبى. وقد غيرت وفاته حياتى كلها بطريقة لم أشك فيها فى ذلك الوقت. فبعد فترة الحداد أخبرتنى والدتى بأننى سأترك قونو ولم أسألها لماذا أو إلى أين أنا ذاهب.

قمت بحزم ممتلكاتى القليلة. وفى يوم ما فى الصباح الباكر اتجهنا إلى الغرب فى الطريق إلى سكنى الجديد. لم أشعر بالحزن لفقدان والدى مثل شعورى بالحزن على ذلك العالم الذى تركته. وقبل أن نختفى وراء التلال استدرت ونظرت إلى قريتى. ولم أستطع أن أتخيل أن المستقبل الذى كنت متجها إليه يمكن أن يقارن بذلك الماضى الذى تركته.

سافرنا على الأقدام فى صمت حتى بدأت الشمس تغيب. كانت رحلة مرهقة عبر طرق صخرية غير مرصوفة أعلى وأسفل تلال وعبر قرى عديدة، لكننا لم نتوقف. وقرب المساء وفى قاع واد ضحل تحوطه الأشجار حططنا فى قرية كبيرة يتوسطها مسكن متسع حسن المنظر يفوق أى شئ قد رأيته من قبل. كان المسكن يتكون من منزلين مستطيلين وسبعة أكواخ كبيرة كلها مطلية بالجير الأبيض وبدت مبهرة حتى فى ضوء الغروب. كانت هناك حديقة أمامية كبيرة وحقل ذرة تحده أشجار الخوخ. وكانت هناك حديقة أشد اتساعا فى الخلف بها أشجار تفاح وخضروات ومساحة من الزهور والسنط. وبالقرب كانت هناك كنيسة.

وفى ظل أشجار السنط التى كانت تزين المدخل الأمامى للمنزل الرئيسى جلست مجموعة من حوالى عشرين رئيسا قبليا. وكانت فى الضيعة قطعان من الماشية ترعى فى الأرض الغنية. كان منظر الثراء يفوق خيالى. وكان ذلك هو المكان العظيم - مفهيكيزوينى، عاصمة ثمبولاند الإقليمية ومقر الرئيس جونجينتابا القائم بأعمال حاكم شعب ثمبو.

ودخلت سيارة مهولة من البوابة الغربية وقف على أثرها الرجال الجالسون فى الظل رافعين قبعاتهم وهم يهللون بالتحية التقليدية لشعب الإكسهوسا لرئيسهم «مرحبا جونجينتابا» ونزل من العربة رجل قصير متين يرتدى حلة أنيقة، وكان ذا حضور قوى تتطلع إليه كل الأعين. ثم صافح كل الرجال الذين كانوا تحت الشجرة والذين اكتشفت فيما بعد أنهم يكونون أعلى سلطة قانونية فى ثمبولاند.

كان ذلك هو الحاكم الذى سيصبح ولىّ نعمتى للعقد القادم. فحتى تلك اللحظة لم يكن لدى طموح أكثر من الطعام الجيد وبطولة المبارزة بالعصى. لم تكن لى أفكار عن النقود أو الطبقات أو الشهرة والقوة. وفجأة فُتح عالم جديد أمامى وشعرت بأن كثيرا من معتقداتى وانتماءاتى الراسخة تتلاشى. وبدأت الأسس التى أرساها والدى فى الاهتزاز. وفى لحظة أدركت أن الحياة يمكن أن تنطوى بالنسبة لى على أشياء أكثر من أن أكون بطل مبارزة العصى.

وفيما بعد علمت أنه عقب وفاة أبى عرض جونجينتابا أن يكون

وصيا عليّ وأن يعاملني معاملة أبنائه وأن أحصل على نفس مزاياهم. ولم يكن أمام والدتي خيار وكان رضاها مبعثه أنه رغم أنها ستفتقدني فإن نشأتي في رعاية الحاكم ستكون أفضل ولم يكن الحاكم قد نسى أن تدخل والدي لجعله وصيا هو الذي جعل منه رئيسا ذا سلطة عليا.

وبسرعة انغمست في الحياة اليومية لمفهيقزويني. فقد كانت بالنسبة لي مملكة سحر وكان كل شئ بهيجا وأصبحت الواجبات التي وجدتها مملة في قونو مغامرة في مفهيقزويني. فبعد فراغي من المدرسة كنت أعمل في الحرث أو الرعي وكنت أركب الخيل وأقتفي الطيور بالمقلاع وأبحث عن صبية أقارعهم وكنت أحيانا أرقص الليل بأكمله على نغمات وتصفيق فتيات الثمبو.

وانتظمت في المدرسة ذات الحجرة الواحدة المجاورة للقصر وكنت أدرس الإنجليزية والإكسهوسا والتاريخ والجغرافيا. وقد لقيت اهتماماً من مدرسي وتفوقت نتيجة لانكبابي على الدراسة. وقد دعمت عمتي فانيوى التي كانت تعيش في القصر النظام الذي فرضته على نفسي وكانت تراجع واجباتي المنزلية في المساء.

وكما كان الحاكم محور الحياة في مفهيقزويني فقد كان ولداه محور حياتي. كان چاستيس ابنه الكبير الأوحد ووريثه وكانت نومافو ابنته. وقد عشت معهما وعُوملت مثلهما. وفيما بعد انضم إلينا أخو ساباتا الأكبر ووريث العرش وكونا أربعتنا المجموعة الملكية.

كان چاستيس يكبرنى بأربع سنوات، وأصبح بطلى الأول بعد والدى. وكان وقتها تلميذاً فى مدرسة كلاركبرى الداخلية التى تبعد عن القرية ستين ميلا. وكان طويلا مليحا ذا عضلات ورياضيا ممتازا وكان بشوشا جريئا يسحر من حوله بغنائه ورقصه الغربى. وقد أصبحت وچاستيس صديقين حميمين رغم تعارض صفاتنا. ورغم أننا كنا نعامل كندين فقد كان لكل منا مستقبله فقد كان چاستيس وريث أحد الرئاسات القوية فى قبيلة الثمبو بينما كنت سأرث ما سيتفضل الحاكم به علىّ..

كنت أتواجد يوميا فى قصر الحاكم للقيام بأعباء معينة وكان أحب الواجبات إلىّ هى كَىْ حلل الحاكم فقد كنت أقضى الساعات الطويلة لأثنى له السراويل بإحكام.

وكان الذى سير حياتى فى مفهيقزوينى هو رئاسة القبيلة والكنيسة. وقد تواجدت مبادئهما فى حياتى فى تناسق غير مستقر رغم أننى حينذاك لم أجد تنافرا بينهما فلم تكن المسيحية تمثل لى نظاما عقائديا بقدر كونها الدين الذى يدين به شخص معين وهو المقدس ماتيولو الذى كان حضوره القوى يمثل لى ما هو جذاب فى المسيحية وقد ترك أثرا روحانيا علىّ. لكن اهتمامات الكنيسة فقد شملت الآخرة وعالمنا الدنيوى وكنت أرى بنفسى أن ما من شئ يحققه الأفراد الأفارقة إلا ويأتى عن طريق الكنيسة وعمل الإرساليات بها. فقد كانت المدارس الإرسالية تدرب الكتبة والمترجمين ورجال الشرطة. وكان هؤلاء يمثلون أعلى طموحاتى.

وكان الحاكم يأخذ دينه مأخذ الجد. وفي الواقع فإن المرة الوحيدة التي جُلدت فيها كانت حينما تغيبت عن قداًس الأحد لأشارك في مباررة ضد بعض الصبية من قرية أخرى.

لقد تأثرت أفكاري عن الزعامة بعمق ملاحظتي للحاكم وبلاطه. فقد كنت أرقب وأتعلم من الاجتماعات القبلية التي كانت تعقد بانتظام في المكان العظيم. وكانت تُعقد كلما دعت الحاجة لمناقشة الأمور المحلية كالجفاف أو السياسات التي يأمر بها القاضي الأبيض أو القوانين الجديدة التي تسنها الحكومة وكان لكل شعب الثمبو حرية الحضور وكان يأتي عدد كبير على ظهور الخيل وسيرا على الأقدام.

وفي تلك المناسبات كان يحيط بالحاكم مجلس مستشاريه الذي كان يقوم بدور البرلمان والسلطة القانونية. وكانوا رجالا حكماء على معرفة بالتاريخ القبلي وكان لآرائهم ثقل كبير.

وكان الضيوف يجتمعون في فناء دار الحاكم الذي كان يفتتح الاجتماع بشكرهم لحضورهم ويوضح سبب استدعائهم ثم لايتفوه بكلمة أخرى حتى قرب نهاية الجلسة. وكانت تلك ديمقراطية في أصفى معانيها، فقد كان يتكلم كل من يريد ذلك وكان يُنصتُ إلى المتكلم سواء كان رئيسا أم فلاحاً أم أجيراً. وكان الناس يتكلمون دون مقاطعة، فقد كان أساس الحكم الذاتي حرية الجميع في التعبير عن آرائهم وتساويهم كمواطنين.

كانت الدهشة تتملكني في البداية لعنف الأفراد وصراحتهم في نقدهم

للحاكم وكان هو الهدف الأول للنقد ومهما كانت التهمة فإن الحاكم كان يستمع ولا يدافع عن نفسه.

وكانت الجلسات تستمر حتى يصل الحضور إلى نوع من الإجماع. وكان الإجماع أحيانا يكون على عدم الاتفاق لكي ينتظروا إلى وقت آخر ليقترحوا حلا. وكانت ديموقراطيتهم تعنى أن يُسمع كل فرد وأن يؤخذ القرار بوَاسطة الجميع وليس بالأغلبية.

وعند غروب الشمس كان الحاكم يتكلم ويلخص ما قيل ويشكل إجماعا من الآراء المختلفة.

وكقائد الآن فإنى أحاول دائما أن أتبع المبادئ التى رأيتها مبكرا تتمثل فى الحاكم فى «المكان العظيم». فإنى أحاول أن أستمع لما يقوله كل شخص فى أى نقاش قبل أن أغامر برأيي وغالبا ما يمثل رأيى إجماعا لما سمعته فى النقاش.

وهناك أيضا بدأ اهتمامي بالتاريخ الإفريقى. فإلى ذلك الحين كنت قد سمعت فقط عن أبطال الإكسهوسا لكن فى «المكان العظيم» تعلمت أن هناك أبطالا أفارقة آخرين وعرفت عنهم من رؤساء العشائر وقادتها الذين كانوا يأتون «للمكان العظيم» ليحسموا المنازعات أو يحكموا فى القضايا. وكانوا ينتهون مبكرا فى بعض الأيام ويجلسون يقصون الحكاوى وكانت قصصهم عن كفاح الأبطال والمحاربين الأفارقة ضد الغزاة والمستعمرين البيض تلهب خيالى وكان أحد هؤلاء الرؤساء يشجب الرجل الأبيض الذى شتت قبيلة الإكسهوسا عن قصد وأفهم

شعب الثمبو أن رئيسهم الحقيقي هو الملكة البيضاء التي تجلس وراء المحيط وأنهم رعاياها. لكن الملكة البيضاء لم تأت إلا بالتعاسة والغدر للرجل الأسود. وقد جعلتني قصص ذلك الرئيس وإدانته للبريطانيين أشعر بالغضب وبأنني قد خدعت. وكان يقول أيضا إن الأفارقة كانوا يعيشون في سلام نسبي حتى مقدم البيض عبر البحار ومعهم أسلحة ينبعث منها اللهب. وفي إحدى المرات قال إن الثمبو والمبود والإكسهوسا والزولو كلهم نسل أب واحد، لكن الرجل الأبيض فرق ألفة القبائل المختلفة، وجاء شرهاً إلى الأرض وقاسم الرجل الأسود أرضه كما قاسمه الهواء والماء، فالأرض ليست ملكا لأحد لكن الرجل الأبيض اغتصب الأرض كلها.

لم أكن أعرف أن التاريخ الحقيقي لا يتواجد في الكتب البريطانية التي تدعي أن جنوب إفريقيا بدأت حينما رسَى جان ڤان رايبيك في رأس الرجاء الصالح عام ١٦٥٢. فقد بدأت أكتشف أن تاريخ الشعوب التي تتحدث بلغة البنتو بدأ من بقعة بعيدة في الشمال، وأنه ببطء وعبر آلاف السنين وجدنا طريقنا إلى حافة تلك القارة العظيمة. وعلى أية حال فقد اكتشفت ذلك من وصف الرئيس جويي للتاريخ الإفريقي وخاصة لفترة ما بعد عام ١٦٥٢ لم يكن دائما وصفاً دقيقاً.

-٤-

عندما بلغت السادسة عشرة قرر الحاكم أن الوقت قد حان لأصبح رجلاً. وفي عرف الإكسهوسا لا يتحقق ذلك إلا عن طريق الختان.

وطبقا للتقاليد فإن الرجل الذى لا تجرى له العملية لا يرث ثروة أبيه ولا يستطيع أن يتزوج أو أن يقوم على طقوس القبيلة ولا يُنظر إليه كرجل بل يظل صبيا. وتصحب عملية الختان طقوس معقدة تُعدُّ الفرد لمرحلة الرجولة.

وكانت المراسم التقليدية للختان قد أُعدّت أساسا من أجل جاستيس، أما الباقون وكان عددهم ستة وعشرين فكانوا هناك لمشاركته. وفى بداية السنة الجديدة توجهنا إلى كوخين من الأعشاب في واد منعزل على ضفاف نهر مباشى وهى البقعة التقليدية لإجراء العملية لأبناء ملوك الثمبو. وكان علينا أن نعيش فى عزلة عن المجتمع. وكان من بين رفاقنا فتى هو أكثرنا ثراء وكان ذا شخصية آسرة. وكان رغم أميته يحكى قصصا عن رحلاته إلى جوهانسبرج وهو مكان لم يكن أحدنا قد رآه. وكانت قصصه عن المناجم مثيرة لدرجة أنه كاد يقنعنى بأن أصبح عامل مناجم قائلاً إن ذلك يتطلب أن تكون قويا وشجاعاً وتلك هى صفات الرجولة المثلى. وبعد ذلك تحققت أن قصصا كتلك قد جعلت شبابا كثيرا يهرب ليعمل بمناجم جوهانسبرج حيث كانوا يفقدون صحتهم وحياتهم.

وفى فجر اليوم المحدد بدأنا استعدادنا فاقتدنا إلى النهر لنستحم فى مائه وعند الظهر أمرنا بالاصطفاف على قطعة أرض قرب النهر حيث اجتمع لفيف من الآباء والأقرباء ومعهم حفنة من رؤساء القبائل. وكانت عملية الختان اختبارا فى الشجاعة وقوة التحمل ولم يكن يستخدم فيها مخدر وكان الذى يجرى العملية رجلاً عجوزاً خبيراً

يستعمل رمحه ليحولنا من صبية إلى رجال بضربة واحدة.

وفجأة سمعت الولد الأول يصيح «أنا رجل» تلك العبارة التى كنا قد دربنا على أن نقولها لحظة الختان. ولما جاء دورى رأيت الرجل راكعا أمامى. نظرت فى عينيه مباشرة. كان شاحبا ورغم برودة الجو فقد كان وجهه يلمع بالعرق. وتحركت يداه بسرعة وبدون كلمة قام بشد الجلد الأمامي وبحركة واحدة هبط رمحه. شعرت كأنما النيران تسرى فى أوردتي وكان الألم عظيما ومرت ثوان عدة قبل أن أتذكر أن أصيح ثم استعدت نفسى وصحت «أنا رجل» وعند نهاية المراسم عدنا إلى أكواخنا حيث مكثنا يومين وفى نهاية عزلتنا أُحرقت الأكواخ ومحتوياتها وهكذا دُمِر آخر ما كان يربطنا بطفولتنا.

ثم أقيم احتفال كبير للترحيب بنا كرجال فى مجتمعنا. واجتمعت العائلات والأصدقاء والرؤساء المحليون ليلقوا الكلمات ويغنوا الأغانى ويقدموا الهدايا. وقد منحت أنا عجلا وأربعة أغنام أما چاستيس فقد منح قطيعا بأكمله فقد كان ابن ملك أما أنا فقد كان مُقدرا لى أن أصبح مستشاراً.

وجاء فى كلمة المتحدث الرئيسى وكان رئيس عشيرة قوله «لقد قمنا بختان زهرة شبابنا فى طقوس واعدة بالرجولة لكننى أقول لكم إنه وعد خداع، وعد لن يتحقق لأننا نحن الإكسهوسا والسود الأفارقة شعب مهزوم. إننا عبيد فى أرضنا. إن بين هؤلاء الشباب رؤساء لن يحكموا لأنه ليست لدينا القدرة على أن نحكم أنفسنا، وجنودا لن

يحاربوا وطلبة علم لا يوجد مكان لهم يدرسون به. إن قدرتهم ستضيع هباء فى محاولتهم أن يرتزقوا ما يكفى لعيشهم بقيامهم بأعباء لا تتطلب ذكاء فى خدمة الرجل الأبيض. إن تلك الهدايا ليست لها قيمة لأننا لا نستطيع أن نهبهم أعظم هدية وهى الحرية والاستقلال».

وشعرت بالغضب لما قاله الرئيس رافضا ملاحظاته على أنها تعليقات مهينة من شخص جاهل لا يستطيع أن يقدر قيمة التعليم والمزايا التى أتى بها الرجل الأبيض. فقد كنت حينذاك أنظر للرجل الأبيض على أنه صاحب فضل واعتقدت أن الرئيس جد جاحد. ولكن -بدون أن أدرى سببا- بدأت كلماته تشغلنى.. لقد ألقى بالبذرة التى رغم أنها ظلت نائمة لوقت طويل، أخذت تنمو فى آخر الأمر. وحينذاك تحققت أن الجاهل لم يكن الرئيس بل أنا.

-٥-

لم يكن مقدرا لى مثل معظم الفريق الذى تم ختانه معى أن ألتحق بالعمل فى مناجم الذهب. وكثيرا ما قال لى الحاكم إنه لا يناسبنى أن أقضى حياتى أستخرج ذهبا للرجل الأبيض دون أن أتعلم حتى كتابة اسمى. فقد كان مقدرا لى أن أصبح مستشارا لساباتا وكان لا بد أن أتلقى التعليم المناسب لذلك. وهكذا عدت إلى مفهيقزوينى بعد الاحتفال لأمكث فترة أعبر بعدها نهر مباشى لأول مرة فى حياتى فى طريقى إلى معهد كلاركبرى الداخلى. وقد قام الحاكم بنفسه بتوصيلى بسيارته المهيبة. وكان قد أهدانى أول زوج لى من الأحذية كعلامة

للرجولة. وكان المعهد يقع في موقع إحدى الإرساليات في ترانسكي وقد أسس في عام ١٨٢٥. وكان في ذلك الوقت أعلى مؤسسة تعليمية في ثمبولاند وكان الحاكم نفسه قد تلقى تعليمه به وتبعه چاستيس. كان مدرسة ثانوية ومعهدا لإعداد للمعلمين في الوقت نفسه وكان يقدم بعض الدراسات العملية كالنجارة والتفصيل والحدادة.

لم تكن لي خبرة في التعامل مع البيض وفي أثناء الرحلة كلمني الحاكم عن المبجل هاريس مدير المعهد وأعطاني محاضرة عن كيفية التعامل معه قائلاً إنني يجب أن أعامله بنفس الاحترام الذي أعامله هو به.

وكانت المدرسة تتكون من حوالي أربعة وعشرين مبنى من طراز مباني المستعمرات وكانت تحوي مساكن خاصة والقسم الداخلي والمكتبة وقاعات الدراسة.

وفي مكتب المبجل هاريس قدمني الحاكم حيث وقفت أصافح رجلاً أبيض لأول مرة في حياتي. وكان السيد هاريس ودودا وكان يعامل الحاكم باحترام كبير. وقد بيّن له الحاكم أنني أعدّ لأكون مستشارا للملك وأنه يأمل أن يشملني باهتمام خاص. وهنا أومأ المدير قائلاً إن طلبة المعهد عليهم أن يقوموا بأعمال يدوية بعد ساعات الدراسة وأنه سيجعلني أعمل في حديقته الخاصة.

وبعد انتهاء المقابلة ودعني الحاكم وأعطاني جنيها كمصروف لي وكان أكبر مبلغ أمتلكه.

وبما أن كلاركبرى كانت معهدا للثمبو أنشئت على أرضْ منحها ملك عظيم للثمبو فقد توقعت كأحد سلالته أن ألقى نفس الاحترام الذى كنت ألقاه فى مفهيقزويني. ولكن أحداً لم يعرف أو يهتم أن يعرف تلك الحقيقة فقد كان كثير من الطلبة من سلالات مرموقة. وكان هذا درسا مهما فقد تبينت سريعا أن علىَّ أن أبدأ شق طريقى معتمداً على قدراتى وليس على إرثى وكان معظم زملائى متفوقين علىَّ رياضيا وعلميا وكان علىَّ أن ألحق بهم.

وسرعان ما تأقلمت مع الحياة فى كلاركبرى وشاركت فى النشاط الرياضى والألعاب لكن أدائى كان أقل من العادى. ولأول مرة تلقيت العلم على أيدى مدرسين مدربين، كان العديد منهم يحمل درجات جامعية رغم ندرة ذلك حينذاك. وكان من بينهم مدرسة التاريخ والإنجليزية وكانت أول إفريقية تنال درجة الليسانس.

وكان المبجل هاريس يدير كلاركبرى بيد من حديد وحس صارم بالعدالة. وكان الطلبة يبدون نحوه الخوف أكثر من الحب. لكن فى الحقيقة رأيت جانبا مختلفا من شخصيته فقد كان خلف قناع شدته فرداً رقيقاً ذا عقلية واسعة. وكان يؤمن بحرارة بأهمية تعليم شباب الأفارقة. وكنت نادرا ما أتحدث إليه ولكنه كان قدوة لى فى التفانى من أجل هدف نبيل.

وبعد بداية غير مرموقة تمكنت من فهم الأمور وأسرعت فى الدراسة لأحصل على الشهادة العلمية الأولى فى عامين بدلا من الثلاثة

المعتادة. وكنت طالبا دءوباً. وساعد الوقت الذى قضيته فى كلاركبرى على توسعة أفقى ولكننى لا أستطيع القول إننى حينما تركت المعهد كنت شخصا متفتحا غير منحاز. فقد كنت قد التقيت بعدد من الطلبة من جميع أنحاء ترانسكى ومن جوهانسبرج وباستولاند وكان بعضهم مصقولا ومنفتحا على العالم بدرجة جعلتنى أشعر بإقليميتى. لكننى لم أحقد عليهم. فحينما تركت كلاركبرى كنت مازلت ثمبوياً فى أعماقى وكنت فخورا أن أفكر وأتصرف من ذلك المنطلق. فقد اعتقدت أن جذورى هى قَدرى وأننى سوف أصبح مستشارا لملك الثمبو كما أرادنى الوصى علىَّ.

-٦-

وفى عام ١٩٣٧ وعندما كنت فى الثامنة عشرة لحقت بچاستيس فى هيلدتاون، الكلية الإرسالية فى فورت بوفورت التى كانت فى القرن التاسع عشر إحدى نقط الحدود الأمامية البريطانية فيما كان يسمى بحرب الحدود التى إبانها كانت هجمات المستوطنين البيض تنتزع الأراضى من قبائل الإكسهوسا. وعند وصولى إلى هيلدتاون لم تكن هناك من معالم القرن السابق سوى أن بوفورت قد أصبحت مدينة للبيض. كانت هيلدتاون أكبر مدرسة للإفريقيين جنوب خط الاستواء وتحوى أكثر من عشرة آلاف طالب من الجنسين وكان يدرس بها العلوم المسيحية الإنسانية على النمط الإنجليزى.

كان الدكتور آرثر ويلنجتون مدير المدرسة رجلا متين البنية متجهم

الوجه يفخر بنسبه إلى دوق ويلنجتون. وفى بداية الاجتماعات كان يصعد المسرح ويقول بصوت جهير «إنى من سلالة دوق ويلنجتون العظيم رجل الدولة وقائد الجيش الأرستقراطى الذى هزم نابليون وأنقذ الحضارة لأوروبا ولكم أيها الوطنيون».

وعندها كنا نصفق بحماس وكل منا ممتن امتنانا عظيما أن يأخذ حفيد لدوق ويلنجتون على عاتقه تعليم أفارقة مثلنا. كان الرجل المتعلم الإنجليزى هو مثلنا وكان كل ما نتطلع إليه هو أن نكون «إنجليزا سودا» كما كنا نلقب بسخرية. كنا نعتقد أن أفضل الأفكار هى الأفكار الإنجليزية وأن أفضل الحكومات هى الحكومة الإنجليزية وأن أفضل الرجال هم الإنجليز.

وكانت هيلدتاون تجتذب طلبة من جميع نواحى البلاد ومن المحميات مثل باسوتولاند وسوازيلاند وبتشوالاند. كما كان هناك طلبة من جميع القبائل. وكان معلم علم الحيوان.. فرانك لبنتيل يتحدث بلهجة السوثو أيضا وذا شعبية كبيرة بين الطلبة– كان حديث السن جذابا ويختلط دون حرج بالطلبة كما كان من نجوم فريق كرة القدم. ولكن ما أدهشنا هو أنه كان متزوجا من فتاة من الإكسهوسا. وكنا قد تعلمنا أن الزواج خارج القبيلة محرم ولكن تجربة المدرس فرانك، وزوجته بدأت تقوض النزعة القبلية المسجونة داخلى وبدأت أحس بذاتى كإفريقى وليس فقط كثمبو أو إكسهوسا.

وكان المشرف على قسمى بالسكن الداخلى هو المبجل موكيتيمى

والذى كان عليه أن يفصل أحيانا فى المنازعات. ولكنه كان الإفريقى الوحيد الذى يتحدى د. ولنجتون بأدب ويرفض تدخله المباشر فى شئون عمله. وجعلنى ذلك أقتنع بأن د. ولنجتون لم يكن إلها وأن موكيتيمى أكبر من أن يكون مجرد تابع.

وفى الكلية تمتعت بممارسة الرياضة وبما أننى كنت طويلا ونحيفا فقد تدربت على رياضة جرى المسافات الطويلة بجدية ومتعة. كما تدربت على رياضة أخرى لم تكن تناسب بنيتى فى ذلك الوقت وهى الملاكمة.

وفى السنة الثانية أصبحت من طلبة حفظ النظام وتدرجت حتى وصلت إلى المناوبات الليلية وكان أن وجدت نفسى فى إحدى المناوبات فى مأزق أخلاقى. فلم يكن لدينا مرحاض فى أماكن النوم لكن كان هناك واحد خلف المبنى على بعد حولى مائة قدم. وكان يحدث أثناء الليالى الممطرة أن يتبول الطلبة من الشرفة وسط الشجيرات وكان ذلك مخالفة كبيرة وكانت إحدى مهام المشرف الليلى تسجيل أسماء المخالفين.

وفى إحدى ليالى مناوبتى -وكان المطر شديدا فى الخارج- ضبطت عددا من الطلبة يرتكبون ذلك العمل. وقرب الفجر رأيت شخصا يخرج وينظر يمينا ويسارا ثم يقف فى الشرفة ليتبول. فذهبت إليه وعندما استدار عرفت أنه أحد المشرفين. كان ذلك مأزقا. ورأيت أنه من غير العدالة أن أتحاشى الإبلاغ عن مشرف وأبلغ عن خمسة عشر طالبا. وعليه فقد قمت بتمزيق القائمة.

وفى السنة الأخيرة فى هيلدتاون وقعت حادثة كانت بالنسبة لى

كمرور نيزك عبر سماء الليل. فقرب نهاية العام أخبرنا أن شاعر الإكسهوسا العظيم مفهابى سيزور المدرسة. وكان مداحا أو مؤرخا شفاهيا ينظم الأحداث التاريخية المعاصرة فى قصائد. وأعلِن اليوم إجازة للجميع واجتمعنا بما فينا هيئة التدريس من البيض والسود فى قاعة الطعام حيث كان فى نهايتها مسرح فى آخره باب يفضى إلى منزل د. ولنجتون ولم يكن يستعمله إنسان غيره. وفجأة فتح الباب وكان من ظهر من خلاله ليس د. ولنجتون ولكن رجلا أسود يرتدى جلد فهد وقبعة مماثلة ويحمل حربة فى كل من يديه. ثم تبعه د. ولنجتون. من الصعب وصف أثر ذلك علينا فكأننا والكون انقلب رأسا على عقب. وبينما جلس مفهابى على المسرح إلى جانب د. ولنجتون كان من الصعب احتواء انفعالنا. ونهض مفهابى وبدأ كلامه الذى لم أجده مؤثرا فى البداية. وعند نقطة معينة رفع حربته فى الهواء لتأكيد ما يقول فضربت الحربة سلك الستار بالخطأ مما أحدث جلبة حادة وسبب تحريك الستار. وهنا نظر الشاعر إلى حربته وإلى السلك وفى تفكير عميق أخذ يغدو ويروح على المسرح ثم توقف وواجهنا صائحا إن تلك الحادثة -الحربة وهى تقرع السلك- تمثل تصارع الحضارة الإفريقية والأوربية. وارتفعت عقيرته قائلا إن الحربة تمثل ما هو مجيد وحقيقى فى التاريخ الإفريقى وأنها ترمز للمحارب والفنان الإفريقى بينما السلك الأبيض يمثل الصنعة الأوروبية، مهارة باردة وحذق بدون روح وأن ما حدث ليست ملامسة قطعة من العظام لقطعة من المعدن ولا تداخل حضارتين بل

اصطدام ما هو أصلي وخير وما هو دخيل وشرير وتنبأ بيوم تُحقق فيه القوى الإفريقية انتصارا على الدخلاء.

وكنت لا أكاد أصدق تلك الجرأة في الحديث في حضور د. ولنجتون وآخرين بيض. وفي الوقت نفسه استثار الشاعر حماسنا وبدأ في تغيير مفاهيمي عن أشخاص مثل د. ولنجتون الذي كنت قد اعتبرته تلقائيا صاحب فضل عليّ.

ثم بدأ مفهابي في إلقاء قصيدته المشهورة التي يُقسِّم فيها نجوم السماء بين شعوب الأرض. ثم فجأة توقف عن الحركة وخفض صوته وقال:

«والآن إليكم يا شعب الإكسهوسا» ثم أخذ ينخفض بجسده حتى ارتكز على ركبتيه وأضاف «إني أمنحكم نجم الصباح لأنكم قوم ذوو كبرياء وقوة. إنه النجم الذي تُحْسَب به السنون. نجم الرجولة». وحينما نطق الكلمات الأخيرة أحنى رأسه على صدره ونهضنا نحن مصفقين مهللين. وشعرت بفخر عميق ليس كإفريقي بل كإكسهوسا ينتمي إلى شعب مختار.

هزني أداء مفهابي لكنه أيضا أربكني فقد مضى من موضوع قومي شامل يمس الوحدة الإفريقية إلى آخر ضيق يخاطب به شعب الإكسهوسا. وكنت قد بدأت أرى أن لدى الأفارقة من جميع القبائل ما يشتركون فيه لكن ها هو مفهابي العظيم وقد وقف يثني على الإكسهوسا فوق الجميع. كنت أيضا أرى أن الإفريقي يمكن أن

يتصدى للرجل الأبيض ولكننى كنت أرى مصلحتى مع البيض وكان ذلك يتطلب خضوعا فى أحيان كثيرة. وحينما غادرت هيلدتاون فى نهاية العام كنت أفكر فى نفسى كإكسهوسا أولا وكإفريقى ثانيا.

-٧-

وفى عام ١٩٦٠ كانت كلية فورت هير الجامعية الواقعة فى إقليم أليس المكان الوحيد للدراسة الجامعية المنتظمة للسود فى جنوب إفريقيا وكانت أيضا المنارة للدارسين الإفريقيين من جميع أنحاء جنوب ووسط وشرق إفريقيا. وقد كان الحاكم يريدنى أن ألتحق بفورت هير وشعرت بالامتنان حينما قُبِلتُ هناك وكنت حينها فى الحادية والعشرين من عمرى.

وكانت فورت هير قد أسستها الإرسالية الإسكتلندية فى مكان ما قد كان أكبر القلاع فى الجزء الشرقى من الكيب وكانت الجامعة تضم مائة وخمسين طالبا فقط وكانت هناك مجموعة ممن كانوا فى كلاركبرى وهيلدتاون. ورغم أن تلك المعاهد التى درست فيها تُنْتَقد كثيرا لكونها استعمارية فى اتجاهاتها وممارساتها لكن بالرغم من ذلك فإننى أعتقد أن فائدتها كانت تفوق ضررها. فقد بنى الإرساليون تلك المعاهد وأداروها حين كانت الحكومة لا تريد ذلك. وكانت البيئة التعليمية رغم جمودها الأخلاقى أكثر تفتحا من المبادئ العنصرية التى كانت تؤسس عليها المدارس الحكومية. وكانت فورت هير معمل تفريخ بعض أفضل المثقفين الذين عرفتهم إفريقيا. وأذكر أننى كنت

مسافرا يوما من فورت هير إلى أومتاتا بالقطار في المقصورة المخصصة للأفارقة وجاء الكمسارى الأبيض لفحص التذاكر وحينما رأى أننى قد ركبت من أليس سألنى إن كنت من جامعة جاباڤو فأومأت بالإيجاب. وكان جاباڤو أستاذا إفريقيا فى فورت هير تخرج في جامعة لندن وكان واسع الاطلاع فى تخصصات عدة وخصوصا فى الأنثربولوجي والتاريخ وأنساب الإكسهوسا وكان متحدثا مقنعا ورأس مؤتمر «كل الإفريقيين» عام ١٩٣٦.

وكان تعليمى فى فورت هير داخل وخارج قاعات الدراسة. فقد اشتركت فى النشاطات الرياضية وخاصة كرة القدم وجرى المسافات الطويلة. وعلمنى الجرى درسا هاما أى أنه من الممكن للفرد أن يعوض عن الاستعداد الفطرى بالاجتهاد والتنظيم وقد طبقت هذا فى كل شئ تعلمته. كما أننى التحقت بجمعية المسرح واشتركت فى تمثيل مسرحية وأيضا تعلمت مع الطلبة فن الرقص الغربى.

وكانت الحياة الاجتماعية والعقلية فى فورت هير تتسم بمستوى من الرفعة غريبا وجديدا علىَّ. وهناك ولأول مرة ارتديت البيجاما واستعملت فرشة الأسنان والمعجون بدلا من استعمال الرماد والخلال كما كنا نفعل في قريتنا. وكانت المراحيض ذات الصرف الصحى و الحمامات ذات الأدشاش الساخنة أشياء جديدة بالنسبة لى.

ورغم أن فورت هير كانت منعزلة عن العالم فقد كنا مهتمين بشدة بتطورات الحرب العالمية الثانية. وكنت أؤيد بريطانيا بحرارة. وكان

حماسي شديدا حينما علمت أن المتحدث الأول فى حفل التخرج فى الجامعة عند نهاية سنتي الأولى هو المؤيد الأول لإنجلترا فى جنوب إفريقيا وهو رئيس الوزراء السابق جون سماتس السياسى ذو الشهرة العالمية وكان وقتها نائباً لرئيس الوزراء يقوم بحملة لكى تعلن جنوب إفريقيا الحرب على ألمانيا. بينما كان رئيس الوزراء هيرتزوج قد أعلن الحياد. وفى الحفل تكلم سماتس عن أهمية مساندة بريطانيا العظمى ضد الألمان وعن تمثيل بريطانيا للقيم الغربية التى تعتنقها جنوب إفريقيا. وقد صفقت له وزملائى بحرارة لدعوته لخوض معركة لتحرير أوروبا ناسين أننا لم نكن نملك الحرية فى أرضنا.

وكنا فى المساء نتجمع حول المذياع لسماع خطب تشرشل المثيرة. ورغم تأييدنا لموقف سماتس فقد أثارت زيارته كثيرا من المناقشات واتهمه نياثى خونجيسا فى إحدى المناقشات بالعنصرية قائلا إننا ربما نعتبر أنفسنا إنجليزاً سودا ولكن الإنجليز اضطهدونا ثم أضاف أنه مهما كان العداء بين البوير والإنجليز فإن المجموعتين بيض وسيتحدان لمواجهة الخطر الأسود. وقد صدمتنا آراء خونجيسا تلك واعتبرناها راديكالية خطيرة وهنا همس زميل لى بأن خونجيسا عضو فى المؤتمر الوطنى الإفريقى وهى منظمة كنت قد سمعت عنها بطريقة مبهمة.

وفى أثناء السنة الثانية فى فورت هير دعوت صديقى بول ماهابانى لقضاء إجازة الشتاء معى فى ترانسكى وكان بول معروفا فى فورت هير لأن أباه كان الرئيس العام للمؤتمر العام للمؤتمر الوطنى

الإفريقى مرتين. وكانت صلته بتلك المنظمة قد جعلته يعرف بأنه ثائر.

وذات مرة خلال العطلة ذهبت معه إلى أومتاتا عاصمة ترانسكى وبينما كنا ننتظر خارج مبنى البريد طلب قاضى المدينة الأبيض وكان رجلا فى الستينات من بول أن يشترى له بعض الطوابع. فقد كان عاديا أن يطلب أى فرد أبيض من أى أسود القيام بأية مهمة وحاول القاضى أن يعطى بول النقود ولكنه رفض وشعر القاضى بالإهانة وسأله إن كان يعرف من هو فرد بول قائلا إنه يعرف من هو فسأله القاضى عما يعنى فقال له إنه يعنى أنه وغد. وكان غضب القاضى شديدا وانصرف وهو يتوعده.

شعرت بعدم الارتياح لتصرف بول.. فرغم احترامى لشجاعته فقد وجدتها مربكة ولو كان القاضى قد توجه بطلبه إلىَّ لكنت قد قمت به على الفور. ولكننى أيضا بدأت أفهم أنه ليس على الأسود أن يتقبل كل الإهانات التى توجه إليه.

وعدت بعد الإجازة وكلى شعور بالقوة وركزت على دراستى متخيلا أننى سأحصل على درجة الليسانس خلال سنة واعتقدت أن الدرجة الجامعية هى جواز المرور إلى المراكز القيادية فى المجتمع وإلى النجاح المادى وأننى سيمكننى أن أرد لوالدتى الثروة والمكانة التى فقدتهما بموت والدى.

وفى أثناء السنة تم ترشيحى فى انتخابات مجلس الطلبة. وكانت الانتخابات تجرى فى الفصل الدراسى الأخير من السنة. وطبقا

لدستور فورت هير فإن جميع الطلبة كانوا يقومون بانتخاب الأعضاء الستة. وقبل الانتخابات بقليل عقد اجتماع لجميع الطلبة لمناقشة المشاكل والحديث عن المظالم وأجمع الطلبة على سوء الوجبات الغذائية وطلبوا زيادة سلطات مجلس الطلبة ووافقت على الاقتراحين وحينما قرر الطلبة مقاطعة الانتخابات إلا إذا وافقت السلطات على مطالبهم صوتُّ معهم.

وبعد الاجتماع بقليل بدأ التصويت الرسمى للانتخابات وقاطعها معظم الطلبة عدا خمسة وعشرين طالباً انتخبوا الستة المرشحين الذين قرروا تقديم استقالاتهم.

ولكن المدير د. كير كان حاذقا فقد قبل استقالاتنا وأعلن أن انتخابات جديدة ستجرى فى اليوم التالى فى قاعة الطعام وقت العشاء فقد كان ذلك يكفل تواجد جميع الطلبة. ولكنه حينما أجريت الانتخابات لم يصوت سوى خمسة وعشرين طالباً منتخبين نفس الأعضاء الستة. وتمسك زملائى الخمسة بحرفية الرأى الذى يقول إنه قد تم انتخابنا فى حضور جميع الطلبة وعليه فإننا نمثلهم جميعا ولكننى عارضتهم قائلاً إنه من الناحية الأخلاقية فإن القول بأننا نمثلهم باطل واستقلت للمرة الثانية.

وفى اليوم التالى استدعيت إلى مكتب المدير الذى كان أيضا المؤسس الفعلى للجامعة وكان يتمتع باحترام كبير. وناقشنى د. كير فى الموضوع وأصررت على موقفى ونصحنى بأن أفكر وأعطيه ردى

الأخير فى اليوم التالى. وقال إننى إذا أصررت على استقالتى فسيجد نفسه مجبرا على فصلى من الجامعة.

قضيت الليلة مسهدا فلم يحدث أننى كنت قد اتخذت قرارا مصيريا من قبل. وكنت مترددا بين أن أضحى بحياتى العملية من أجل مبدأ مجرد وبين أن أضحى بالتزامى لزملائى من أجل اهتمامات أنانية.

وحينما سألنى فى اليوم التالى أجبته بأننى لا أستطيع أن أقبل العضوية بضمير مستريح وهنا بدا عليه الاندهاش. وبعد تفكير قرر أن يمنحنى فرصة إجازة الصيف للتفكير. وبينما قدرت موقفه ورغبته فى أن يمنحنى فرصة أخرى ساءنى تحكمه المطلق فى قدرى فقد رأيت أن من حقى أن أستقيل وألهبنى الشعور بالظلم وبدأت أرى د. كير ليس كرجل ذى فضل ولكن كشخص مستبد تعوزه الطيبة.

-٨-

وحينما عدت إلى مفهيقزوينى بعد نجاحى أبلغت الحاكم بما حدث الأمر الذى سبب شديد غضبه ورأى موقفى ضرباً من الجنون وأمرنى بأن أطيع أوامر العميد وأن أعود إلى فورت هير. وكان چاستيس الذى كان يعيش فى كيب تاون بعد أن انتهى من دراسته قد عاد فى إجازة.

وذات يوم استدعانا الحاكم وقال لنا إنه رأى أن يزوجنا وإنه قد اختار فتاتين من أسرتين طيبتين وأنه قد تم دفع ثمن العروسين. وتركت أنا وچاستيس الاجتماع مشدوهين مكتئبين. وفى ذلك الوقت كان حسى الاجتماعى أكثر نموا من حسى السياسى فبينما لم أكن مستعدا أن

أحارب النظام السياسى للرجل الأبيض كنت على استعداد للثورة ضد النظام الاجتماعي لقومي ورفضت أن يختار أحد لي عروسا ولو كان الحاكم نفسه.

ورفض الحاكم تغيير رأيه ووجدت أن لا خيار لى إذ إننى كنت لا أستطيع البقاء فى حمى الحاكم إن رفضت رأيه. اتفقت وچاستيس على الهرب إلى جوهانسبرج. وكان الحاكم يستعد للسفر ليحضر دورة المجلس التشريعى فى ترانسكى وقررنا الهرب بعد سفره. ولم يكن معنا نقود فذهبنا إلى مشتر وعرضنا عليه شراء اثنين من أفضل ثيران الحاكم واعتقد الرجل أننا نفعل ذلك بناء على طلبه فأعطانا ثمنا طيبا استأجرنا ببعضه سيارة لتوصلنا إلى محطة القطار الإقليمية لكن الحاكم كان قد استبقنا وأخبر المدير بأن يرفض أن يبيعنا تذاكر وكانت تلك هى الإجابة التى تلقيناها فى المحطة فأسرعنا إلى السيارة وطلبنا من السائق توصيلنا للمحطة التالية وتمكنا أن نستقل القطار لكن فقط إلى كوينز تاون. ففى الأربعينات كان السفر معقدا للأفارقة فقد كان عليهم أن يحملوا تصاريح مرور يبرزونها عند الطلب وكان تجاهل التصريح يعنى المحاكمة والسجن أو الغرامة وكان التصريح ينص على محل السكن واسم رئيس القبيلة بالإضافة إلى جميع التفاصيل عن حامله ويوقعه صاحب العمل.

ورغم أنه كان لدىَّ وچاستيس تصاريح صحيحة إلا أننا كأفارقة كان علينا أن نحصل على وثيقة سفر وخطاب من صاحب العمل أو الوصى علينا لكى نغادر الإقليم وفشلت محاولاتنا مع المسئولين نظرا لتدخل

الحاكم المفاجئ. وتذكر چاستيس أن له صديقا يعمل فى مكتب محام وذهبنا إليه وعرضنا عليه الأمر فأخبرنا بأن والدة المحامى ستذهب بالسيارة إلى جوهانسبرج. ودفعنا لها مبلغ ثلاثين جنيها لتوصيلنا وقضى هذا المبلغ على معظم ما معنا من نقود.■

2

الجزء الثانى

جوهانسبرج

-٩-

كان الوقت فجرا حينما وصلنا إلى مكتب مناجم التاج التى كانت تقع على هضبة وسط التلال المطلة على المدينة. وكانت جوهانسبرج قد أُسست حول المناجم عند اكتشاف الذهب عام ١٨٨٦.

ذهبنا فورا إلى رئيس العمال واسمه بيليسو وكان قد سمع عن چاستيس حينما أرسل الحاكم خطابا منذ أشهر لكى يحصل چاستيس على وظيفة كاتب وقدمنى چاستيس على أننى أخوه وعينت حارسا فى المنجم. وكان لكلمة الحاكم وغيره من رؤساء القبائل ثقلها فى المنجم لما يتمتعون به من سلطة على الرجال فى الريف والذين يحتاج إليهم المختصون كعمال. وكانت سلطة المناجم تريد من الرؤساء ترغيب الأشخاص المحليين فى العمل بالمناجم ولذا فكان الرؤساء يعاملون معاملة خاصة وتُخَصص لهم منازل فى أرض المناجم حين حضورهم للزيارة. وهكذا عوملت وچاستيس معاملة خاصة ومنحنا وجبات غذائية وأماكن للنوم وراتباً صغيراً. وكانت السلطات تفصل العمال تبعا للقبائل التى ينتمون إليها ضمانا لعدم تضامنهم وكان ذلك الفصل كثيرا ما يتسبب فى نزاعات بين الجماعات القبلية المختلفة.

وبدأت عملى فوراً كحارس ليلى –وكان عملى بسيطا فقد كنت أنتظر عند مدخل المجمع إلى جانب اللافتة التى تقول «احترس– هنا معبر الأفارقة» وأقوم بفحص مستندات الأفراد الذين يعبرون.

تحت تأثير النجاح تباهيت وچاستيس يوما أمام صديق من إقليمنا كان يعمل بالمناجم بتحايلنا على السلطات. ووشى بنا الصديق عند رئيس العمال الذى استدعانا وقال إنه أبرق إلى الحاكم وأن الحاكم أمر بإرسالنا فورا إلى بلدتنا وكان رئيس العمال غاضبا واتهمنا بالغش والتزوير.

وبعد ذلك قمنا بالاتصال ومقابلة بعض من لهم سلطات وأخبرناهم بمعلومات ملفقة ولكن أُكتُشف أمرنا فى آخر لحظة ولم تفلح محاولاتنا للعمل بالمناجم.

وانتهى بى المقام إلى الإقامة مع أحد أبناء عمومتى ويدعى جارليك وكان يعمل بائعاً جائلاً وأخبرته برغبتى فى العمل بمكتب محاماة. فقال إنه سيبحث الأمر وبعد أسابيع أخبرنى أنه سيصطحبنى لمقابلة أحد أفضل الناس فى جوهانسبرج.

وكانت جوهانسبرج فى تلك الأيام خليطا من المدن الحدودية والمدينة الحديثة. فقد كان الجزارون يقومون بتقطيع اللحوم فى الطريق بجانب المبانى المكتبية. وكانت الخيام تقام إلى جانب المحلات الحديثة والنساء ينشرن غسيلهن إلى جانب المبانى الشامخة. وكان هناك -نظرا لظروف الحرب العالمية- طلب شديد على العمالة ولذا اجتذبت جوهانسبرج الأفارقة من الأقاليم الأخرى وكانوا يجدون عملا فى المصانع وسكنا فى المناطق غير الأوروبية مثل ألكسندرا وصوفيا تاون ومنطقة الوطنيين القريبة وكانت عبارة عن مجمع كالسجون يحوى عدة آلاف من المنازل من طراز صندوق الثقاب مقامة على أرض جرداء.

وذهبت أنا وجارليك وجلسنا فى غرفة انتظار رجل يعمل وكيل عقارات بينما أخبرته موظفة الاستقبال بوجودنا وبعدها أخذت تكتب على الآلة الكاتبة برشاقة وملأنى الإعجاب لأننى لم أكن قد رأيت إفريقيا يستعمل الآلة الكاتبة.

وعند دخولى مكتب رئيسها رأيته شابا إفريقيا تنم ملامحه عن الذكاء والطيبة ويتحدث الإنجليزية بلكنة المدينة ويبدو عليه الانشغال والنجاح وكان اسمه وولتر سيسولو. كان يدير مكتبا عقاريا متخصصا فى ممتلكات الأفارقة. ففى الأربعينيات كان من الممكن للأفارقة حيازة ممتلكات محدودة فى أماكن معينة مثل صوفيا تاون وألكسندرا وكانت ترجع حيازة بعضهم إلى أجيال عديدة. أما فى باقى المناطق الإفريقية من جوهانسبرج فكانوا يستأجرون المنازل من مجلس المدينة.

كان سيسولا قد بدأ يبرز كرجل أعمال وقائد محلي وعندما أخبرته برغبتي في العمل بالقانون وعن عزمي على التسجيل في الجامعة للحصول على درجة في القانون أخبرني عن محام أبيض يدعى لازار سيدلسكي وقال إنه شخص تقدمي يهتم بتعليم الأفارقة وأنه سيبحث حالتي معه. كنت أعتقد في فورت هير أن القيادة والنجاح في العمل والطلاقة في الإنجليزية تتطلب مؤهلا جامعيا . ولكنني اكتشفت أن وولتر سيسولا لايحمل أي مؤهلات وكان ذلك درسا لي.

كنت وقتها أقيم مع عائلة من الإكسهوسا في غرفة ذات سقف من الصاج بناها صاحب المنزل خلف سكنه ليدر دخلا إضافيا في منطقة ألكسندرا .

ووافق لازار سيدلسكي على أن أعمل بمكتبه إلى أن أكمل درجتي الجامعية. وكان مكتبه أحد أكبر مكاتب المحاماة في جوهانسبرج ويتعامل مع السود والبيض.ولكي يصبح الفرد محاميا في جنوب إفريقيا فإن عليه إلى جانب الدراسة أن يتدرب عدة سنوات مع محام ممارس. وبدأت دراسة ليلية في جامعة جنوب إفريقيا التي كانت تمنح درجات علمية بالمراسلة.

وكان ضمن ممارسات المكتب مساعدة الأفارقة الراغبين في الحصول على قرض لسداد قيمة صكوك الرهونات. ورغم أن المكتب كان يتقاضى الجزء الأكبر من القرض فلم يكن لدى الأفارقة بديل. ورغم ذلك فقد كان المكتب –وكان صاحبه يهوديا– من أكثر المكاتب ليبرالية

وكان يقبل أن يعمل فيه أفارقة. وكان صاحبه عطوفا وكان يقول لى دائما إننى لو أصبحت محاميا ناجحا فسوف أصبح نموذجا لمواطنىّ.

ورغم ذلك كانت هناك تفرقة عنصرية فى المكتب مثل إصرار السكرتيرة البيضاء وبطريقة معسولة أن نشرب أنا وزميلى الإفريقى جور الشاى من فناجين خاصة بنا. وكان جور يتحداها ولا يفعل. أما أنا فقد امتنعت عن شرب الشاى فى المكتب. وأيضا، وبينما كنت أُملى بعض المعلومات على سكرتيرة بيضاء دخل عميل تعرفه ولكى تبرهن على أن شخصا إفريقيا لم يكن يُمليها معلومات أخرجت عملة من حقيبتها وطلبت منى الذهاب لشراء شامبو لها. وفعلت.

كان عملى فى البداية بسيطا لكن السيد سيدلسكى كان لا يألو جهدا فى شرح تفاصيل أية حالة وأسبابها وتفاصيل القانون وخلفيته الفلسفية. وكان يؤمن بأن القانون آلة يمكن استغلالها لتغيير المجتمع ورغم ذلك فقد حذرنى من ممارسة السياسة ومن مخالطة المشاغبين الغوغائيين من أمثال جور راديبى وولتر سيسولو.

وكان جور مشاغبا بشكل لم يشك فيه سيدلسكى. فقد كان عضوا فى المجلس الاستشارى للمنطقة الوطنية الغربية وكانت مهمته معالجة مشاكل الوطنيين مع السلطات وكان أيضا عضوا فى المؤتمر الإفريقى والحزب الشيوعى.

وكان جور مثالا للرجل غير الحاصل على شهادة عليا والذى كان أكثر علما وثقافة بمراحل من كثير ممن تخرجوا فى فورت هير وكان أيضا

جريئا واثقاً.

لم أكن الكاتب الوحيد بالمكتب فقد التحق بالعمل بعدى بقليل نات بوجمان وكان مفكرا نابها لطيفا ولم يكن لديه تمييز للون البشرة وأصبح أول صديق أبيض لى.

وفى أحد الأيام كنا فى المكتب وقت الغداء وأخرج نات لفافة من السندوتشات وأمسك أحدها وطلب منى أن أمسك بالطرف الآخر للسندوتش ففعلت وطلب منى أن أقوم بجذب الطرف الذى أمسكه فانشطر الساندوتش قسمين وطلب منى أن آكل. ثم قال إن ما فعلناه يمثل فلسفة الحزب الشيوعي وهو اقتسام كل ما نملك وأخبرنى أنه عضو فى الحزب وشرح لى أوليات مبادئه وشرح لى فى مناسبات أخرى عدة فضائل للشيوعية محاولا إقناعى بالالتحاق بالحزب وكنت أوجه الأسئلة. ولكننى لم أكن أرغب فى الالتحاق بأية منظمة سياسية عملا بنصيحة سيدلسكى.

وكنت أذهب مع نات إلى أماكن عديدة من ضمنها حضور محاضرات فى مقر الحزب وكنت أفعل ذلك من باب الاستطلاع العقلى فقد كنت بدأت أهتم بتاريخ الاضطهاد العنصرى الذى كنت أراه على أنه عرقى فقط بينما يراه الحزب على أنه صراع طبقات ولكننى اعتقدت أن ذلك لا ينطبق على الحال فى جنوب إفريقيا ولكننى كنت أستمع فقط.

وقد قام نات بدعوتى لحفلات عدة يؤمها بيض وأفارقة وهنود وملونون كان ينظمها الحزب ووجدت هناك أناسا لا يعبأون بلون الإنسان غير

أننى كنت أشعر بأننى غير مؤهل للاشتراك فى أحاديثهم المشتعلة فقد كانت أفكارى لا تضارع أفكارهم الناضجة المصقولة.

-١٠-

كانت الحياة فى منطقة ألكسندرا مثيرة محفوفة بالمخاطر. ورغم وجود بعض الأبنية الجميلة كان الحى من مناطق الفقراء القذرة ودليلا على إهمال السلطات. كانت الطرق قذرة غير معبدة مليئة بالأطفال الجوعى أشباه العرايا يجوبون المكان وكان الجو مفعما بدخان مواقد الفحم وكان هناك صنبور مياه واحد يخدم عديدا من المنازل. كانت المنطقة تعرف بالمدينة المظلمة حيث لم تكن فيها كهرباء. وكان المشى ليلا فى طريق العودة إلى المنزل خطرا حيث كانت تخترق الظلام صيحات وضحكات وأحيانا أصوات طلقات نارية. كان الازدحام شديدا حيث كان يحتل كل قدم مربع فى المنطقة إما مبنى متهالك أو كوخ ذو سقف من الصفيح. وكانت البندقية والمدية تسيطر على حياة الناس هناك. أما هجمات الشرطة فكانت مظهرا منتظما للحياة هناك حيث كان يلقى القبض على جماعات من الناس لخرقهم نظام تصاريح المرور أو حيازتهم كحولا أو لعدم دفعهم ضريبة الرءوس. ولكن رغم ذلك كانت المنطقة جنة للأفارقة حيث كانت أحد الأماكن القليلة فى البلد التى كان للأفارقة فيها حق تملك العقارات وإدارة شئونهم دون اللجوء لطغيان المجالس البلدية البيضاء وكانت المنطقة لهذا تمثل أرض الميعاد للأفارقة وخاصة القادمين من الريف. وكانت السلطة تدّعى أن الأفارقة بطبيعتهم غير مؤهلين لسكنى المدن وذلك لتمد وجودهم فى الأقاليم

وفى مناطق المناجم. وكانت الحياة فى ألكسندرا تدحض مثل ذلك الادعاء حيث قطنه أفراد من جميع القبائل وكانوا على وعى سياسى. ويبدو أن الحياة فى المنطقة كانت تعمل على إزالة الفوارق الإثنية القبلية فبدلا من كوننا زولو أو إكسهوسا أو سوثو أو شانجان كنا جميعا ننتمى إلى ألكسندرا. أما الحكومة فكانت تتبع فى تعاملها مع الأفارقة سياسة فرق تسد.

وفى عامى الأول هناك خبرت الفقر كما لم أخبره طوال إقامتى فى قونو. فقد كنت أتقاضى جنيهين فى الأسبوع على أن أدفع منها ثلاثة عشر شلنا أجرة سكنى وكانت حافلة نقل الوطنيين وهى أرخص وسائل المواصلات تكلفنى جنيها وعشر بنسات فى الشهر كما كنت أدفع مصاريف جامعة جنوب إفريقيا وأنفق حوالى جنيه على الطعام علاوة على ثمن الشموع للاستذكار. وكنت فى أيام كثيرة أضطر إلى السير ستة أميال فى الذهاب للعمل والعودة وكانت تمر أيام لا أتناول فيها ما يقيم أودى ولا أغير ملابسى. وكان سيدلسكى قد أعطانى إحدى حلله القديمة التى ظللت أرتديها خمس سنوات حتى أصبح فيها من الرقع أكثر ما بها من قماشها الأصلى.

وبالتدريج بدأت التعود على الحياة فى المنطقة وبدأ ينمو داخلى شعور بالقوة الذاتية وعقيدة أننى أستطيع النجاح خارج المحيط الذى نشأت فيه وببطء اكتشفت أن علىّ ألا أعتمد على صلاتى الملكية أو دعم أسرتى لكى أتقدم فى الحياة.

وفى نهاية عام ١٩٤١ تلقيت رسالة عن زيارة الحاكم لجوهانسبرج وعن رغبته في أن يراني. وعند مقابلته وجدته قد طرأ عليه كثير من التغيير. ولم يذكر شيئًا لي عن هربى من فورت هير أو الزواج. وكان دمثًا لطيفا سألنى بأبوة عن دراستى وخططى للمستقبل وعرف أن حياتى ستأخذ مجرى غير الذى كان قد رسمه لها ولم يحاول إثنائى.

وكان لمقابلته أثر مزدوج فقد شعرت بالانتماء مرة أخرى وبتقديرى لأسرة ثمبو الملكية. وكان الحاكم مليئا بالأسى بخصوص چاستيس وكان يرى أنه يجب أن يعود إلى مفهيقزويني وكان چاستيس لا ينوى العودة وساندت چاستيس حينما استدعاه المفوض الوطنى بعد أن كلف والده أحد معاونيه باتخاذ الإجراءات القانونية ضده، وهنا قال معاون الحاكم إن الحاكم قد تبنانى وعلمنى وعاملنى كابنه وأنا الآن أريد إبعاد ابنه عنه. فشعرت بالخجل وقلت لچاستيس إنه يجب أن يعود لكنه رفض.

وفى عام ١٩٤٢ ومن أجل توفير أجرة المواصلات قررت السكنى بالقرب من قلب المدينة فى مجمع عمال المناجم وساعدنى فى ذلك السيد فستايل الذى كان يعمل فى غرفة المناجم حيث كان السكان من أصول إثنية مختلفة ويتكلمون لغات متفرقة وتشتعل بينهم العداوات.

وبعد أقل من ستة أشهر من زيارة الحاكم علمت وچاستيس بوفاة والده فى شتاء عام ١٩٤٢ فأسرع كلانا إلى ترانسكى ووصلنا بعد الجنازة بيوم.

وفى نهاية عام ١٩٤٢ حصلت على درجة الليسانس.. ورغم شعورى بالفخر لهذا الإنجاز فقد كنت أعلم أن الدرجة العلمية ليست جوازا للنجاح.

أما فى المكتب فقد توثقت علاقتى بجور مما ضايق سيدلسكى. وكان جور يقول إن التعليم أساسى لتقدم شعبنا لكن لم يقم شعب أو أمة بتحرير أنفسهم بواسطة التعليم فقط وكان يؤمن بالإتيان بالحلول وليس بإيجاد النظريات. كما كان يقول إن آلة التغيير بالنسبة للأفارقة هى المؤتمر الوطنى الإفريقى الذى كان قد أسس عام ١٩١٢ وينكر دستور العنصرية وله رؤساء ينتمون إلى مختلف القبائل كما أن هدفه هو حقا المواطنة الكاملة للأفارقة فى البلاد.

ورغم أن جور لم يتلق تعليما منهجيا فقد كان يفوقنا جميعا معرفة. وفى أثناء فترة الغداء كان يلقى علىّ محاضرات مرتجلة وكان يعيرنى كتبا ويزكى لى أشخاصا أتحدث إليهم واجتماعات أحضرها. ومما ترك أثرا عميقا فى نفسى هو التزام جور الكامل بمعركة الحرية وكان يحضر أحيانا عدة اجتماعات فى اليوم الواحد يبرز فيها كمتحدث مرموق. وكنت أحضر مع جور الاجتماعات كمراقب فقد كنت أرغب فى فهم المواضيع التى تناقش. وكانت اجتماعات المؤتمر مليئة بحيوية الحوار والنقاش عن البرلمان وقانون التصاريح والإيجارات والمواصلات وأى موضوع يؤثر فى حياة الأفارقة.

وفى أغسطس عام ١٩٤٣ اشتركت مع جور فى مسيرة كبيرة لمؤازرة

مقاطعة منطقة ألكسندرا لخدمة الحافلات احتجاجا على رفع الأجرة. وكان لتلك الحملة أكبر الأثر عليّ. وإلى حد ما بدأت أترك دور المراقب. وكانت نتيجة المقاطعة مؤثرة فقد عدلت الشركة عن رفع الأسعار.

وكان سيدلسكى دائم التحذير لي من جور وسيسولو قائلا إنه إن أردت أن أصبح محاميا ناجحا عليّ ألا أقرب السياسة وإلا فسأقع فى مشاكل مع السلطات وأفقد عملائى وأهدم أسرتى وينتهى الأمر بى فى السجن. وكنت قد بدأت بالفعل أميل للتورط السياسى لكننى التزمت التؤدة غير متأكد مما يجب عمله.

وكان جور أيضا سبب تقدمى الوظيفى فقد قال لى يوما إنه طالما يعمل هو فى المكتب فلن يلتزم أصحاب العمل بعقد معى رغم حصولى على المؤهل الجامعى لأنه هو يقوم بما يلزم ويجلب العملاء للمكتب. ولهذا قرر ترك المكتب قائلا إنه سيفتح مكتباً عقارياً وأضاف إنه من المهم لحركة الكفاح أن أصبح أنا محاميا ولن يتأتى ذلك سوى بتركه العمل. ونفذ ذلك وحدث ما توقع.

وبدأت أتحرك فى جوهانسبرج فى دوائر كانت فيها الحكمة والتجربة أهم من الدرجة الجامعية. ففي الجامعة كان الأساتذة يتحاشون ذكر قضايا مثل الاضطهاد العنصرى ومجموعة القوانين المتشابكة التى تُخضع الرجل الأسود. ولكن حياتى فى جوهانسبرج جعلتنى أواجه تلك الأشياء يوميا.

وفى عام ١٩٤٣ سجلت اسمى فى جامعة ويتسواتر سراند للحصول

على درجة الليسانس فى القانون وهو نوع من الإعداد الأكاديمى للمحامى تحت التمرين. وتقع الجامعة فى الجزء الشمالى الأوسط من جوهانسبرج وتعرف بويتس ويعتبرها كثيرون على رأس الجامعات المتحدثة بالإنجليزية فى جنوب إفريقيا وكانت تلك الجامعات معملا عظيماً لإفراز القيم الليبرالية. ومن ضمن فضائلها أنها كانت تقبل الطلبة السود على عكس الجامعات الأفريكانية. ورغم أننى هناك اكتشفت مجموعة من البيض المتعاطفين مع القضية والذين أصبحوا أصدقاء وزملاء فيما بعد فإن أغلبية البيض فى الجامعة كانوا عنصريين. وأذكر أننى وصلت متأخرا إلى إحدى المحاضرات فجلست إلى جانب طالب أصبح فيما بعد عضوا فى البرلمان فجمع أشياءه بطريقة ملفتة للنظر وجلس بعيدا. لم يكن هذا التصرف غريبا بل كان هو القاعدة ورغم أن أحدا لم يوجه لى لفظ «كافير» وكانت عداوتهم صامتة لكننى كنت أحسها من الطلبة والأساتذة.

وفى الجامعة التقيت بأفراد عديدين ممن سيشاركوننى نجاحات وفشل معركة التحرير وقد بذل عدد من الطلبة البيض جهدا لإشعارى بأننى مرغوب فىّ. والتقيت جو سلوفو وزوجته المقبلة روث فيرتس. وكان جو كما هو الآن ذا عقلية جادة ذكيا. وكان شيوعيا متحمسا وكانت روث شخصية متفتحة وكاتبة موهوبة وكلاهما كان من اليهود المهاجرين. وهناك أيضا بدأت صداقة عمرى بجورج بيزوس وبرام فيشر وكان جورج من أصل يونانى أما برام فكان محاضرا خارجيا وابن أسرة مرموقة من الأفريكان وكان والده رئيس وقاضى ولاية أورانج الحرة

ورغم أنه كان باستطاعته أنه يصبح رئيس وزراء جنوب إفريقيا فقد أصبح أحد أشجع وأشد أصدقاء معركة الحرية إخلاصا. كذلك صادقت تونى أودوود وهارولد وولب وچولس برادرى وزوجته سيلما وكانوا جميعا سياسيين راديكاليين من أعضاء الحزب الشيوعى. وكذلك كونت صداقات مع عدد من الطلبة الهنود من بينهم إسماعيل مير، وچيه. إن. سينج وأحمد بهولا ورملال بهوليا. وكان إسماعيل مير مركز تلك المجموعة وشقته الواقعة فى منتصف المدينة مركز التقائنا وأصبحت نوعا من مقر القيادة لشبان حركة التحرر.

وحدث ذات مرة أن كنت أنا وسينج ومير فى عجلة من أمرنا فركبنا الترام رغم أن ذلك كان محظورا على الأفارقة وجاء مفتش التذاكر وقال لهما إن على زميلهما «الكافير» أن يغادر الترام وانفجرا فيه قائلين إنهما لا يفهمان معنى الكلمة وإنه لا يجوز أن يدعونى بذلك اللقب. فأوقف الرجل الترام واستدعى الشرطى الذى اصطحبنا إلى المخفر ووجهت إلينا التهمة وكان علينا أن نظهر فى المحكمة فى اليوم التالى وهنا استدعى مير وسينج برام فيشر للدفاع عنا وأصاب المحققين الذعر من صلات برام العسكرية وأفرج عنا. وهنا رأيت لأول مرة أن العدالة ليست عمياء.

لقد فتحت جامعة ويتس عالما جديدا أمامى، عالما من الفكر والعقائد السياسية والحوار. كنت بين مثقفين بيض وهنود من أبناء جيلى ممن كان مقدراً لهم أن يكونوا طليعة أهم الحركات السياسية فى السنوات القليلة القادمة.■

3

الجزء الثالث

طريق المكافح من أجل الحرية

-١١-

لا أستطيع تحديد اللحظة التى سُيِّسْتُ فيها والتى عرفت فيها أننى سأمضى حياتى فى الكفاح من أجل الحرية. ولأن تكون إفريقيا فى جنوب إفريقيا يعنى أن تُسَيَّسْ منذ الميلاد. فالطفل الإفريقى يولد فى مستشفى للأفارقة فقط ويُحمل للمنزل فى حافلة الأفارقة ويعيش فى مناطق الأفارقة ويلتحق بمدارس الأفارقة، هذا إذا التحق بمدارس أصلا. وحينما يكبر يقوم بالأعمال التى يقوم بها الأفارقة فقط ويركب قطارات الأفارقة ويؤمَر فى أى وقت من الليل والنهار ليبرز تصريحه وإذا لم يفعل يلقى به فى السجن. وتحد حياته القوانين واللوائح العنصرية التى تعوق نموه وتضيع إمكاناته وتشل حياته.

لم أتلق رؤيا أو أمر بلحظة الصدق، ولكنها كانت تراكمات مضطردة لآلاف الإهانات.. وآلاف اللحظات تلك هى التى ولدت فىّ الغضب والتمرد والرغبة فى محاربة النظام ووجدت نفسى ببساطة أكرس نفسى لحركة تحرير شعبى ولم يكن بمقدورى غير ذلك.

تولى وولتر سيسولا توعيتى وتعليمى بحكمة. فقد كان قويا، متزناً،

عمليا ومتفانيا. وكان يعتقد أن المؤتمر الوطنى هو الوسيلة لتحقيق التغيير فى جنوب إفريقيا وكان المؤتمر يرحب بالجميع كما أن المؤتمر كان المنظمة التى ترى نفسها مظلة يلتجئ إليها كل شعب جنوب إفريقيا.

وفى عام ١٩٤١ عُقد ميثاق الأطلنطى الذى كان يتبنى عددا من المبادئ الديمقراطية. ورغم أن البعض فى الغرب كان يرى فيه وعودا فارغة فلم يكن الحال كذلك فى إفريقيا. وبإيحاء من ذلك الميثاق وضع المؤتمر الإفريقى ميثاقه الذى نادى فيه بالمواطنة الكاملة لكل الأفارقة وبإلغاء التشريعات العنصرية. فقد كان أملنا أن ترى الحكومة والفرد العادى أن المبادئ التى نحارب من أجلها هي نفسها التي يحاربون من أجلها في أوربا.

وكان منزل وولتر ملتقى أعضاء المؤتمر. وهناك فى عام ١٩٤٣ التقيت بأنتون ليمبيد الذى كان يحمل عدة شهادات عليا ويفكر بطريقة مبتكرة وكان أحد المحامين الأفارقة الذين يعدون على الأصابع. وكان يقول إن إفريقيا قارة الرجل الأسود وإن على الأفارقة أن يثبتوا ذاتهم ويستردوا مالهم. وكان يكره عقدة النقص السوداء ويهاجم عبادة

الغرب وتقديس أفكاره وكان يقول «إن لون بشرتى جميل كلون تربة إفريقيا الأم».

وكان والد ليمبيد فلاحا أميا من الزولو من إقليم ناتال. أما هو فقد درس فى كلية آدم ليصبح مدرسا وقام بالتدريس عدة سنوات فى ولاية أورانج الحرة وتعلم اللغة الأفريكانية.وقد كتب فى صحيفة أفريكانية قائلا: «إن التاريخ الحديث هو تاريخ القوميات. وقد تم اختبار القومية فى معارك الشعوب وتحت نيران المعارك ووجد أنها الترياق الوحيد ضد الحكم الأجنبى والإمبريالية الحديثة. وهذا هو السبب فى أن القوى الإمبريالية الكبيرة تحاول بكل قواها وبطريقة محمومة أن تحبط وتزيل كل الميول القومية بين رعاياها الأجانب وتصرف المبالغ الباهظة بسخاء على الدعاية ضد القومية ووصفها بالضيق واللا حضارية والشيطانية. وقد وقع البعض فى مصيدة تلك الدعايات وأصبحوا أدوات للإمبريالية ونظيرا لخدمتهم فإن القوى الإمبريالية تغدق عليهم المديح وتصفهم بأنهم مثقفون وليبراليون وتقدميون وذوو أفق متسع».

وقد لقيت آراء ليمبيد صدى فى نفسى. فقد كنت أنا تحت تأثير أبوة الاستعمار الإنجليزى، وتحت جاذبية أن ينظر إلىّ البيض على أننى مثقف وتقدمى ومتحضر فقد كنت على وشك الانضمام للنخبة السوداء التى حاولت بريطانيا أن تزرعها فى إفريقيا وكان ذلك ما أراده الجميع لى ابتداء من الحاكم وحتى سيدلسكى. ومثل ليمبيد بدأت أعتقد أن الترياق هو القومية الإفريقية المناضلة.

كان هناك شباب آخرون يفكرون على الخط نفسه وكنا نلتقى لمناقشة تلك الأفكار. كان هناك وولتر سيسولو وأوليڤر تامبو ود. ليونيل ماجو مبوزى ووليام نوكولو وداڤيد بوبابى. وكان الكثيرون من الشباب يشعرون بأن المؤتمر أصبح متحفا لنخبة إفريقية مميزة متعبة وغير مناضلة. وكان الإجماع أنه لابد من القيام بعمل واقترح د. ماجو مبوزى تكوين تنظيم للشباب كطريقة لإيقاد النار تحت قيادة المؤتمر.

وفى عام ١٩٤٣ ذهبت لمقابلة د. إكسوما وكان يمتلك منزلا فخما فى صوفيا تاون بالإضافة إلى عيادة جراحة ومزرعة صغيرة. وكان وقتها رئيسا للمؤتمر وقد أدى إليه خدمة جليلة بإيقاظه من حالة النعاس والتقاعس التى كان يعانيها تحت القيادة السابقة وأفاده إفادة مادية عظيمة كما أنه هو شخصيا كان يتمتع باحترام رؤساء القبائل والوزراء. وكان ذا مظهر شامخ واثق مطمئن لا يناسب مظهر قائد منظمة جماهيرية. وكان اهتمامه الأول عمله كطبيب كما أنه كان يريد الإبقاء على العلاقات التى كونها مع مؤسسات البيض ولم يكن يريد أن يُعرضها للخطر بالعمل السياسى.

وعند لقائنا أخبرناه بأننا ننوى إنشاء تنظيم للشباب وتنظيم حملة عمل نحشد بها مساندة الجماهير. وكنا قد أحضرنا معنا نسخة من مسودة دستور التنظيم والإعلام. ولكن د. إكسوما شعر بأن الدستور والتنظيم يهددانه وعارضهما بشدة.

وبعد ذلك بقليل شُكلت لجنة إقليمية لتنظيم الشباب بقيادة ويليام نكومو

ثم حضر أعضاؤها اجتماع المؤتمرالسنوى وقدموا اقتراحهم وقُبل الاقتراح.

وفى أول اجتماع أكد المتحدثون على إنجازات الإفريقيين وعلى القومية الإفريقية الوليدة وتمت انتخابات الإدارة وانتخبت أنا فى اللجنة التنفيذية.

كانت صيحة الحرب لدينا هى القومية الإفريقية وكانت عقيدتنا هى خلق أمة واحدة من القبائل العديدة وإسقاط سيادة البيض وإنشاء حكومة ديمقراطية. وكنا على حذر شديد من الشيوعية وقد مضى إعلاننا على أنه يجوز لنا أن نستعير من الأيديولوجيات الأجنبية ولكننا نرفض استيراد أيديولوجيات أجنبية بالجملة فى إفريقيا.

وكنت مرتبكا بشأن انضمامى للمنظمة وبشأن مدى التزامى السياسى فقد كانت لدىّ وظيفة وكنت منتسبا للجامعة ولم يكن عندى متسع من الوقت لشئ آخر. كما أنه كان يساورنى شعور عدم ثقة بوعيي وثقافتي السياسية بالمقارنة بوولتر وليمبيد ومدا، كما أننا كنا مازلنا مختلفين حول إفريقية التنظيم وعما إذا كنا سنسمح لعناصر من البيض بالالتحاق وكنت فى ذلك الوقت معارضا لانضمام الشيوعيين والبيض.

وكان منزل سيسولو منزلا لى أيضا. وكانت زوجته ذات حكمة وحضور مدهش. وبينما كنت فى غرفة معيشتهم يوما التقيت بإيفيلين ميس زوجتى الأولى وكانت فتاة هادئة جميلة من الريف وكانت حينئذ تتدرب لتصبح ممرضة فى مستشفى جوهانسبرج العام لغير الأوروبيين.

كانت فتاة يتيمة من ترانسكى أُرسلت لتتم تعليمها الثانوى فى جوهانسبرج وكانت تمت بصلة قرابة لوالدة سيسولو.

وحدثت بيننا علاقة حب أعقبها زواج مدنى حيث لم يكن باستطاعتنا تحمل تكاليف زواج تقليدى. وواجهتنا مشكلة السكن. فبعد إقامة قصيرة مع أخيها فى شرق أورلاندو أقمنا مع أختها فى منطقة المناجم حيث كان زوجها يعمل كاتبا.

-١٢-

فى عام ١٩٤٦ وقعت سلسلة أحداث حاسمة شكلت تطور الصراع واتجاهه. فقد حدث أن قام ٧٠٫٠٠٠ من عمال المناجم بإضراب. وكان اتحاد عمال المناجم الإفريقية قد أقيم بناء على مبادرة من چيه. بى. ماركس، ودان تلوم، وجود ردايبى وعدد من عناصر المؤتمر النشيطة وكان معظم عمال مناجم السخرة وعددهم حوالى ٤٠٠٫٠٠٠ لا يزيد أجرهم على ٢ شلن فى اليوم. للفرد. وقد حاولت قيادة الاتحاد أن تضغط على غرفة المناجم لتحديد أجر أدنى يقدر بعشرة شلنات فى اليوم ومسكن عائلى وإجازة أسبوعين بأجر ولكن الغرفة تجاهلت هذه المطالب.

وفيما يعتبر من أكبر العمليات فى جنوب إفريقيا فقد أضرب عمال المناجم لمدة أسبوع وأبقوا على تضامنهم. وكان انتقام الدولة لا هوادة فيه فاعتُقل القادة وحوصرت المجمعات السكنية ونُهبت مكاتب الاتحاد وقمعت الشرطة مسيرة احتجاج وقُتِل اثنى عشر عاملاً.

وكان ماركس -وهو عضو قديم فى المؤتمر والحزب الشيوعى- رئيسا للاتحاد. وكان من مواليد الترنسفال من أصل مختلط. ذا شخصية كاريزمية وكنت أنتقل معه أثناء الإضراب بين المناجم مخاطبين العمال ومخططين لاستراتيجية العمل. وقد أعجبنى تنظيم الاتحاد وقدرته على التحكم فى الأعضاء حتى فى مواجهة تلك المعارضة الوحشية. وانتصرت الدولة وقُمِع الإضراب وسُحق الاتحاد. وكان الإضراب بداية علاقتى الوثيقة بماركس وكنت أزوره فى منزله وقد ناقشنا معارضتى للشيوعية بالتفصيل وكان يشعر بأنه من الطبيعى لشاب مثلى أن يعتنق القومية وأن آرائى ستتسع حينما أكبر وأكتسب خبرة أكثر.

وناقشت القضايا نفسها مع موسيس كوتانى ويوسف دادوو وكانا يعتقدان أن الشيوعية يمكن أن تُطبق لتناسب الموقف الإفريقى.

وبعد الإضراب اعتُقل اثنان وخمسون شخصا من بينهم كوتانى وماركس وعديد من الشيوعيين وقُدموا للمحاكمة بتهمة التحريض على الفتنة والعصيان.

وأجبرتنى حادثة أخرى فى العام نفسه على تغيير معالجتى للعمل السياسى. ففى عام ١٩٤٦ أصدرت حكومة سماتس قانونا يقيد حرية حركة الهنود والأماكن التى يمكنهم السكنى والتجارة فيها ويحدد بشدة حقوقهم فى التملك. ومقابل ذلك منحوا حق التمثيل فى البرلمان بواسطة ممثلين بيض. وانتقد د. دادوو تلك القيود بعنف ووصف عرض التمثيل البرلمانى بأنه عرض زائف لتمثيل خادع واشتد غضب مجتمع

الهنود وبدأوا حملة عصيان مدنى مدتها سنتان، خلّفت فينا الحملة أثرا قويا لحسن تنظيمها وشدة الإخلاص لها. ولمدة عامين علق الناس فيهما حياتهم ليخوضوا المعركة ونظموا المسيرات واحتلوا الأراضى المخصصة للبيض وطوقوها وأُرسل ما لا يقل عن ألفى شخص للسجن. فيما تلقى د. نيكر ودادوو أحكاماً بالأشغال الشاقة مدتها ستة أشهر. وقد شلت الحكومة حركة العصيان بالقوانين الصارمة ووسائل التخويف لكننا نحن فى تنظيم الشباب شهدنا المواطنين الهنود يسجلون احتجاجا غير عادى ضد القمع العنصرى بطريقة لم يتبعها الأفارقة ولا المؤتمر. فقد علق إسماعيل مير وچيه. إن سينج دراستهما وودعا أسرتيهما وذهبا إلى المعتقل وفعل مثلهما أحمد كاثرادا الذى كان مازال طالبا فى المرحلة الثانوية.

أصبحت الحملة الهندية مثالاً لنا فى تنظيم الشباب لنوع الاحتجاج الذى كنا ندعو إليه وغرست فينا روح التحدى والراديكالية وكسرت حاجز الخوف من المعتقل.

وفى بداية عام ١٩٤٦ انتقلت وايڤيلين إلى منزل من منازل البلدية فى أورلاندو الشرقية وبعد ذلك إلى منزل أكبر قليلا فى أورلاندو الغربية وهى منطقة متربة منازلها مثل الصناديق وأصبحت فيما بعد جزءا من سويتو الكبرى. وكان إيجار المنزل سبعة عشر شلنا وست بنسات فى الشهر وكان مطابقا لمئات أخرى أقيمت على رقع صغيرة من الأرض غير الممهدة وكانت أسقفها من الصفيح وأرضياتها من الإسمنت. ولم تكن الكهرباء قد دخلت بعد. وكان منزلى رغم تواضعه الشديد أول

منزل لى وكنت فخورا به. وتلك السنة ولد أول أولادى ماديبا شيمبكل وكنا نناديه بثمبى. وكنا أيضا نتلقى الضيوف والنزلاء فإن جميع أعضاء الأسرة طبقا لتقاليدنا لهم حق الضيافة عند أى فرد من أفراد الأسرة. وعلى ذلك فقد كان منزلى دائماً ممتلئاً بالضيوف.

وفى بداية عام ١٩٤٧ أنهيت فترة تدريبى فى المكتب وقررت أن أتفرغ لكى أحصل على درجتى الجامعية فى القانون لكى أفتح مكتبا خاصا بى. وتقدمت إلى صندوق الخدمات بطلب قرض ٢٥٠ جنيها إسترلينيا لتغطية نفقات إتمام دراستى ومنحت ١٥٠ جنيها فقط. وبعد ثلاثة شهور تقدمت بطلب آخر ومنحت بقية المبلغ حيث إنه كانت زوجتى على وشك القيام بإجازة وضع تفقد أثناءها راتبها. وحدث بعد ذلك أن وُلدِت لنا طفلة ضعيفة مريضة توفيت وعمرها تسعة أشهر.

وعقب مرض مفاجئ توفى ليمبيد وكان لوفاته أثر عميق على الكثيرين وأنهك الحزن سيسولا خاصة. وكان موته انتكاسة للحركة حيث كان ليمبيد نبعا للأفكار التى اجتذبت الكثيرين للمنظمة.

وخلف ليمبيد بيتر مدا الذى جعلت منه طريقته التحليلية وقدرته على التعبير ببساطة ووضوح وخبرته التكتيكية سياسيا ممتازا وقائداً مرموقا للتنظيم. وكان مدا يؤمن بأن تنظيم الشباب يجب أن يكون جماعة ضغط وجناح نضال يعمل من خلال إطار المؤتمر ككل حتى يدفع بالمؤتمر إلى عهد جديد.

وأسس مدا فرعا لتنظيم الشباب فى فورت هير تحت قيادة زدِ. كيه.

ماثيوس وجود فري بيچيه وقاما بتجنيد عدد من الطلبة المرموقين الذين أتوا للتنظيم بدمــاء وأفكار جــديدة. ومن بين هؤلاء چو ابن ماثيوس وروبرت سوبوكوى الذى كان خطيبا لامعا ومفكرا واضحا. وكنت مازلت من بين أعضاء التنظيم الذين كانت تملؤهم الشكوك من اليسار الأبيض وكنت أعارض الحملات المشتركة للمؤتمر والحزب الشيوعى وأعتقد أن القومية الإفريقية الخالصة هى التى ستحررنا وليست الماركسية أو التعددية الإثنية وكنت أشعر نحو الهنود بنفس شعورى نحو الشيوعيين.

وفى عام ١٩٤٧ انتخبت عضوا فى اللجنة المركزية للمؤتمر الوطنى الإفريقى عن إقليم الترانسفال وعملت تحت إمرة رئيسه راموهانو وكان ذلك أول منصب لى فى المؤتمر وكان علامة فى تاريخ التزامى تجاهه. ومنذ ذلك الحين بدأت أتوحد قلبا وقالبا مع المؤتمر ككل بطموحاته ونجاحاته وفشله.

وفى عام ١٩٤٧ وقع د.إكسوما رئيس المؤتمر ود. دادوو رئيس المؤتمر الهندى الترانسفالى ود. نيكر رئيس المؤتمر الهندى الناتالى ميثاقا للعمل الجماعى عرف بميثاق الأطباء للعمل ضد العدو المشترك وكانت تلك خطوة هامة لتوحيد الحركات الهندية والإفريقية وفيما بعد لحقت بهم منظمة الشعب الإفريقى وهى منظمة للملونين.

-١٣-

رغم أنه لم يكن للأفارقة حق التصويت فلم يعن ذلك أننا لم نكن نهتم

بمن يكسب الانتخابات. وكان الحزب المتحد بقيادة سماتس يتمتع باحترام دولى لتأييده الحلفاء فى الحرب على خلاف حزب القوميين الذى أيد النازية. وأدار حزب القوميين حملته حول الخطر الأسود وكان لهم شعاران: «فليبق الزنوج فى أماكنهم» و«فليرحل الحمالون» أى الهنود. وكان القوميون بقيادة دانيال مالان تحفزهم مرارتهم ضد الإنجليز الذين عاملوهم باحتقار لعشرات السنين وضد الأفارقة الذين كانوا يرون أنهم يهددون نقاء الحضارة الأفريكانية وازدهارها. ورغم عدم ولاء الأفارقة لسماتس فقد كان ولاؤنا أقل للقوميين وعرفت دعاية مالان الانتخابية بالأبارتايد وكان لفظا مستحدثا رغم قدم الفكرة ذاتها. وكانت الكلمة حرفيا تعنى الفصل، أى أنه ما ظل واقعا كان سيصبح شرعيا طبقا للقانون وأن التفرقة ستصبح نظاما متوحداً قوياً شيطانى التفاصيل لا فرار من قبضته. وكانت افتراضية الأبارتايد تقوم على فكرة سمو الجنس الأبيض على الأفارقة والملونين والهنود. وكانت وظيفته تنحصر فى ترسيخ السيادة البيضاء إلى الأبد أو كما صاغ ذلك القوميون «إن الرجل الأبيض يجب أن يظل سيدا» بكل ما يحمله لفظ السيادة من معانى العنف. وكانت الكنيسة الإصلاحية الهولندية تؤازر تلك السياسة وقد أمدتها بالأساس العقائدى القائم على الأسطورة التى مفادها «أن الأفريكانيين هم شعب الله المختار وأن السود نوع تابع».

وكان انتصار القوميين نهاية لسيادة الإنجليز على الأفريكان. وكانت شعارات القوميين وهى «شعبنا ولغتنا وأرضنا» تلخص مهمتهم

ورسالتهم.

وحينما انتصر القوميون صدمت صدمة أذهلتنى لكن أوليفر أمبو علق قائلا: «إننى راض عن ذلك ولا أعرف لماذا. فالآن نحن نعرف تماما أعداءنا ونعرف أين نقف». وأعلن مالان فى خطاب انتصاره قائلاً «والآن فإن جنوب إفريقيا قد عادت لنا».

وفى العام نفسه جدد تنظيم الشباب سياسته فى وثيقة كتبها مدا وأصدرتها اللجنة المركزية التنفيذية وكانت صيحة تحث كل الشباب الوطنى على الاتحاد ليُسقط السيادة البيضاء ورفضنا الفكر الشيوعى القائل بأن الإفريقيين مضطهدون كطبقة اجتماعية وليس كجنس. وأضفنا أنه لابد من خلق حركة تحرر قوى تحت لواء القومية الإفريقية يقودها الإفريقيون أنفسهم ونادينا بإعادة توزيع الأراضى على أسس أكثر عدالة وإلغاء الحواجز القائمة على أساس لون البشرة كما نادينا بالحاجة إلى تعليم مجانى وإلزامى.

وكنت حينئذ متعاطفا مع التيار الأكثر ثورية من التيارات القومية. فقد كان غضبى منصبا على الرجل الأبيض وليس على التفرقة فى حد ذاتها. وكنت على استعداد لتقبل الهنود والملونين على أن يتقبلوا هم سياستنا. ولكن اهتماماتهم لم تكن هى اهتماماتنا وكنت متشككا فى قدرتهم على احتضان قضيتنا عن صدق.

وفى خطوات متلاحقة بدأ مالان تنفيذ برنامجه الكريه، فأعلنت الحكومة عزمها على تقليص حركة الاتحادات، وإلغاء الحقوق الدستورية

المحـدودة للهنود والملونين والأفـارقـة. وصــدر قـانون منـع الزيجـات المختلطة أعقبه قـانون الفـجور الذى يجـرم أى اتصـال جنسى بين البـيض والأجناس الأخـرى. ثم صــدر قـانون تصنيف السكان الذى صنف سكان جنوب إفـريقـيـا على أسـاس عـرقى قـائم على اللون، ثم قـانون مناطق الجـمـاعـات الذى هو لب الأبارتايد والذى طالب بمـناطق مدنية لكل مـجموعة عرقية. وهكذا فبينما كان البيض يستولون على الأراضى بالقوة فى الماضى أصبحوا الآن يفعلون ذلك بقوة القانون. وفى ظل ذلك اتخذ تنظيم الشباب والمؤتمر خطوات لتعبئة الجماهير.

فى الاجتماع السنوى للمؤتمر تم تبنى خطة عمل التنظيم. ودعا المؤتمر إلى المقـاطعـة والإضـرابات والبـقـاء فى المنازل والمقـاومـة السلبـيـة ومظاهرات الاحتجاج وغيرها من أشكال العمل الجماهيرى وذلك رغم وجود مـعارضـة من داخل المؤتمر وخاصـة من د. إكسومـا الذى كان يرى فى استراتيجيتنا خطرا قد يعطى الحكومة فرصة لسحقنا كما أنه كان غير مستعد لأن يعرض منصبه وعمله كطبيب للخطر. فـأعطيناه إنذارا بأننا لن نصوت فى صالحه فى انتخابات رئاسة المؤتمر إن لم يوافق على خطتنا فاتهمنا بالغرور ومحاولة ابتزازه وطردنا من منزله.

وحاولنا فى ديسمبر التالى خلع إكسوما وإحلال د. موروكا مكانه رغم عضـوية الأخـير فى منظمـة الأفـارقـة التى كـانت تسـودها العناصـر التروتسكية إلا أنه كان نشيطا وكان يؤيد برنامجنا وكان طبيبا مثقفا من أكثـر السـود ثراء. وفى انتـخـابات المؤتمر هُزِم إكسـومـا وانتـخب موروكا رئيسا عاما وسيسولا سكرتيرا عاما وتامبو عضـوا فى اللجنة

التنفيذية.

وكان البرنامج الجديد قد نادى أيضا بتحديد يوم للتوقف عن العمل على المستوى القومى احتجاجا على سياسات الحكومة العنصرية. وبذلك نجحنا نحن أعضاء تنظيم الشباب فى توجيه المؤتمر نحو طريق أكثر راديكالية وثورية.

وكنت قد انتقلت للعمل فى مكتب جديد للمحاماة وكان عملى يستغرق كل وقتى ورغم ليبرالية أصحاب العمل فقد كانوا يريدون منى أن أنسى السياسة.

جاشت روح العمل الجماهيرى، لكن شكوكى حول الهنود والشيوعيين استمرت. وقد اجتذب مؤتمر الدفاع عن حرية الكلام الذى نظمه مؤتمر الترانسفال ومجلس الترانسفال الهندى ومنظمة الشعب الإفريقى واللجنة الإقليمية للحزب الشيوعى فى جوهانسبرج فى مارس عام ١٩٥٠ عشرة آلاف شخص وترأسه د. موروكا ونجح المؤتمر ولكن حذرى استمر حيث إن المنظم الأول للمؤتمر كان الحزب الشيوعى.

وبمبادرة من الحزب الشيوعى والمجلس الهندى قرر المؤتمر تنظيم إضراب لمدة يوم واحد هو أول مايو يسمى يوم الحرية وينادى بإلغاء قوانين التصاريح وكل تشريعات التفرقة ورغم مساندتى للأهداف فقد اعتقدت أن الشيوعيين يريدون أن يطفئوا وهج يوم الاحتجاج الذى اقترحه المؤتمر الإفريقى ولذا عارضت الإضراب.

وكان أحمد كاثرادا حينئذ فى الحادية والعشرين من عمره وكان

عضوا هاما فى مجلس الشباب الهندى للترانسفال وقد سمع عن معارضتى للإضراب. وحينما قابلنى اتهمنى أنا وتنظيم الشباب بأننا لا نريد العمل مع الهنود والملونين رغم أنه واثق من أن جماهير الأفارقة تؤيد الإضراب.

ونفّذ إضراب يوم الحرية دون تأييد رسمي من المؤتمر. وكانت الحكومة قد حظرت كل الاجتماعات والتجمعات ترقبا له. وقد بقى أكثر من ثلثى العمال الأفارقة فى منازلهم ذلك اليوم. وبينما كنت وولتر فى غرب أورلاندو نرقب مسيرات الاحتجاج والتجمعات إذا بالشرطة تطلق النار فى اتجاهنا.

وانبطحنا أرضا ثم سارعنا بالاختفاء فى منزل للممرضات حيث سمعنا الطلقات النارية التى نتج عنها وفاة ثمانية عشر إفريقيا وجرح العديد.

وبعد أسابيع أصدر القوميون قانون حظر الشيوعية وتجريم الحزب الشيوعى واعتبار عضويته جريمة يعاقب عليها بالسجن عشر سنوات. وكان نص ذلك القانون يرى أن اعتناق أى مذهب يشجع أى تغيير سياسى أو صناعى أو اقتصادى أو اجتماعى جريمة. وعلى ذلك فقد سمح ذلك القانون للحكومة أن تحظر أية منظمة وأن تقيد أى فرد معارض لسياستها.

واجتمع المؤتمر والمجلس الهندى ومنظمة الشعب الإفريقى لمناقشة تلك الإجراءات وأعلن دادوو مع آخرين أنه من الغباء أن نسمح لخلافات

قديمة أن تقف فى طريق تكوين جبهة متحدة ضد الحكومة. وفى خطابى قلت إن حظر أية منظمة هو حظر لجميع المنظمات. وقررنا تخصيص يوم ٢٦ يونيو يوما قوميا للاحتجاج على مقتل ثمانية عشر إفريقيا فى أول مايو.

وكنت فى بداية ذلك العام قد حللت محل د.إكسوما الذى كان قد استقال لمرضه من عضوية اللجنة المركزية للمؤتمر وأصبحت فى مركز من مراكز القوة التى طالما ثرت عليها.

كانت الأعمال الجماهيرية فى جنوب إفريقيا محفوفة بالأخطار حيث كان الإضراب بالنسبة للإفريقى جنحة جنائية، وحيث كانت حقوق الكلام والحركة مقيدة بلا هوادة. وكان الإضراب السياسى أشد مخاطرة من الإضراب الاقتصادى وكان يوم الاحتجاج إضراباً سياسياً.

وفى سبيل الإعداد ليوم ٢٦ يونيو أخذ وولتر يجوب أنحاء البلاد للتشاور مع القادة المحليين وفى غيابه توليت مسئولية مكتب المؤتمر وأخذت بمحور العمل القومى المعقد والتحاور مع القادة المختلفين فى جميع أنحاء البلاد عن طريق الهاتف، وكان التخطيط متسرعا.

كان يوم الاحتجاج أول محاولة للمؤتمر لتنفيذ إضراب سياسى على مستوى قومى ولاقى نجاحا معتدلاً. ففى المدن بقى معظم العمال الأفارقة فى المنازل وظلت متاجر السود مغلقة. كما حدثت مظاهرات فى أماكن أخرى كتبت عنها الصحف فى العناوين الرئيسية. وارتفعت

معنوياتنا وأرسلنا إنذارا لحكومة مالان مقتضاه أننا لن نبقى سلبيين في مواجهة الأبارتايد. وظل يوم ٢٦ يونيو علامة مميزة في تاريخ الكفاح ويحتفى به كيوم الحرية. وكانت تلك أول مرة أقوم بدور هام في حملة قومية وشعرت بالبهجة النابعة من النجاح في المعركة.

وفي تلك الأثناء ولد ابني الثاني وكنت مع إيڤيلين حينما خرج للحياة لكن لم أمكث سوى فترة وجيزة وقد سمي ماكجاثو لوانيكا على اسم بطل إفريقي مكافح من زامبيا.

وفي تلك الأيام كانت تعوزني الثقة حيال ما أنا ضده وما أنا معه. فقد كانت معارضتي الطويلة للشيوعية قد بدأت تضعف. وكان موسيس كوتاني كثيرا ما يأتي إلى منزلي ليلا ويسألني عن سبب عدائي ولم تكن لدي إجابة. كان الكثيرون من أعضاء الحزب أصدقاء لي وكانوا متفانين في القضية. أما د. دادوو أحد أعضاء المقاومة عام ١٩٤٦ فقد كان ماركسيا مرموقا وكان دوره كمدافع عن حقوق الإنسان قد جعل منه بطلا لكل المجموعات. ورغم ذلك فلم أكف عن مساءلة الأسس الفلسفية للماركسية ولم أكن أعلم الكثير عنها. وعلى ذلك حصلت على الأعمال الكاملة لماركس وإنجلز ولينين وستالين وماوتسي تونج وغيرهم. وأجهدني كتاب رأس المال بينما حفزني المانيفستو الشيوعي ولاقت فكرة مجتمع بلا طبقات من نفسي استجابة قوية إذ وجدتها تشابه الحضارة الإفريقية حيث يتقاسم الناس الحياة مشاعا. وأقنعتني مقولة ماركس الأساسية التي وجدت فيها قاعدة ذهبية والتي تقول «لكلٍ طبقا لقدراته لكل طبقا لاحتياجاته». وبدت الدياليكتية المادية

وكأنها تلقى ضوءا على الاضطهاد العرقى، وأيضا كآلية يمكن توظيفها لإنهائه وساعدتنى على رؤية الموقف من زاوية غير زاوية العلاقة بين السود والبيض لأنه إذا كان لحركتنا أن تنجح فلابد لها أن تتسامى على اللون. كما جذبتنى الأسس العلمية للدياليكتيك المادى وتحليلها للاقتصاد وبدت لى الفكرة التى تقول إن قيمة السلع تقدر على أساس العمل المبذول لإنتاجها مناسِبة بصفة خاصة لجنوب إفريقيا إذ إن الطبقة الحاكمة كانت تدفع للعمال الأفارقة أجورا دنيا وتضيف قيمة الأجور الحقيقية إلى تكاليف السلعة وتحتفظ لنفسها بالفرق. وكان لدعوة ماركس للعمل الثورى وقع الموسيقى على أذنى. وخلال قراءتى للأعمال الماركسية وجدت معلومات كثيرة لها علاقة بنوع المشاكل التى تواجه السياسى الممارس بالإضافة إلى أن الماركسيين اهتموا بحركات التحرر القومية وكفاح الشعوب ضد الاستعمار وكان ذلك سببا آخر لتغيير نظرتى للشيوعيين وقبولى ترحيب المؤتمر بهم بين صفوفه. ولم يكن علىَّ أن أعتنق الشيوعية لأعمل معهم ووجدت أن القومى الإفريقى والقومى الشيوعى بينهما عوامل مشتركة أكثر من اختلافات.

-١٤-

فى عام ١٩٥٠ أصدرت الحكومة قرارين يعتبران حجر الزاوية فى الأبارتايد وهما قانون السكان والتسجيل وقانون المناطق الجماعية أو مناطق المجموعات وقد سمح القانون الأول بتصنيف السكان على أساس عرقى وبطريقة عشوائية مما نتج عنه أحيانا التفريق بين

أعضاء الأسرة الواحدة اعتمادا على لون البشرة وتجاعيد الشعر وسمك الشفتين. أما قانون المناطق فيعتبر أساس الأبارتايد السكانى وبناء عليه فإذا أراد البيض تملك الأراضى أو المساكن التى يمتلكها الأفارقة أو الهنود فما عليهم إلا أن يعلنوا المنطقة بيضاء. كما أنه بناء على ذلك القانون بدأت حركة نقل جماعية للسكان بالقوة فى حالة قرب المناطق التى يعيش فيها الأفارقة من مناطق سكان البيض.

وكانت صوفيا تاون على رأس تلك القائمة وهى منطقة حية كان يسكنها أكثر من خمسين ألف إفريقي وكانت إحدى أقدم المواطن الإفريقية فى جوهانسبرج وكانت تفيض حياة رغم فقرها كما كانت تحتضن كثيرا مما هو جديد وقيّم فى حياة الأفارقة وحضارتهم وكان لها على صغرها معنى رمزى للأفارقة يفوق حجمها.

وأصدرت الحكومة أيضاً قرارين أُلغى بمقتضاهما حق التمثيل النيابى بالنسبة للملونين كما ألغى المجلس النيابى للبانتو وهو منتدى إفريقى له دور التمثيل غير المباشر وأحلت الحكومة محله نظاما هرميا من رؤساء القبائل الذين تعينهم الحكومة على أساس إثنى وكان الهدف هو إعادة السلطة للرؤساء المحافظين وتقوية الاختلافات الإثنية التى كانت بادئة فى الزوال. ونتيجة لذلك نظم الملونون مظاهرة ضد القانون الخاص بهم فى كيب تاون وإضراب ظلت على إثره المتاجر والمدارس مغلقة. وعملا بروح المقاومة المشتركة بين الطوائف الثلاث طرح سيسولو فكرة حملة للعصيان المدنى.

ولقيت الفكرة منا قبولا ولكنى وبصفتى حينئذ رئيسا لتنظيم الشباب كنت أرى أن تقتصر الحملة على الأفارقة فقد كنت مازلت أخشى تأثير الهنود. ولكن رأيى هُزِم فى الاقتراع وأخيرا قبلت برأى الأغلبية. ووجه القادة نداء للحكومة لإلغاء القوانين الإثنية والعنصرية ثم قرر المجلس الذى تم تشكيله من هؤلاء القادة أن يقوم المؤتمر بتنظيم مظاهرات يوم ٦أبريل عام ١٩٥٢ كمقدمة لبدء حركة العصيان. وكان ذلك هو يوم احتفال البيض بالعيد الثلاثمائة لوصول جان ڤان رايبك إلى الكيب وكان يحتفون به على أنه يوم إنشاء دولتهم بينما يلعنه الأفارقة كبداية ثلاثمائة عام من الاستعبَاد. وصاغ المؤتمر خطابا لرئيس الوزراء يعلمه بالقرارات وينصحه بإلغاء القوانين وكنا نحتاج إلى توقيع د.موروكا على الخطاب لأنه كان موجها باسمه وأوكلت لى مهمة السفر إلى ولاية أورانج الحرة للحصول على التوقيع. وسافرت إلى هناك بالسيارة فقد كنت قد حصلت على رخصة قيادة وكان ذلك شيئاً غير عادى بالنسبة للأفارقة. وحدثت على الطريق لى حادثة تورطت فيها مع الشرطة وسببت تأخيرى لكنها انتهت بسلام. وحصلت على توقيع د.موروكا وأُرسِل الخطاب إلى رئيس الوزراء الذى أجاب فى رسالة موقعة من سكرتيره الخاص أنه من حق البيض أن يتخذوا من الإجراءات ما يضمن بقاء هويتهم كقومية منفصلة وأنهى الرد محذرا من أنه إذا ما اتبعنا إجراءاتنا فإن الدولة ستتخذ جميع الوسائل المتاحة لها لإخماد أى اضطرابات. وقد اعتبرنا رد مالان القاطع إعلانا للحرب ولم يكن أمامنا سوى اللجوء للعصيان المدنى وأخذنا نعد

العدة للعمل الجماهيرى. وكان من المهمات الأساسية تجنيد وتدريب متطوعين للحملة لضمان إنجاحها. وبدأت التجمعات والتظاهرات المبدئية وخطبتُ فى بعضها مبينا أن التطوع واجب صعب وخطر وأن السلطات ستعمل على إرهاب وسجن ومهاجمة المتطوعين وأنهم لابد لهم أن يردوا على العنف بعدم استعمال العنف وأن يحافظوا على النظام مهما كلف الأمر.

وكان الاتفاق قد تم على قيادة الحملة طبقا لمبادئ غاندى التى تسعى إلى الكسب عن طريق تغيير المعتقدات وأيد ذلك نجل المهاتما مانيلا غاندى رئيس تحرير صحيفة الرأى الهندى وعضو المجلس الهندى البارز والذى كان هو شخصيا تجسيدا لمبادئ والده.

وكان آخرون وأنا من بينهم يرون أننا لا يجوز أن نتبنى مبادئ معينة بل نضع تكتيكا ومنهجا يناسب الظروف وبما أن الدولة قوية فإن استعمال العنف سيؤدى لسحقنا. وهكذا دعوت للاحتجاج السلمى طالما كان ذلك مؤثرا وليس كمبدأ. وقد تبنت الأغلبية رأيى رغم معارضة مانيلا غاندى القوية.

وتم اقتراح مرحلتين للتحدى يقوم عدد من المتطوعين فى المرحلة الأولى بخرق عدد من القوانين فى المناطق المدنية كأن يدخلوا مناطق محظورة دون تصاريح أو يستعملوا منشآت خاصة بالبيض كالمراحيض ومقصورات القطارات ومداخل مكاتب البريد أو يبقوا فى المدينة بعد ميعاد منع التجول. وعُيِّن قائد لكل مجموعة كان عليه أن

يبلغ الشرطة قبل القيام بالعصيان حتى تتم إجراءات القبض بأقل قدر من التشويش. وكان تصورنا للمرحلة الثانية أن تكون تحديا جماهيريا يرافقه إضراب وعمليات فى المؤسسات الصناعية عبر البلاد.

وقبيل الحملة عُقِد اجتماع سمى بيوم المتطوعين وهو يوم ٢٢ يونيو فى دربان وكان ضمن المتحدثين الرئيس لوثولى رئيس المؤتمر فى ناتال ود. نيكر رئيس المجلس الهندى هناك وأعلنا التزامهما بالحملة وكنت أنا المتحدث الرئيسى وكان هناك ما يقرب من عشرة آلاف من الحضور.

وعلى طول البلاد وعرضها فإن الذين قاموا بالتحدى يوم ٢٦ يونيو فعلوا ذلك بشجاعة وحماس وحس بالتاريخ. وبدأت الحملة فى بورت إليزابيث حيث دخلت جماعة محطة للقطارات من مدخل البيض وتم القبض عليهم وكانوا وهم يسيرون ينشدون أغانى الحرية بينما كانت أسرهم وأصدقاؤهم يحيونهم ويتصايحون «فلتعد إلينا إفريقيا».

وطبقا للخطة فقد كان متطوعو المؤتمر سيقومون بدخول منطقة فى شرق جوهانسبرج دون تصريح وفى آخر لحظة اعتذر القس الذى كان سيقودهم لمرضه وهنا أحللت المبجل الهندى نانا سيتا رغم مرضه بالروماتويد وكبر سنه وكنا نريد بمثل تلك القيادة أن نبرهن أننا لسنا فقط مجموعة من الشباب الطائش. ثم بعد ذلك اكتشفت غياب سكرتير فرع المؤتمر فى الترنسفال الذى كان سيرافق نانا سيتا وأحللنا وولترسيسولو محله رغم كونه أحد المنظمين. ثم ذهبت أنا ويوسف

كاتشاليا للمنطقة حيث كنا سنسلم القاضى هناك خطابا نخبره أن خمسين متطوعا سيدخلون المنطقة بدون تصريح. وفى مكتبه وجدنا عددا من المراسلين الصحفيين والمصورين الذين أخذوا فى التقاط الصور.

وسارت المظاهرة بنجاح وحماس ورغم الاستمرار فى إغلاق بوابات الحى فقد انتظر المتطوعون بصبر وأخذوا يطالبون بالدخول بقيادة وولتر. أما الروح المحركة فكان نانا سيتا الذى ظل رغم مرضه يتحرك بين المتظاهرين ويبث فيهم روح الحماس ثم فتحت الأبواب واندفع المتطوعون فورا فى عملية خرق للقانون وحاصرت الشرطة المتطوعين وألقت القبض عليهم كما كان مخططا ونقل المتطوعون إلى مركز الشرطة ووجه إليهم الاتهام.

وفى المساء اجتمعنا نحن قيادة لجنة العمل لمناقشة أحداث اليوم والتخطيط لأسبوع قادم وكان ذلك قرب المنطقة التى كان مقررا لمجموعة أخرى من المتحدين أن يخرقوا قانون منع التجوال والقيام بمسيرة جماعية فى الشارع.

وخرجنا من الاجتماع فى منتصف الليل وفى تلك اللحظة اقترب منى أنا ويوسف كاتشاليا رجل شرطة وكان من الواضح أننا كنا فى طريقنا إلى منزلنا ولم نكن من المتحدين. وألقى القبض علينا وبعد دقائق وجدنا أنفسنا بين أكثر من خمسين من متطوعينا. وكان المكان قذرا وقميئا لكن معنوياتنا كانت مرتفعة ومر اليومان بسرعة.

وخلال الأشهر الخمسة التالية اشترك فى الحملة ٨٥٠٠ شخص من أطباء وعمال ومحامين ومدرسين وقساوسة وطلبة تحدوا القانون ودخلوا السجن. وانتشرت الحملة فى طول البلاد وعرضها ولقيت أصداء إعلامية هائلة وارتفع عدد المشتركين فى المؤتمر الوطنى الإفريقى من ٢٠,٠٠٠ إلى ١٠٠,٠٠٠.

ورأت الحكومة فى الحملة خطرا على أمنها وعلى سياسة الأبارتايد. وكان العصيان المدنى لا ينظر إليه على أنه من أعمال الاحتجاج بل كجريمة. بالإضافة إلى أن العمل المشترك بين الهنود والأفارقة أزعجهم فقد كان الهدف من الأبارتايد تقسيم المجموعات الإثنية. وعلى ذلك أصر القوميون أن الحملة كانت من تدبير عناصر الشغب الشيوعية وأصدرت الحكومة قانون الأمن العام الذى يخول للسلطة إعلان القانون العسكرى أو حالة الطوارئ واحتجاز الأفراد دون محاكمة وقانونا آخر يجيز العقوبة الجسدية للمتحدين.

وقد حاولت الحكومة أيضا استخدام الوسائل الخبيثة لإفشال الحملة فدسوا الجواسيس والعملاء فى المنظمة ونجحت الشرطة فى اختراق بعض الفروع المحلية والمتحدين. وكان الأفارقة الذين يعملون جواسيس يفعلون ذلك من أجل المال وكانوا يرون فينا تهديدا، ليس لبنيان القوى البيضاء، لكن لمصالح السود لأنهم اعتقدوا أن البيض سيسيئون معاملة كل السود بسبب أعمال الشغب. ورغم ذلك فقد كان هناك عديد من رجال الشرطة السود الذين ساعدونا فى السر وكانوا يقومون بإخبارنا عن ميعاد هجمات الشرطة معرضين حياتهم للخطر.

وفى مايو، وفى منتصف حملة التحدى، صدر قرار «بحظر» چيه. بى. ماركس طبقا لقانون عام ١٩٥٠ الخاص بحظر الشيوعية لمساعدته على تحقيق أهداف الشيوعية.

وكان «الحظر» أمراً قانونياً من الحكومة ويترتب عليه الاستقالة الإجبارية من المنظمة التى يحددونها ومنع حضور الفرد أى اجتماعات. كان أشبه بالسجن المتحرك ولم تكن الحكومة تحتاج إلى أى برهان لحظر أى شخص وكان تجاهل أو خرق أمر الحظر يعاقب بالسجن.

وبناء على توصية ماركس قمتُ بترشيح نفسى لرئاسة فرع الترانسفال بدلا منه وفزت بأغلبية ساحقة.

وفى ٣ يوليو عام ١٩٥٢ وبينما كنت فى عملى بمكتب المحاماة حضرت الشرطة وألقت القبض عليَّ بتهمة انتهاك قرار حظر الشيوعية. وقامت الحكومة بسلسلة اعتقالات فى أنحاء البلاد وتفتيش المكاتب والمنازل. وتمت المحاكمات فى ٢١سبتمبر وكان ضمن من قدم للمحاكمة د. موروكا وماركس ودادوو وكاتشاليا وكاثرادا. وكان ظهورنا فى المحكمة مناسبة لقيام مظاهرات صاخبة وكان بين المتظاهرين طلبة بيض من جامعة ويتواتر ساند ورجال المؤتمر الكبار من ألكسندرا وطلبة مدارس ابتدائية وثانوية. واكتظت المحكمة نفسها بالجموع الذين أخذوا يهتفون لإفريقيا الحرة.

عكرت خيانة د. موروكا رئيس عام المؤتمر ورمز الحملة صفو المحاكمة.

فقد أذهلنا، بتفويض محاميه الخاص فى حين أن الخطة كانت أن تتم محاكمتنا معا. وفوضنى زملائى للحديث مع موروكا لكننى لم أنجح فى إقناعه بالعدول. وقدم التماسا ذليلا لتخفيف الحكم وعند سماع أقواله تبرأ من المبادئ التى يقوم عليها المؤتمر وفى ٢ ديسمبر أدانتنا المحكمة بتهمة الشيوعية. وطبقا لقانون حظر الشيوعية كان من الممكن اتهام أى فرد يعارض الحكومة بالشيوعية حتى دون أن يكون عضوا فى الحزب. وكان القاضى عادلا فرغم تهمتنا التى كانت تتراوح ما بين عدم إطاعة القانون والخيانة العظمى فقد اقتنع بأننا كنا دائما ننصح الأعضاء بالعمل السلمى. وحكم على كل منا بالسجن تسعة أشهر مع إيقاف التنفيذ.

لقد ارتكبنا عدة أخطاء لكن حملة التحدى كانت نقطة تحول فى تاريخ المعركة وخرج المؤتمر من الحملة منظمة ذات قاعدة جماهيرية وكوادر ذات خبرة فى العمل تحدت الشرطة والمحاكم والسجون. وزالت الوصمة التى كانت ترتبط بالسجن وكان ذلك إنجازا هاما لأن الخوف من المعتقل يشكل عائقا هائلا لحركات التحرر.

وحررتنى الحملة من عقد النقص والدونية ومن الشعور بالقهر ومن مناعة الرجل الأبيض ومؤسساته. وبلغت سن الرشد كمقاتل من أجل الحرية.■



4

الجزء الرابع

النضال حياتى

-١٥-

وفى المؤتمر السنوى للمؤتمر فى آخر عام ١٩٥٢ كان هناك تغيير. تم اختيار رئيس أكثر حيوية لفترة جديدة أكثر فاعلية وهو الرئيس ألبرت لوثولى وأصبحت أنا طبقا لدستور المؤتمر أحد أربعة نواب للرئيس وعينتنى اللجنة التنفيذية النائب الأول إلى جانب رئاستى لفرع الترانسفال.

وقبيل المؤتمر السنوى كان الرئيس لوثولى قد وُجِّه إليه إنذار وخُيِّر بين أن يتخلى عن عضويته للمؤتمر ومساندته حملة التحدى وبين أن يُفصل من منصبه كرئيس قبيلة مُعيَّن من قبل الحكومة ويتقاضى منها أجرا. وكان لوثولى مدرسا متدينا وكان رئيسا ذا كبرياء من رؤساء الزولو ولكن التزامه بالكفاح ضد الأبارتايد كان يأتى فى المقام الأول ورفض الإنذار وفصلته الحكومة. وساندتُ انتخاب الرئيس لوثولى لكنى لم أتمكن من حضور المؤتمر لأنه وقبل أيام كان قد صدر قرار «بالحظر» ضد اثنين وخمسين عضوا ومنْعهم من حضور أى اجتماع أو تجمعات لمدة ستة أشهر وقُيِّدت حركتى لنفس المدة فى حدود جوهانسبرج.

ورغم عدم حضورى المؤتمر السنوى لعام ١٩٥٢ فقد أُخْبِرت فى التو بما قد تم وكان قد اتُخذ أحد أهم القرارات سرا ولم يُعلَن فى ذلك الوقت.

فقد كنت مع آخرين مقتنعا بأن الحكومة تنوى إعلان المؤتمر الإفريقى والمجلس الهندى منظمتين غير قانونيتين كما فعلت مع الحزب الشيوعى.

وهنا اقترحت على اللجنة التنفيذية فكرة خطة طوارئ لمواجهة هذا الاحتمال. وطلبوا منى أن أضع الخطة التى تُمكّن المنظمة من العمل كمنظمة سرية وعُرِفت الخطة فيما بعد باسم خطة مانديللا أو خطة «م».

وكانت الفكرة إقامة آلية تنظيمية تسمح للمؤتمر أن يتخذ قرارات على أعلى مستوى ويمكن بعد ذلك نقلها إلى المنظمة لكل دون عقد اجتماع. أو بمعنى آخر فإن الخطة تسمح لمنظمة غير قانونية أن تعمل وتمكن قادتها الذين هم تحت الحظر من تولى القيادة. وصممت خطة «م» على أساس أن تمكن المنظمة من تجنيد أعضاء جدد وأن تستجيب

للمشكلات الإقليمية والقومية وأن تواصل صلتها بانتظام بين الأعضاء والقيادات السرية.

وتم قبول وتنفيذ الخطة فورا. ورغم حسن المقاصد من وضع خطة «م» فإن نجاحها كان محدودا ولم تلق رواجا كبيرا. وكانت أفضل نتائجها في منطقة الكيب الشرقية وفي بورت إليزابث حيث استمرت روح حملة التحدي ورأى أعضاء المؤتمر هناك في الخطة بديلا للحركة في تحدي الحكومة.

-١٦-

وكانت حياتي خلال حملة التحدي تسير في اتجاهين: عملي النضالي، وعملي كمحام.

وكنت قد انتقلت إلى مكتب هيلمان وميتشيل وكان مكتبا ليبراليا ويتقاضى من الأفارقة أتعاباً معقولة. كان هيلمان مهتما بمشاكل الأفارقة وكان شريكه الآخر ميتشيل شديد الليبرالية وكان يعمل طيارا إبان الحرب العالمية الثانية وبعد ذلك بسنوات ساعد على نقل عدد من أعضاء المؤتمر خارج جنوب إفريقيا إبان حملات «الاضطهاد».

وعملت في ذلك المكتب بينما كنت أدرس للامتحان الذي يؤهلني لأن أمارس المهنة.

وبعد اجتيازي الامتحان التحقت كمحام بمكتب إيتش. إم. باسنر الذي كان ممثلا للأفارقة في مجلس الشيوخ وعضوا قديما في الحزب

الشيوعى ومؤيدا قويا لحقوق الأفارقة وكان يشجع عملى السياسى طالما أقوم بعملى فى المكتب. وبعد الخبرة فى الدفاع عن الأفارقة التى اكتسبتها فى مكتبه شعرت أنه بالإمكان أن أستقل بعملى.

وكان أوليڤر تامبو يعمل فى مكتب آخر وكنت أزوره كثيرا فى فترة الغداء وكنا نناقش شئون المؤتمر. كنت قد عرفت أوليڤر فى فورت هير وعرفت ذكاءه ومهارته فى المناظرات وأسلوبه المنطقى الهادئ. وكانت موضوعيته الهادئة توازن من ردود فعلى العاطفية، كما كان جارا لى فى ترانسكى فكان من الطبيعى أن أطلب منه أن يشاركنى وبعد شهور فتحنا مكتبنا المشترك فى قلب مدينة جوهانسبرج.

كانت اللافتة تحمل اسم «مانديللا وتامبو» وكان المكتب يقع فى مبنى صغير مقابل تماثيل العدالة التى تقع أمام المحكمة فى وسط جوهانسبرج وكان المبنى يمتلكه هنود وكان أيضا أحد الأماكن القليلة التى يمكن أن يستأجر فيها إفريقى مكتبا فى المدينة. ومن البداية حاصرنا العملاء، فلم نكن فقط المحاميين الإفريقيين الوحيدين فى المدينة ولكننا كنا مكتب المحاماة الإفريقى الوحيد فكنا الاختيار والملجأ للأفارقة ولكى نصل إلى مكتبنا فى الصباح كان علينا أن نشق طريقنا بين الناس المزدحمين فى الممرات وعلى درجات السلم وفى غرفة الانتظار الصغيرة.

وقد كان الأفارقة فى أمس الحاجة للمساعدة القانونية فقد كانت جريمة أن تدخل من باب مخصص للبيض وجريمة أن تركب حافلة

للبيض وجريمة أن تستعمل صنبور مياه للبيض وجريمة أن تسير على شاطئ مخصص للبيض وجريمة أن تتواجد فى الشارع بعد الحادية عشرة مساء وجريمة ألا تحمل دفترة تصاريح وجريمة أن يكون هناك توقيع خطأ فى الدفتر وجريمة أن تكون عاطلا وجريمة أن تصل فى المكان الخطأ وجريمة أن تسكن فى المكان الخطأ وجريمة ألا يكون لك سكن. كنا نستمع يوميا ونقابل آلافا من الإهانات التى يلقاها الأفارقة فى حياتهم.

وسريعا ما عرفت ما يعنى «مانديللا وتامبو» بالنسبة للأفارقة العاديين فقد كان مكانا يجدون فيه آذانا مصغية متعاطفة وحلفاء أكفاء، ومكانا لا يطردون منه ومكانا يشعرون فيه بالفخر لأن من يمثلهم له نفس لون بشرتهم. كان ذلك هو السبب الذى من أجله أصبحت محاميا وكان عملى كثيرا ما يجعلنى أشعر بأن اختيارى صحيح.

وكثيرا ما كنا نواجه التحامل فى المحكمة نفسها فغالبا ما كان الشهود البيض يرفضون إجابة أسئلة محام أسود وبدلا من أن يؤخذ ذلك على أنه تحد للمحكمة كان القاضى يوجه إليهم الأسئلة بنفسه. هذا علاوة على الكثير من الإهانات التى كانت تصدر من رجال الشرطة ومن بعض القضاة.

وفيما بعد اكتشفت أنا وأوليفر أنه طبقا لقرار المناطق المدنية فإنه لا يحق لنا أن نحتل مكان عمل فى المدينة بدون تصريح وزارى. وتقدمنا بطلب رُفِض، ومنحنا تصريحا مؤقتا سرعان ما انتهى ثم طلبت

السلطات منا أن ننقل مقر عملنا إلى منطقة إفريقية لا يستطيع عملاؤنا الوصول إليها. ولكننا واصلنا عملنا فى المقر ونحن مهددون بالطرد فى أى وقت.

وعالجنا قضايا عديدة تتعلق بتصنيف المواطنين حسب لون بشرتهم الأمر الذى كان يحدث بعشوائية شديدة، وقضايا تتعلق بوحشية الشرطة رغم أن نجاحنا فى هذا النوع من القضايا كان محدودا إذ كان من الصعب تقديم البرهان على اعتداءات الشرطة إذ إنهم كانوا يتعمدون حجز السجين لمدة طويلة كافية لالتئام جروحه. أما تقرير الطبيب الشرعى بشأن أسباب الوفاة فكان ينص على أن الوفاة نتيجة لأسباب متعددة.

-١٧-

على بعد أربعة أميال من جوهانسبرج وعلى واجهة مرتفع صخرى يطل على المدينة، تقع منطقة صوفيا تاون الإفريقية. وكانت صوفيا تاون جزءا مما كان يُعرف بمناطق الإسكان الغربى وكانت أصلا معدة للبيض وقام أحد المستثمرين الغربيين فعلا ببناء عدة منازل لاستخدام البيض ولكن بسبب ملقف القمامة الخاص بالبلدية الذى كان يتواجد فى المنطقة اختار البيض أماكن أخرى. وبعد تردد بدأ المستثمر، فى بيع المنازل للأفارقة. وكانت صوفيا تاون إحدى الأماكن القليلة فى الترانسفال التى كان يُسمح فيها للأفارقة بشراء أكشاك، وقطع أرض قبل قرار عام ١٩٢٣ بشأن المناطق المدنية. وكانت المنازل التى بنيت

فى ذلك الحين من الحجر الأبيض أو الطوب الأحمر ماتزال هناك بشرفاتها المغطاة بالصاج الأحمر تضفى على المدينة لفحة من جمال العالم القديم. وبنمو الصناعة فى جوهانسبرج أصبحت المنطقة مقرا لقوة العمالة الإفريقية المتزايدة فقد كانت قريبة من المدينة وكان العمال يسكنون أكواخا يقيمونها فى أحواش المنازل القديمة وكان الكوخ يزدحم عادة بعدة أسر وكان كل أربعين شخصا يقتسمون صنبوراً للمياه. كانت المنطقة بوهيمية ومحافظة، صاخبة ورزينة. فكانت مقر سكن د. إكسوما وأفراد عصابات اتخذوا لأنفسهم أسماء ممثلين أمريكيين.

وفى جوهانسبرج كانت خطة إخلاء المناطق الغربية تعنى إخلاء صوفيا تاون ومارتنيل ونيوكلير؛ أى عدد من السكان يتراوح ما بين ٦٠,٠٠٠، ١٠٠,٠٠٠. وقامت حكومة القوميين بشراء قطعة أرض تبعد ١٢ ميلا عن المدينة عام ١٩٥٣ وكان من المفروض إعادة توطين السكان هناك تحت سبعة تقسيمات إثنية.

وكانت الحكومة قد اتخذت قرارها تحت ضغط من مؤيديها فى المناطق المحيطة. كما أنها أرادت إحكام قبضتها على تحركات جميع الأفارقة فى جميع المناطق. فرغم سريان قانون التصاريح إلا أن الإنسان لا يحتاج تصريحا فى منطقة يمتلك فيها سكنا فى حين كان التصريح ملزما فى الأماكن التى تتملكها البلدية. لذلك قررت الحكومة نقل الأفارقة من صوفيا تاون إلى منطقة كان لم يتم إقامة المنازل فيها بعد. وكان إخلاء صوفيا تاون هو أول اختبار لقوة المؤتمر الذى لم تبدأ

حملته ضد القرار إلا فى منتصف عام ١٩٥٣ حيث بدأ حملة تعبئة لحث الناس على المقاومة. وعُقِد اجتماع فى دار سينما أودين لمناقشة وسائل المعارضة حضره أكثر من ١٢٠٠ شخص لم يبد على أحدهم الخوف من وجود عشرات من رجال الشرطة المسلحين.

وفى الداخل أخذ رجال الشرطة المسلحون يستثيرون الناس ويوجهون إليهم الإهانات. وبينما كنت وبعض القادة نجلس على المسرح دخل رجال شرطة آخرون واعتقلوا يوسف كاتشاليا الذى كان قد بدأ حديثه وروبرت ريشا وأحمد كاثرادا. ثار الجمع وخِفْت من حدوث عنف فقفزت إلى المنصة وأخذت فى إنشاد إحدى أغانى الاحتجاج ولحق بى الجميع.

وبدأ المؤتمر فى عقد اجتماعات أسبوعية فى ميدان فى قلب صوفيا تاون لتعبئة المعارضين للإخلاء وكانت اجتماعات نابضة تخللتها الأناشيد. وكان مقرراً لى أن أتحدث للجموع يوم الأحد التالى لحادثة سينما أودين. وكانت الجماهير ليلتها متحمسة وانتقل حماسها إلىَّ. وكانت تحيطنا الشرطة المسلحة بالبنادق، والأقلام لكتابة أسماء المتحدثين وكلماتهم كالعادة. وبدأتُ فى الحديث عن أعمال القمع المتزايد من جانب الحكومة عقب حملة التحدى. ثم اندفعت فى الكلام وقد تملكنى الغضب وكنت أحاول إثارة الجماهير فهاجمت الحكومة ثم تجاوزت الحدود وأعلنت أن المقاومة السلمية قد انتهت وأن عدم العنف غير مجد لقلب نظام حكم الأقلية. وفى النهاية قلتُ إن العنف هو الطريقة الوحيدة لإنهاء الأبارتايد. واهتاجت الجماهير وخاصة الشباب

وانطلقتُ أغنى «هناك أعداء، فلنحمل السلاح ونهاجمهم» ولحقت بى الجماهير وفى النهاية أشرت إلى الشرطة قائلا «هؤلاء هم أعداؤنا» وأخذت الجماهير تصيح وهى تومئ بعدوانية تجاه الشرطة. وبدا القلق على الشرطة. وصاح أحدهم «مانديللا، ستدفع ثمن هذا».

ولم تكن كلماتى قد أتت من فراغ. فإن الحكومة والشرطة كانت قد اتخذت من التدابير لمنع أى اجتماع سلمى وتجريمه وكانت الأمور تسير تجاه حكم بوليسى. وبدأت أرى أن الاحتجاجات القانونية ستصبح مستحيلة فى الوقت القريب. فإن المقاومة السلمية تكون فعالة إذا تمسك من تقاومهم بنفس القوانين التى تتمسك بها أنت وإلا فلا فاعلية لها. وبالنسبة لى كان عدم العنف استراتيجية فقط ولم يكن مبدأ أخلاقيات فلا يوجد خير أخلاقى فى استعمال سلاح غير فعال. ووجهت إلىَّ اللجنة التنفيذية اللوم مشيرة إلى أن السياسة العفوية التى دعوت إليها ليست فقط سابقة لأوانها لكنها خطرة إذ إن مثل تلك الكلمات قد تُحرض العدو على الإتيان على المنظمة تماما. وقبلتُ اللوم وبعد ذلك كنت أدافع عن سياسة عدم العنف رغم علمى أنها لم تكن تمثل الاستجابة المطلوبة.

وكان وولتر سيسولو قد أخبرنى فى الوقت الذى ألقيت فيه خطابى فى صوفيا تاون أنه قد دعى لحضور المهرجان العالمى للطلبة والشباب من أجل السلام والصداقة فى بوخارست. ولم يكن الوقت يسمح لى باستشارة اللجنة التنفيذية وكنت حريصا على أن يذهب وطلب منى مساعدته فى استخراج شهادة خطية من القسم تنص على هويته

وجنسيته فإن الحكومة لم تكن أبدا لتمنحه جواز سفر. وسافرت المجموعة التي كان يرأسها وولتر سيسولو ودوما نوكوى على الخطوط الوحيدة التى قبلت تلك الشهادة وهى خطوط العال الإسرائيلية.

وكان وولتر يشاركنى رأيي بشأن اتجاه الحكومة وعدم جدوى المقاومة السلمية لذا طلبت منه قبل سفره ترتيب أمر زيارة للصين لمناقشة إمكان إمدادنا بالسلاح. ورغم التوتر الذى سببه سفر وولتر داخل اللجنة المركزية وعدم اطمئنان البعض إلى دوافعه فقد أمكن له أن يصل إلى الصين حيث استقبلته القيادات بالترحيب لكنهم أظهروا حذرا حينما طرق فكرتنا عن الكفاح المسلح وحذره القادة من خطورة المهمة وعاد وولتر بالمساندة وبدون أسلحة.

-١٨-

وفى ٣ سبتمبر ذهبت إلى ولاية أورانج الحرة فى قضية بعد رفع الحظر عنى. و كنت أشعر بأمان زائف وأنا أدخل قاعة المحكمة ذلك الصباح. وهناك فوجئت بمجموعة من رجال الشرطة فى انتظارى وأبلغونى أمرا بموجب قرار حظر الشيوعية أن علىَّ أن أستقيل من المؤتمر وحُددت إقامتى فى جوهانسبرج ومنعت من حضور أى اجتماعات أو تجمعات لمدة عامين.

كنت فى الخامسة والثلاثين وأنهى قرار الحظر ذلك عِقْدا من الاشتغال مع المؤتمر، وكانت تلك السنوات هى سنوات يقظتى ونموى والتزامى التدريجى بالمعركة التى أصبحت حياتى. ومنذ ذلك الوقت فقد كان على

جميع أفعالى وخططى المتعلقة بالمؤتمر وبالمعركة أن تصبح سرية وغير قانونية. وكان علىَّ العودة فورا إلى جوهانسبرج بمجرد الانتهاء من تلك الأنشطة.

وهكذا أزاحنى الحظر من بؤرة المعركة إلى الهوامش. ورغم أنه كانت تتم استشارتى وكنت قادرا على تحريك مسار الأحداث فقد كنت أفعل ذلك عن بعد وعندما يطلب منى. وكان علىّ إطاعة القوانين وإلا سجنت بتهمة خرق الحظر وكان هذا لن يفيدنى أو يفيد المؤتمر. وحينما أُجبرت على تقديم استقالتى من المؤتمر كان عليهم أن يجدوا من يحل محلى.

-١٩-

حينما تسلمت قرار الحظر كان مؤتمر الترانسفال قد حدد انعقاده بعد شهر وكنت قد أعددت خطابى الرئاسى الذى قرئ على المؤتمر. وفى ذلك الخطاب الذى عرف فيما بعد بخطاب «صعوبة المسيرة إلى الحرية» وهى مقولة مقتطفة من جواهر لال نهرو قلت إن الجماهير يجب أن تستعد لأشكال جديدة من المقاومة وإن المناهج القديمة تعد الآن نوعا من الانتحار.

وفى إبريل عام ١٩٥٤ تقدمت الجمعية القانونية للترانسفال بطلب للمحكمة العليا بشطب اسمى من جدول المحامين المعتمدين باعتبار أن أنشطتى السياسية تصرف غير شريف وغير مهنى. حدث ذلك فى وقت كان مكتب «مانديلا وتامبو» يلقى نجاحا كبيرا وكنت أذهب إلى

المحكمة عشرات المرات أسبوعيا.

وبمجرد أن انتشر الخبر تلقيت عروضا بالمساعدة والمساندة حتى من محامين أفريكان وكان كثير منهم من مؤيدى الحزب القومى لكنهم اعتقدوا أن الطلب غير عادل. وقد دافع عن قضيتى بمهارة وولتر بولاك رئيس مجلس المحامين لجوهانسبرج ولكن آخرين نصحونى أن يدافع عنى شخص غير مرتبط بالمعركة فوكلت أحد أبرز المحامين فى جوهانسبرج ودافع عنى الاثنان بدون مقابل. بُنِى الدفاع على أساس أن الطلب يُعتبر مهانة لفكرة العدالة لأن من حقى أن أدافع عن معتقداتى السياسية وهذا حق للجميع فى دولة يحكم فيها القانون ويُطبق. وارتكز بولاك فى دفاعه على سابقة شخص كان معاونا للنازيين فى الحرب العالمية وتم التحفظ عليه وبعد ذلك سمح له بمزاولة المحاماة على أساس أنه لا يجوز حظر إنسان على أساس معتقداته السياسية.

وكان القاضى نزيها فرفض الطلب وأمر جمعية القانونيين بدفع النفقات.

-٢٠-

استمرت الحملة ضد إخلاء صوفيا تاون واستمرت الاجتماعات والخطب والاحتجاجات بقيادة د. إكسوما. وقد أدرنا نحن الحملة تحت شعار «على جثثنا» وحاولت أنا وأوليفر كمحامين للمطرودين أن نثبت عدم قانونية الإجراءات ولكن كان ذلك إجراء مؤقتا فلم تكن الحكومة

لتأخذ به. وعُقِد اجتماع جماهيرى فى ميدان الحرية من ١٠.٠٠٠ نسمة ليستمعوا للرئيس لوثولى. لكن قبل وصوله أُبلغ بقرار حظر أعاده إلى ناتال.

وكان الشباب من أعضاء المؤتمر قد أخذوا شعارنا حرفيا وكانوا مستعدين للعمل الثورى ضد الشرطة. لكن حينما خاطبتهم القيادات وأنا منهم مطالبينهم بالتريث شعروا بالغضب والإحباط لكننا كنا نعلم أن العنف ستكون له نتائج مأساوية ولم نكن بعد مستعدين للقتال ضد عدو مستعد.

وفى ٩ فبراير أحاط أربعة آلاف من رجال الشرطة والجيش بالمنطقة بينما أخذ العمال فى إزالة المنازل الخالية وأخذت شاحنات الحكومة فى نقل العائلات إلى المنطقة الجديدة. وبعد أسابيع قليلة انهارت المقاومة وكان قرار الحظر قد صدر لمعظم قياداتنا المحلية واعتقل كثير منهم ولم تكن نهاية صوفيا تاون على أصوات القنابل بل على أصوات الشاحنات والمعاول.

لقد ارتكبنا كثيرا من الأخطاء فى حملة إخلاء صوفيا تاون وتعلمنا دروسا عديدة. فقد كان شعار «على جثثنا» شعارا ديناميكيا لكنه كان معوقا وليس مساعدا. فالشعار هو حلقة وصل بين المنظمة والجماهير. وقد لقى شعارنا استجابة على مستوى خيال الجماهير ولكنهم اعتقدوا أننا سوف نقاتل حتى الموت لنقاوم الإخلاء. ولم يكن المؤتمر بعد مستعدا لذلك. كما أننا لم نقدم للجماهير بديلا عن الانتقال إلى المنطقة

الجديدة. فضعفت مقاومتهم وتدفقوا على المنطقة الجديدة بإرادتهم وانتقدوا المؤتمر بواسطة عدد من الأعضاء الذين اتهموا القيادة بحماية مصالح الملاك على حساب المستأجرين.

ولكن الدرس الذى استنتجته أنا هو أن خيارنا الوحيد هو الكفاح المسلح.

إن التعليم هو آلة التطور. ومنذ بداية القرن كان الأفارقة مدينين بتعليمهم للكنائس الأجنبية والإرساليات التى أنشأت المدارس. وتحت حكم حزب المتحدين كانت مناهج المدارس للسود والبيض واحدة تقريبا .

لكن حتى قبل وصول القوميين إلى الحكم كان الإنفاق المتفاوت على التعليم برهانا على العنصرية. فقد كان ينفق على تعليم الأبيض ستة أضعاف ما ينفق على تعليم الإفريقى. ولم يكن التعليم إجباريا للأفارقة وكان مجانيا فقط فى المرحلة الابتدائية. وكانت نسبة من يحضر المدرسة من الأطفال الأفارقة هى النصف. وكان عدد ضئيل جدا يكمل المرحلة الثانوية.

وحتى هذا القدر لم يكن يروق للقوميين. فقد كان الأفريكانى يعتقد أن تعليم الأفارقة إهدار لأنهم بطبيعتهم جهلة وكسالى.

وفى عام ١٩٥٣ أقر البرلمان قانون تعليم البانتو الذى قُصِد بمقتضاه أن يضاف طابع الأبارتايد إلى التعليم، ونُقل أمر إدارة تعليم الأفارقة من هيئة التعليم إلى هيئة شئون الوطنيين وهى هيئة تحظى بالكراهية

العميقة من الأفارقة. وخُيرت الكنائس والإرساليات بين تسليم مدارسها للهيئة أو تقليص ما يستلمونه من مساعدات.

وقد شرح د. هنريك ڤيرويرد، وزير تعليم البانتو، السياسة الجديدة قائلا إن التعليم يجب أن يُعلّم الناس ما يناسب فرصهم فى الحياة. أى أن الأفارقة باختصار يجب أن يتدربوا على الأعمال الوضيعة لكى تستمر سيادة الرجل الأبيض.

أما بالنسبة للمؤتمر فقد رأى أن القانون وسيلة شريرة قصد بها إعاقة نمو الحضارة الإفريقية ككل وأن تلك السياسة إن نفذت فستصيب معركة التحرير بانتكاسه.

وقد أثار القانون وشرح ڤيرويرد غير المهذب له غضب السود والبيض وباستثناء الكنيسة الهولندية عارضت الإرسالية اللوثرية وجميع الكنائس الخطوات الجديدة ولكن المعارضة لم تتحد لإدانة القانون ولم تقاومه.

وأغلقت بعض الإرساليات والكنائس مدارسها بينما سلمت الأخريات مدارسها للحكومة ولم تستمر سوى كنائس ثلاث فى إدارة مدارسها دون مساعدة الحكومة.

وبدأت مناقشة المؤتمر لخطط مقاطعة المدارس وكانت مناقشاتنا سرية. ودارت حول خيارين: إما مظاهرة احتجاج مؤقتة أو مقاطعة دائمة للمدارس لإفساد القانون قبل أن يشتد عوده. ورأيت أن المقاطعة الدائمة تتطلب آليات وإمكانيات لا نمتلكها. وعلى ذلك فقد طالبت أنا

وآخرون بمقاطعة مدتها أسبوع. وقررت اللجنة أن تبدأ المقاطعة ولمدة أسبوع يوم ١ إبريل عام ١٩٥٥. لكن المنوبيين فى دربان رفضوا التوصية وصوتوا فى صالح مقاطعة غير محددة.

وبدأ الإضراب فى أول إبريل وكانت نتائجه متفاوتة فكان غالبا مشتتا وغير منظم. وفى بعض الأماكن بدأت مسيرات قبل الفجر وقذفت النساء المدارس بالحجارة وقمن بإخراج الأطفال الذين ذهبوا إلى مدارسهم وقام البعض بإدارة مدارس للأطفال الذين اشتركوا فى المقاطعة فأصدرت الحكومة قانونا يعاقب بالغرامة والحبس كل من يقدم تعليما بدون إذن. وعملت تلك المدارس فى السر ثم تضاءلت وواجه الآباء الاختيار بين تعليم دونى أو لا تعليم فاختاروا الأول.

ورغم أن الحملة فشلت فى إلغاء القانون أجبر الاحتجاج الحكومة على تعديل القانون ووضع مناهج أفضل. لكن نتائج القانون طاردت الحكومة بطرق لم تتوقعها فقد كان تعليم البانتو هو المسئول فى السبعينيات عن تخريج جيل من الشباب الأسود الأكثر غضبا وأكثر ثورة.

وبعد شهور عديدة من تولى الرئيس لوثولى رئاسة المؤتمر عاد البروفسور ماتيوس إلى جنوب إفريقيا بعد عام فى الولايات المتحدة ودعا فى الاجتماع السنوى للمؤتمر إلى عقد اجتماع مؤتمر وطنى يمثل جميع فئات الشعب فى البلاد دون تمييز للون أو عرق لوضع دستور للحرية لجنوب إفريقيا الديمقراطية فى المستقبل.

وقُبل الاقتراح وشُكل مجلس لمؤتمر الشعب برئاسة الرئيس لوثولى وأمانة سر سيسولو وكاتشيا. واتُّفق على أن يكون الميثاق وثيقة مصدرها الشعب نفسه وقد أوكل إلى قادة المؤتمر عبر البلاد أن يبحثوا عن الأفكار كتابة من كل شخص فى مناطقهم.

وتم تشكيل المجلس القومى للعمل من قيادات المؤتمر والمنظمات الأخرى والذى دعا كل المنظمات المشاركة وأتباعها أن يرسلوا اقتراحاتهم للميثاق. وتم طبع تعميمات ومنشورات أُرسِلت إلى كل أنحاء البلاد تدعو الأفراد أن يتقدموا بمقترحاتهم. واستثارت الدعوة مخيلات الناس. ووصلت مقترحات من النوادى الثقافية والجماعات الكنسية وجمعيات دافعى الضرائب والمنظمات النسائية والمدارس وأفرع الاتحادات التجارية. وكان مما يثير فى النفس التواضع رؤية مقترحات العامة التى تفوق مقترحات القادة جرأة وتقدمية وكان أكثر الطلبات إلحاحاً هو «صوتٌ لكل فرد».

وقد ساهمت أفرع المؤتمر فى كتابة مسودات الميثاق. ونسخت مسودة توافقية من كل تلك المقترحات وتم إرسالها للأقاليم للتعليق. أما الميثاق نفسه فقد صاغته لجنة صغيرة من المجلس القومى للعمل وراجعته اللجنة التنفيذية للمؤتمر.

وأُعدت الصيغة النهائية وتقرر أن يعرض الميثاق على مجلس الشعب وأن تخضع كل عناصره لموافقة المندوبين.

تم عقد مجلس الشعب فى قرية متعددة الأعراق وحضره ثلاثة آلاف

مندوب ليوافقوا على الصيغة النهائية وكانت الغالبية العظمى من السود لكن كان هناك ثلاثمائة هندى، ومائتا ملون ومائة من البيض.

وذهبت أنا و وولتر وكان علينا قرار حظر فاخترنا مكانا فى الطرف يمكن منه المراقبة. كان الجميع يرتدون ما يدل على انتماءاتهم وكان هناك الشباب والشيوخ والرجال والنساء. وكان رجال الشرطة البيض والأفارقة وأعضاء من الفرع الخاص يطوفون بالمكان يلتقطون الصور ويكتبون الملاحظات.

وانبعثت عشرات الأغانى وألقيت عشرات الخطب وقدمت المأكولات وفى عصر اليوم الأول قرئ الميثاق فقرة فقرة بالإنجليزية والإكسهوسا والسيسوثو وبعد كل فقرة كانت الحشود تصيح موافقة وتطلق شعار «إفريقيا».

وكان اليوم الثانى مثل اليوم الأول. وفى الساعة الثالثة والنصف حينما حان وقت أخذ الأصوات على الموافقة النهائية اجتاح لواء من الشرطة والبوليس السرى المنصة شاهرين أسلحتهم وأخذ أحدهم مكبر الصوت وأعلن باللغة الأفريكانية أن هناك شكا فى الخيانة وأنه من غير المسموح لأحد أن يغادر المكان دون إذن الشرطة. وأخذوا يدفعون الناس ويصادرون الوثائق والصور واللافتات وأجاب المحتشدون بالأغانى الوطنية وبعد ذلك سمح للمندوبين بمغادرة المكان بعد سؤالهم وتسجيل أسمائهم وتسللت أنا عائدا لجوهانسبرج لحضور الاجتماع الطارئ الذى تمت الدعوة إليه وأنا أعلم أن تلك الغارة هى بداية

سياسة جديدة للحكومة.

ورغم فض مجلس الشعب إلا أن الميثاق ذاته أصبح علامة مضيئة لمعركة التحرير وكان كغيره من الوثائق السياسية الباقية كإعلان الاستقلال الأمريكى وإعلان حقوق الإنسان للثورة الفرنسية، والمانيفستو الشيوعى خليطا من الأهداف العملية واللغة الشعرية. وكان يمجد إلغاء التمييز العنصرى والحقوق المتساوية للجميع ويرحب بكل من يعتنقون الحرية ليسهموا فى صنع جنوب إفريقيا ديموقراطية لاعرقية وكانت المبادئ الأساسية للميثاق هى الحكم للشعب -حقوق متساوية لجميع المجموعات القومية- مشاركة كل الشعب فى ثروة البلاد- توزيع الأرض بين هؤلاء الذين يفلحونها.

وعارض بعض أعضاء المؤتمر وخاصة الأفارقة القوميين الذين كانوا ضد الشيوعية وضد البيض الميثاق على أساس أنه خطة لإيجاد جنوب إفريقيا مختلفة عما نادى به المؤتمر طوال تاريخه وادّعوا أن الميثاق يميل إلى نظام اشتراكى.

وفى ١٥ يونيو ١٩٥٦ كُتب فى صحيفة «لبراشن» أن الميثاق يقر المشاريع الفردية وأنه يضمن للأفارقة الفرصة لكى يتملكوا مشاريعهم التجارية ومنازلهم وأراضيهم باسمهم وهكذا يحققون النجاح كرأسماليين ومضاربين. أما الفقرة الخاصة بتأميم المناجم والبنوك والصناعات الاحتكارية فإنها خطوة لابد أن تؤخذ لئلا يتملك رجال الأعمال البيض الاقتصاد ويديرونه.

وكان الميثاق وثيقة ثورية لأن المتغيرات المتصورة لا يمكن تحقيقها بدون تغيير جذرى للبنية الاقتصادية والسياسية. ولم يقصد بالوثيقة أن تكون رأسمالية أو اشتراكية لكن تشكيلة متآلفة من مطالب الشعب لإنهاء الاضطهاد.

-٢١-

وفى أوائل سبتمبر عام ١٩٥٥ انتهى الحظر المفروض علىَّ وكنت لم أتمتع بإجازة منذ عام ١٩٤٨ وشعرت بشوق لزيارة الريف ورؤية أسرتى والاجتماع بسباتا وداليونجا لأن المؤتمر كان يرغب فى أن أناقشهم فى بعض الأمور وعلى ذلك قمت بإجازة عمل.

وعند وصولى إلى أومتاتا اجتاحنى شعور بالألفة والذكريات المحببة وثارت مشاعرى بعنف للقاء والدتى وبيتنا المتواضع وأصدقاء صباى. لكن رحلتى لترانسكى كان لها هدف آخر فقد تزامن وصولى مع عقد اجتماع لجنة خاصة تم تعيينها لتشرف على نقل مجلس السلطة المحلية القبلية فى ترانسكى إلى سلطات البانتو.

وكان المجلس يتكون من ١٠٨ عضو ربعهم من البيض وثلاثة أرباعهم من الأفارقة وكانت مهمته استشارية للحكومة فيما يختص بالتشريعات التى تؤثر فى الأفارقة وتنظيم الشئون المحلية كالضرائب والطرق. ورغم أن صفة المجلس كانت استشارية فقد هدف قانون البانتو الجديد إلى إحلال نظام قمعى إقطاعى محله يستند على الأسس الوراثية والفروق القبلية لإذكاء التنافس القبلى. ورأى المؤتمر أن قبول

القانون الجديد هو إذعان للحكومة. وفى ليلة وصولى عقدت اجتماعات مع عدد من المستشارين الترنسكايين وبابن أخى الذى كنت أدعوه داليونجا وكان يحاول إقناع المجلس بقبول قانون البانتو لأن ذلك سيزيد من قوته.

وذهبت إلى قريتى قونو وأيقظت والدتى التى بدت وكأنما رأت شبحا ورغم سعادتى بالعودة فقد شعرت بالذنب من مظهر والدتى وهى تعيش وحيدة فقيرة. حاولت إقناعها بالذهاب معى إلى جوهانسبرج لكنها أقسمت ألا تترك الريف الذى أحبته. ثم قمت بزيارة مفهيقزوينى وقضيت أسبوعين أنتقل بين القريتين زرت خلالهما أمى الثانية أرملة الحاكم وأختى ميبل وتناولت نفس الطعام الذى كنت أتناوله وأنا صبى وسرت فى نفس الحقول وحملقت فى نفس السماء بالنهار ونفس النجوم بالليل. فإن من المهم ألا يفقد المقاتل من أجل الحرية الصلة بجذوره وأحيت هذه الزيارة إحساسى بالمكان الذى ترعرعت فيه.

وبدأت مناقشة قانون سلطات البانتو مع داليونجا فى حضور اثنين من مؤيدى المؤتمر وقلت إن القانون غير عملى لأن كثيرا من الأفارقة قد هجروا مواطنهم إلى المدينة وأضفتُ أن سياسة الحكومة تهدف إلى وضع الأفارقة داخل سياجات إثنية لأنها تخشى توحدهم. وقلت إن الشعب يطلب الديمقراطية وقيادة سياسة مبنية على الجدارة وليس على النسب. وكانت إجابة داليونجا أنه يحاول استرداد مكانة أسرته الملكية التى سحقها البريطانيون وأكد حيوية النظام القبلى والقيادات التقليدية وأنه هو الآخر يريد جنوب إفريقيا حرة ولكنه يعتقد أن الهدف

يمكن تحقيقه أسرع وبسلام عن طريق سياسة الحكومة للتنمية المنفصلة وأن المؤتمر سيأتي بسفك الدماء والمرارة. ودامت المناقشة طوال الليل ولكن وجهات نظرنا لم تتقارب. ورغم استمرار صداقتنا فقد أصبحنا أعداء سياسيين.

قضيت أياما قليلة أخرى في قونو ثم قفلت راجعا. وفي بورت إليزابث التقيت بمهلابا وبارد وجوفان مبيكي المفكر الصحفي والسياسي النشيط والذي لعب دوراً في التخطيط لمجلس الشعب والذي سيصبح أيضا أحد القيادات في المنظمة.

وتوقفت في مدينة صغيرة على بعد مائة متر إلى الغرب من بورت إليزابث لألقي نظرة على محيطي وفي كل الاتجاهات كنت أرى غابات شديدة الكثافة ممتدة. ولم أفكر حينئذ في الخضرة لكن في أن هناك أماكن كثيرة يمكن لجيش من الفدائيين أن يعيش فيها ويتدرب دون أن يُكتشف.

توقفت في كيب تاون لمدة أسبوعين وعقدت عدة اجتماعات، وبينما كنت أسير في المدينة رأيت امرأة بيضاء تقرض بقايا عظم سمك. كانت فقيرة وعلى ما يبدو بدون مأوى وكانت صغيرة السن ولا تنقصها الجاذبية. كنت أعلم بوجود فقراء بيض في جنوب إفريقيا ولكن لم أكن قد رأيتهم وشعرت بالرغبة في أن أعطي تلك المرأة نقودا بينما أنا لا أعطي نقودا لمتسولين. وفي تلك اللحظة تبينت ما يفعله الأبارتايد بالإنسان فإن العذاب الذي يعانيه الأفارقة يوميا يبدو أمرا طبيعيا

بينما ساعني منظر وتعاطفت مع تلك المرأة البيضاء الموحلة.

وبينما كنت أستعد لمغادرة كيب تاون ذهبت إلى مكاتب صحيفة العهد الجديد لأرى أصدقاء قدامى وكانت الصحيفة يسارية وعلى علاقة حسنة بالمؤتمر. كان ذلك يوم ٢٧ سبتمبر وبينما كنت أصعد درجات السلم سمعت أصواتا غاضبة وصوت قطع أثاث تحرك من مكانها وعرفت أن رجال الشرطة يقومون بتفتيش المكتب وبعد ذلك علمت أنها لم تكن واقعة فردية ولكن الأوامر كانت قد صدرت في جميع أنحاء البلاد بضبط أي شئ يعتبر قرينة على الخيانة العظمى والفتنة والإخلال بقانون حظر الشيوعية وأن الشرطة قد قامت بتفتيش أكثر من خمسمائة فرد في منازلهم ومكاتبهم عبر البلاد وأنه قد تم تفتيش مكتبي ومنازل د.موروكا والبروفسور ماثيوس.

-٢٢-

وعند عودتي قدمت تقريرا عن رحلتي للجنة العاملة للمؤتمر. وكان شاغلنا هو ما إذا كانت تحالفات المؤتمر من القوة في الأقاليم بحيث تستطيع إيقاف مخططات الحكومة. فأخبرتهم أن شئون المؤتمر في ترانسكي ليست على قدر كبير من التنظيم. ثم تقدمت ببديل وهو أن يُسهم المؤتمر في البُنى الجديدة لسلطات البانتو كوسيلة لبقائه على صلة بالجماهير هناك وفي الوقت المناسب تصبح تلك المساهمات منصة تنطلق منها أفكارنا وسياستنا. وقوبل اقتراحي بالمعارضة الغاضبة.

ولم يلق تقريرى اهتماما كبيرا نظرا لوجود تقرير بخصوص ما عرف حينئذ بنظام البانتوستان وهو نظام من اختراع د.ڤيرويرد وكان يتلخص فى إنشاء محميات تكون سياجا إثنيا أو موَاطِن لكل الأفارقة. وكانت الفكرة هى الاحتفاظ بالوضع كما هو عليه حيث يمتلك ثلاثة ملايين من البيض ٨٧٪ من الأرض وتخصص نسبة الـ١٣٪ الباقية لثمانية ملايين إفريقى. وكان الموضوع الرئيسى للتقرير هو رفضه فكرة اندماج الأعراق المختلفة مع إحلال تنمية منفصلة لكل منطقة وكان هدف الحكومة من إيجاد نظام البانتوستانات هو الإبقاء على ترانسكى والمناطق الإفريقية الأخرى مستودعات للعمالة الإفريقية الرخيصة للصناعات البيضاء. أما الهدف الآخر غير المعلن فهو خلق طبقة وسطى إفريقية للحد من جاذبية المؤتمر والنضال من أجل الحرية.

وقد أدان المؤتمر التقرير رغم بعض توصياته الليبرالية فكما قلت لداليونجا إن التنمية المنفصلة هى حل زائف لمشكلة لا يعرف البيض كيف يتحكمون فيها. وفى النهاية وافقت الحكومة على التقرير ولكنها رفضت بعض توصياته التى رأت أنها تقدمية.

وفى مارس عام ١٩٥٦ صدر قرار الحظر علىَّ للمرة الثالثة وحُددت إقامتى فى جوهانسبرج لمدة خمس سنوات ومُنِعت من حضور أى اجتماعات. لكن هذه المرة تغير موقفى من الحظر وقررت ألا أسمح لعدوى أن يقرر مدى نشاطاتى السياسية وصلتى بالمعركة وقررت أيضا ألا أُنصّب نفسى سجانا على نفسى.■



5

الجزء الخامس

الخيانة

-٢٣-

فى فجر الخامس من ديسمبر عام ١٩٥٦ أيقظنى طرق على الباب وعرفت فورا أنها الشرطة ووجدت الكونستابل روسو الذى كان معروفا بالمنطقة ومعه رجلا شرطة وأبرز أمرا بالتفتيش وبدأ ثلاثتهم فى تمشيط المنزل واستيقظ الأطفال ونظرت إليهم آمرا إياهم بالصمت. وبعد ذلك أرانى أمر القبض علىّ الذى كان مكتوبا عليه «الخيانة العظمى». واصطحبنى روسو بالسيارة وكان معه أمر بتفتيش مكتبى واستمر تفتيشه لمدة خمس وأربعين دقيقة ثم اصطحبنى إلى سجن جوهانسبرج وكان هناك عدد من الزملاء الذين قد ألقى القبض عليهم وتم إحضار أصدقاء ورفاق آخرين على مدى الساعات التالية. وتمكن أحدهم من تهريب العدد المسائى من صحيفة ستار وعلمنا من العناوين الرئيسية أن الحملة شملت جميع أنحاء البلاد وأن القادة الكبار لمجلس التحالف تم اعتقالهم بتهمة الخيانة العظمى والتآمر لإسقاط الدولة ومن بينهم لوثولى ونيكر وسبتمبر وليليان نجويى وبايت وبيليڤيلد الذين تم نقلهم بطائرة حربية إلى جوهانسبرج وبلغ مجموع من ألقى القبض عليهم مائة وخمسة وأربعين شخصا. وفى اليوم التالى ظهرنا فى المحكمة

ووجهت إلينا التهمة رسميا. وبعد أسبوع تم اعتقال وولتر سيسولو وأحد عشر آخرين فكان المجموع مائة وخمسين إفريقياً وواحدا وعشرين هنديا وثلاثة وعشرين من البيض وسبع ملونين.

وسرعان ما تم نقلنا إلى سجن جوهانسبرج الذى كان يلقب بالقلعة وأُخذنا إلى ساحة رباعية الأضلاع وأمرنا أن نخلع ملابسنا ونصطف على الحائط وأجبرنا على الوقوف هكذا لأكثر من ساعة.

وحينئذ دخل طبيب أبيض وسألنا إن كان أحد منا مريضا ولم يكن أحد يشكو من أى مرض. وهنا أمرنا أن نرتدى ملابسنا واصطحبنا إلى زنزانتين كبيرتين ليس بها أى أثاث وأعطى كل واحد منا بطانية خفيفة وكان بكل زنزانة مبولة أرضية غير مغطاة.

ومكثنا فى القلعة أسبوعين وكان يسمح لنا بالصحف وكانت موجة الغضب التى اجتاحت جنوب إفريقيا والاستنكار فى العالم مبعث رضا لنا. وتحولت زنزانتنا الموحدة إلى نوع من المؤتمر أجرينا فيه المناقشات ووضعنا برنامجا للنشاط اليومى شمل التمرينات الرياضية والمحاضرات والأغانى القومية والرقصات والسِّير البطولية.

وبعد أسبوعين أُصطُحِبنا إلى قاعة التدريب العسكرى فى جوهانسبرج لإجراء المساءلات المبدئية وتم نُقلنا فى عربات شرطة مصفحة يراقبها عدد من حافلات القوات مليئة بالجنود المسلحين وكانت جماهير مؤيدينا تسد الطريق وكان بإمكاننا سماعهم يحيون ويغنون وتحولت الرحلة إلى مسيرة نصر.

وداخل القاعة استقبلتنا جماهير أخرى من المؤيدين حتى بدت القاعة وكأنها اجتماع احتجاج صارخ أكثر منها قاعة محاكمة. وسرنا ونحن نرفع أصابعنا بإشارة تحية المؤتمر ونومئ إلى مؤيدينا واختلط المتهمون بالمراسلين الصحفيين والأصدقاء حتى بدا الأمر احتفالا وليس عقوبة.

كانت التهمة الموجهة إلينا جميعا من قبل الدولة هى الخيانة العظمى والتآمر لاستعمال العنف لقلب الحكومة الحالية وإحلال حكومة شيوعية محلها وكانت المدة التى شملها الاتهام هى من ١ أكتوبر عام ١٩٥٢ إلى ١٣ ديسمبر عام ١٩٥٦ أى أنها شملت حملة التحدى وإخلاء صوفيا تاون ومجلس الشعب. وكان تعريف الخيانة طبقاً لقانون جنوب إفريقيا هى أنها نوايا عدوانية للاحتلال والإضرار باستقلال الدولة وأمنها أو تعريضها للخطر. وكانت العقوبة هى الموت.

وكان القاضى المحقق الذى ينظر القضية هو إف. سى. ويسيل ونظرا لعدم وجود مكبرات صوت فى القاعة تأجلت الجلسة ونُقلنا مرة أخرى وسط هتاف الجماهير إلى القلعة.

وفى اليوم التالى كانت الجماهير أكثر عددا والشرطة أكثر تأهباً. وحينما وصلنا وجدنا أن الدولة قد قامت بتشييد قفص هائل من الأسلاك لنجلس فيه وتم اقتيادنا داخله وجلسنا على مقاعد طويلة محاطين بستة عشر جنديا مُسلّحا.

وكان مؤيدو المنظمة قد جمعوا فريق دفاع هائلاً من بينهم برام فيشر ونورمان وزنبرج وإسرائيل ميزلس وموريس فرانك. وقد بدأ فرانك باحتجاج عنيف ضد الدولة لامتهان كرامة موكليه ومعاملتهم كما لو كانوا حيوانات متوحشة وأضاف أنه إذا لم يتم إخراجنا من القفص فإن جميع المحامين سينسحبون وبعد مداولة قرر القاضى هدم القفص وبدأوا بنزع الواجهة.

واستمرت قراءة عريضة الاتهام يومين حاول المدعى العام أن يثبت للمحكمة أن المتهمين، وبمساعدة دولة أجنبية، كانوا يخططون لقلب نظام الحكم القائم باستعمال العنف وفرض حكم شيوعى على جنوب إفريقيا وبرهن على ذلك بمقتطفات من الميثاق. وأُفرج عنا فى اليوم الرابع بكفالة وكانت الكفالة مثلا آخر من أمثال الآبارتايد فكفالة الأبيض كانت ٢٥٠ جنيها، ١٠٠ للهندى، ٢٥ للإفريقى والملون. وتقدم الكثيرون من مختلف مناحى الحياة ليدفعوا الكفالة لكل المتهمين كرمز للمساندة وأصبحت تلك الظاهرة فيما بعد صندوق الدفاع عن المتهمين فى قضايا الخيانة وبدأه الأسقف ريفز ومجموعة أخرى وتم الإفراج عنا على أن نثبت حضورنا فى مقر الشرطة مرة كل أسبوع ومنعنا من حضور أية اجتماعات عامة. وتقرر نظر القضية فى يناير.

-٢٤-

بدأ زواجي من إيڤيلين في التداعي قبل المحاكمة. كانت قد بدأت تدرس التوليد في دربان وكان ذلك يبعدها أشهرا عن المنزل. وكان ذلك ممكنا في حينه حيث كانت أمي وأختي تقيمان معنا. ونجحت إيڤيلين وعادت إلى المنزل وكانت حاملا ثم ولدت لنا طفلة اسميناها مكازيوى تيُمنا بتلك التي فقدناها. وفي غضون السنة التالية بدأت تندمج في نشاط جمعية شهود چيهوڤا وتوزع منشوراتهم وحاولت أن تضمني لصفوفهم كبديل عن التزامي بالمعركة. ولكن انشغالي بالنضال قد أقلق إيڤيلين التي كانت تعتقد أن السياسة تمضية وقت للشباب وأنني يوما سأعود إلى ترانسكي وأمارس المحاماة هناك. وشرحت لها مليًّا مبينا أن السياسة هي عمل حياتي وجزء أساسي من كياني ولم تتقبل ذلك بينما حاولت هي إقناعي بقيمة الإيمان والتدين. وإن قلت لها إني أخدم الأمة كانت ترد قائلة: إن خدمة الله أهم من خدمة الأمة. ولم تكن بيننا أرض مشتركة وأصبح الزواج واهنا.

وتنازعنا أيضا حول قلوب الأطفال وعقولهم فقد كانت تريد لهم أن يكونوا متدينين وكنت أعتقد أنهم لابد أن يسيسوا وكانت تصطحبهم إلى الكنيسة وتعطيهم المنشورات ليوزعوها وكنت أناقش الأولاد في السياسة وكان ثيمبي عضوا في منظمة الرواد في المؤتمر.

وكان برنامجي في تلك الأيام قاسيا فكنت أترك المنزل في الصباح الباكر وأعود متأخرا في الليل إذ إني كنت أحضر اللقاءات في المساء

ولم تكن إيفيلين تفهم ذلك وأخذت تشك أن لى علاقات نسائية. وفى عام ١٩٥٥ وجهت لى إنذارا أن أترك المؤتمر وحاول ولتر وزوجته ألبرتينا التدخل وعندما حاول ولتر أن يحادثنى فى الأمر لم أعطه فرصة. وذات يوم اصطحب ولتر شقيق زوجتى إلى مكتبى وحاولنا مناقشة الأمر ولكن لم تفلح المحاولة.

وبعد القبض علينا فى ديسمبر حضرت إيفيلين لزيارتى مرة واحدة وعند خروجي من السجن وجدت أنها انتقلت من المنزل وأخذت الأولاد. وكانت خلافاتنا لا يمكن حسمها فلم أكن بمستطيع ترك المعركة ولم تكن هى لتقبل سوى أن أكرس نفسى لها وللأولاد. ولم أفقد أبدا إعجابى بها واحترامى لها ولكننا فى النهاية لم نستطع إنجاح الزواج.

-٢٥-

وفى التاسع من يناير عام ١٩٥٧ اجتمعنا مرة أخرى فى صالة التدريب وجاء دور الدفاع ليفند ادعاءات الدولة. وفى دفاعه قال بيرانجيه إن مبادئ الميثاق قد تكون متعارضة مع سياسة الدولة ولكنها تمثل معتقدات الغالبية العظمى فى العالم من مختلف الأعراق والألوان كما أنها معتقدات الغالبية العظمى فى جنوب إفريقيا. فقد كان خط دفاعنا ينصب على عدم إثبات براءتنا فقط بل أيضا على إثبات أن الحكومة تضطهدنا للقيام بأعمال مبررة أخلاقيا.

وبعد ذلك أخذت الدولة تستعرض أدلة الاتهام، الأمر الذى استغرق شهرا، وكانت الأدلة التي قدموها ضدنا تشمل أشياء تتراوح بين

إعلان حقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة وكتاب طهو روسى.
وخلال الفحص المبدئى الذى استمر لعدة شهور استمعنا إلى رجال الأمن ومن الشرطة السرية من البيض والسود يقرأون ما دونوه فى مذكراتهم المشوشة والملفقة عن اجتماعات المؤتمر.

وفى الشهر السابع للمحاكمة أكدت الدولة أنها ستقدم برهانا على التخطيط للعنف وكان شاهد الدولة الرئيسى هو سولومون نجوباسى وكان يقضى عقوبة عن جريمة احتيال. قال فى البدء إنه يحمل درجة الليسانس من فورت هير وأنه يعمل محاميا وأنه كان سكرتير المؤتمر فى بورت إليزابث وعضوا فى اللجنة المركزية وأنه كان حاضرا فى اجتماع اللجنة المركزية حينما اتُخذ قرار بسفر وولتر سيسولو ودافيد بوبابى إلى الاتحاد السوفييتى للحصول على أسلحة للقيام بثورة عنيفة فى جنوب إفريقيا.

وأضاف أشياء أخرى منها أننا كنا نخطط لأعمال شغب واغتيال جميع البيض فى ترانسكى كما تفعل الماوماو فى كينيا وقد سببت شهادة نجوباسى قلقا وهياجا فى المحكمة ولكن استجواب بيرانجيه له أثبت أنه كذاب ومجنون معا. فقد برهن على أنه ليس خريجا من الجامعة وليس عضوا فى المؤتمر وأنه قام بتزوير شهادة جامعية ومارس المحاماة بشكل غير قانونى هذا إلى جانب قضية الاحتيال المتهم فيها وأثبت أن شهادته كلها لا أساس لها من القيمة.

وقد قام جوسو لوقو أحد المتهمين وكان محاميا بالدفاع عن نفسه

وأثبت فى استجوابه لرجال البوليس السرى تلفيقهم التهم حيث إن بعضهم لا يعرف الإنجليزية إطلاقا ورغم ذلك ادعوا أنهم حضروا اجتماعات المؤتمر وسجلوا مذكرات بما جرى.

وأخيرا وفى ١١ سبتمبر أى بعد عشرة أشهر من تجمعنا فى صالة التدريب أعلن المدعى أن المراحل التمهيدية للقضية قد استكملت وأعطى الدفاع أربعة أشهر للاطلاع على ثمانية آلاف صفحة مطبوعة من البراهين ضدنا واثنى عشر ألف وثيقة. وانفضت المحكمة فى سبتمبر وبدأت هيئة الدفاع فى مراجعة القرائن. وبعد ثلاثة أشهر أعلنت الدولة إسقاط التهم عن واحد وستين متهما من بينهم لوثولى وتامبو.

وبعد ثلاثة عشر شهرا من الفحص المبدئى وجد القاضى أسبابا كافية لمحاكمتنا أمام محكمة الترنسفال العليا بتهمة الخيانة العظمى.

-٢٦-

فى عصر يوم من الأيام وأثناء الاستراحة فى الفحص المبدئى كنت أقوم بتوصيل صديق لى ومررت قريبا من محطة للحافلات ومن طرف عينى رمقت فتاة جميلة تنتظر الحافلة. ثم نظرت خلفى لأتملى منها لكن سيارتى كانت قد قطعت مسافة.

وبعد أسابيع كنت فى المكتب وخرجت من غرفتى لأرى أوليفر ووجدت نفس الفتاة جالسة مع أخيها أمام مكتب أوليفر وقدمنى أوليفر لهما قائلا إنهما جاءا لاستشارة قانونية. كان اسمها نومزامو وينيفريد

مايكيزيلا وتُعرف بويني وقد أكملت دراستها في مدرسة الخدمة الاجتماعية وكانت أول سوداء تعمل إخصائية اجتماعية في أحد المستشفيات. ومن أول لقاء أردت ويني زوجة لي.

واتصلت بها هاتفيا وطلبت منها المساعدة في جمع أموال لقضية الخيانة ودعوتها للغداء ثم ذهبنا لنزهة بالسيارة وكلمتها عن آمالي وعن مصاعب المحاكمة وأخبرتها أني أريد أن أتزوجها. لقد شعرت بمجرد رؤيتها بتفتحها للحياة وعاطفتها الجياشة وشجاعتها وإصرارها. وخلال الشهور التالية كنا نلتقي كلما استطعنا كما قامت هي بزيارتي في صالة التدريب وفي المكتب وقابلت أولادي ثمبي وماكجاثو وماكازيوي وحضرت الاجتماعات السياسية وقد كنت أتودد إليها وأسيّسها في نفس الوقت.

وبعد ذلك اتخذت إجراءات الطلاق من إيڤيلين. وكانت المحاكمة قد دخلت عامها الثاني وألقت بثقلها الخانق على عملنا في المكتب الذي بدأ في التدهور لأننا لم نكن باستطاعتنا التواجد هناك وكنا نواجه أنا وأوليڤر مشاكل مادية. وكان أوليڤر وبعد سقوط التهم عنه يعمل ساعات تعويضية لكن الضرر كان قد وقع وأصبحنا نبحث عن عملاء. وشرحت تلك الظروف لويني وأخبرتها أننا من المحتمل أن نعيش على راتبها الصغير ووافقت ولم أعدها بالماس والذهب ولم أستطع أبدا أن أعطيها ذلك وتم الزواج في ١٤ يونيو عام ١٩٥٨.

ورغم أنني كنت أحاكم بتهمة الخيانة فقد منحتني ويني الأمل وشعرتُ

أن فرصة ثانية للحياة قد أتيحت لى.

-٢٧-

كان الحدث الهام الذى ينتظر البلاد فى عام ١٩٥٨ هو الانتخابات العامة وكان المؤتمر يرى أن علينا ألا ندع المناسبة تمر دون عمل فإن هزيمة حزب القوميين كانت مصلحة لنا.

واتحدت المنظمات الأربع ودعونا إلى إضراب وبدأت حملتنا التى كان شعارها «يجب أن يذهب القوميون» وكان قادة الحملة يعملون فى السر. وفى يوم الإضراب أجرينا الاتصالات من مخابئنا بالقيادات المختلفة وأرسلنا أشخاصا إلى الأماكن الاستراتيجية فى المدن لتقرير مدى استجابة الناس للإضراب وكانت التقارير تقول إن الناس قد تجاهلوا الإضراب. وقررنا إلغاء الدعوة للإضراب ورغم أن التراجع كان مهينا شعرنا أن الامتهان الأكبر هو عدم التراجع.

ولكن ما حدث أنه كان هناك مناطق لم تسمع بالإضراب ففى اليوم التالى كانت الاستجابة حسنة فى بورت إليزابث. وعلى أية حال فقد فاز القوميون بزيادة قدرها أكثر من ١٠٪ من الأصوات.

-٢٨-

قررت الحكومة تطبيق نظام تصاريح المرور على النساء وعزمت النساء على عدم الخضوع للقرار.

وفى عام ١٩٥٧ وتحت تأثير التنظيم النسائى للمؤتمر أظهرت النساء

فى جميع أنحاء البلاد غضبهن ضد إصرار الحكومة على قرارها. وأظهرن شجاعة وحماسا فى احتجاجهن حتى صارت مقاومتهن معيارا لا يضاهى فى الاحتجاج على الحكومة. ففى جوهانسبرج تجمعن خارج مكتب التصاريح الرئيسى وقمن بتفريق النساء اللائى جئن للحصول على تصاريح والموظفين الذين يعملون بالمكتب الأمر الذى أوقف العمل واعتقلت الشرطة المئات منهن.

وذات يوم أخبرتنى وينى أنها تعتزم أن تنضم للنساء المحتجات فى اجتماعهن فى اليوم التالى عند مكتب التصاريح ورغم إعجابى بالتزامها وشجاعتها فقد كنت حذرا. فقد كانت وينى قد انضمت إلى فرع المؤتمر النسائى فى غرب أورلاندو. وقلت لها إنى أرحب بقرارها لكنى حذرتها من تلك الخطوة التى ستغير حياتها. فقد كانت تنتمى إلى أسرة ميسورة بالمعايير الإفريقية ولم تكن قد تعرضت لواقع الحياة البغيض فى جنوب إفريقيا. وأخبرتها إنه إذا تم القبض عليها فستفقد وظيفتها التى يقيم دخلها أودنا هذا بالإضافة إلى كونها حاملاً. فقد كنت أشعر أننى كقائد للمعركة، وكزوج يجب أن أوضح لها نتائج عملها. ولكنها كانت قد عقدت العزم وفى الصباح اصطحبتها بالسيارة إلى المحطة التى كانت النساء ستستقل منها القطار إلى المدينة وعرفت أنها قد بدأت رحلة الأخطار الطويلة.

وتجمعت مئات النساء عند مكتب البريد الرئيسى، كانت هناك الفتيات وكبيرات السن، وكانت هناك من يحملن أطفالهن على ظهورهن ومن يلتحفن بالبطاطين القبلية ومن يرتدين ملابس أنيقة، ونظمن المسيرات

وأطلقن الأناشيد والأغنيات. وخلال دقائق حاصرهن رجال الشرطة المسلحون وألقوا القبض عليهن واقتادوهن إلى نقطة شرطة ميدان مارشال. وبدت النساء مبتهجات وكن يلقين إلى مراسلى الصحافة بعبارات التحدى الفكاهية. وقد تم اعتقال ألف امرأة فى ذلك اليوم. ومثل مكتب «مانديلا وتامبو» معظم النساء اللائى ألقى القبض عليهن وتوجهت لقسم الشرطة لعمل ترتيبات الكفالة ورأيت وينى مبتهجة هناك. وفى اليوم التالى تم اعتقال ألف امرأة أخرى وأحيلت بعضهن للقلعة لتنتظرن المحاكمة. وقد سبب ذلك متاعب للسلطات إذ لم تكن هناك أماكن لهن جميعا هذا بالإضافة إلى عدم وجود أغطية وحصر ومراحيض كافية. ورغم أننى والقادة الآخرين كنا نحاول الإفراج عنهن بالكفالة فقد عارضت ليليان نجويى رئيسة التنظيم النسائى وقيادات أخرى ذلك الإجراء ورأت أن تقضى النساء مدة العقوبة التى يحكم عليهن بها من أجل فاعلية ومصداقية الاحتجاج. وكحل وسط اتفقت مع ليليان أن تقضى النساء أسبوعين فى السجن نقوم بعدها بتقديم الكفالة.

-٢٩-

لمدة أشهر كنا نستعد لمحاكمتنا الرسمية التى كان موعدها أغسطس عام ١٩٥٨. وكانت الحكومة قد كونت هيئة محكمة عليا خاصة من القضاة رامف، وكيندى، ولودورف وكان لثلاثتهم صلة بالحزب الحاكم هذا بالإضافة إلى شهرة كينيدى «كقاضى الإعدام» حيث إنه قد حكم بالإعدام على ثلاثة وعشرين إفريقياً بتهمة قتل اثنين من رجال

الشرطة البيض.

ونقلت الدولة مكان المحاكمة إلى بريتوريا على بعد ٣٦ ميلا. وكان جميع المتهمين وهيئة الدفاع من سكان جوهانسبرج مما ألزمنا بالسفر يوميا وما استلزمه ذلك من ضياع الوقت وزيادة النفقات هذا بالإضافة إلى ما عناه القرار من تحطيم معنوياتنا بعزلنا عن مؤيدينا إذ كانت بريتوريا من معاقل الحزب الحاكم ولم يكن للمؤتمر هناك سوى تواجد طفيف. وكانت رحلة الذهاب التى كانت تبدأ فى السادسة صباحا والعودة فى الحافلة غير المريحة ذات المقاعد الخشبية الطويلة تستغرق خمس ساعات يوميا.

كان فريق دفاعنا بقيادة إسرائيل ميسلز فريقا نضاليا قويا. وبدأ ميسلز بطلب تغيير القاضيين لودورف ورامف باعتبار أن لهما اهتمامات تمنعهما من اتخاذ قرارات عادلة حيث كان رامف قاضى محاكمات التحدى وكان لودورف ممثل الحكومة عام ١٩٥٤ فى قضية لنا ضد الشرطة. كان ذلك الطلب استراتيجية خطرة لعلمنا أن هناك قضاة أسوأ بكثير من هذين وكنا أيضا على ثقة أن رامف يقف دائما مع القانون رغم انتماءاته السياسية. وأعلن لودورف انسحابه ورفض رامف قائلا إن تحكيمه فى قضية التحدى لن يكون له أثر على هذه القضية وعينت الحكومة القاضى بيكر محل لودورف ولقى منا الترحيب حيث لم تكن له ارتباطات بالقوميين.

وبعد ذلك حاولنا إثبات عدم صحة قرار الاتهام على أساس عدم

الوضـوح والدقـة حيث إن أساس الاتهام بالخيانة العظمى وهو التخطيط للعنف لم يثبت. وبدا القضاة الثلاثة مقتنعين بذلك وبعد محاولات قانونية استمرت شهرين وفى ١٣ أكتوبر أعلنت الدولة فجأة سحب الاتهام بالكامل. وبعد شهر أصدر المدعى العام اتهاما آخر صيغ بعناية ودقة قائلا إن المحاكمة ستستمر ضد ثلاثين من المتهمين كُنت من بينهم وأن الآخرين سيحاكمون فيما بعد. واستمرت المحاكمة شهورا عديدة قُضيت معظمها فى مناورات قانونية عقيمة. ورغم نجاح هيئة الدفاع فى إيضاح زيف الادعاء فإن الحكومة استمرت وأعلن وزير العدل وقتها أن المحاكمة ستستمر رغم الملايين التى ستتكلفها.

وفى ٤ فبراير ١٩٥٨ وضعت وينى طفلتنا التى أسميناها زينانى ويعنى الاسم «ماذا أحضرت إلى العالم» ويجسد التحدى. وحضرت أمى لمساعدة وينى.

-٣٠

فى ٦ إبريل ١٩٥٩ وفى الذكرى السنوية لرسو جان ڤان رايبيك فى الكيب ولدت منظمة جديدة أخذت تعمل على منافسة المؤتمر كمنظمة إفريقية رائدة فى جنوب إفريقيا. كانت المنظمة تدعى «مجلس كل الأفارقة» وقد أعلنت منذ البداية رفضها لسياسة كل الأعراق التى يتبعها المؤتمر. وكان الأعضاء المؤسسون يعتقدون أن منظمة المؤتمر ليست نضالية بالدرجة الكافية وأن أعضاءها لا يرتبطون بالجماهير وأنها يسيطر عليها غير الأفارقة. وتم انتخاب روبرت سوبوكوى رئيسا

وبوتلاكو ليبالو أمينا عاما وكلاهما من الأعضاء السابقين لتنظيم الشباب. وفى الخطاب الافتتاحى دعا سوبوكوى إلى حكم الأفارقة للأفارقة ومن أجل الأفارقة وقدمت المنظمة مانيفستو ودستورا . وأعلنت أنها تنوى الإطاحة بسيادة البيض وأن تؤسس من الأفارقة اشتراكية قوامها الديمقراطية واستنكرت الشيوعية بجميع أشكالها واعتبرت البيض والهنود أقليات أجنبية ليس لها مكان فى جنوب إفريقيا .

ولم يسبب ميلاد المنظمة الجديدة لنا الدهشة فقد كان الأفارقة القوميون فى المؤتمر يجهرون بالشكوى منذ أكثر من ثلاث سنوات، وفى عام ١٩٥٧ دعوا إلى سحب الثقة من اللجنة التنفيذية للترنسفال ولكنهم هزموا وعارضوا قرارات عديدة للمؤتمر مما أدى إلى فصل ليبالو. وكان مجموعة الأفارقة القوميين قد عارضوا الميثاق على أساس أنه خرق لمبادئ القومية الإفريقية. ورفعت المنظمة الجديدة شعارات إفريقيا للأفارقة والولايات المتحدة الإفريقية.

وكان المؤسسون أصدقاء وزملاء لى وشعرت بالاستياء أن راديبى معلمى السياسى قد انضم للمنظمة الجديدة رغم كونه عضوا سابقا فى الحزب الشيوعى.

وكان عديد ممن انضموا للمنظمة الجديدة قد فعلوا ذلك لأسباب شخصية منها الغيرة والرغبة فى الانتقام. وكان اعتقادى دائما أن على المقاتل من أجل الحرية أن يكبت كثيرا من المشاعر الشخصية التى تجعل منه فردا مستقلا بدلا من جزء من حركة جماهيرية واعتقدت أن

كثيرا من آراء وتصرفات أعضاء المنظمة الجديدة PAC غير ناضجة. ورغم تعاطفى مع آراء الأفارقة القوميين وشاركتهم كثيرا فى آرائهم فى وقت من الأوقات فقد كنت أعتقد أن النضال من أجل الحرية يتطلب من الإنسان القبول بآراء وسيطة وتقبُّل نظم قاومها حينما كان أحدث سنا.

وقدمت PAC برنامج عمل مثيرا وطموحا يعد بالحلول السريعة وكان ضمن ذلك الوعد بأن التحرير سيتم عام ١٩٦٣. ورغم أن ذلك التنبؤ أثار الأمل والحماس بين الجماهير التى تعبت من الانتظار فقد كان من الخطر أن تعد منظمة جديدة بما لا تستطيع تنفيذه.

ورغم ترحيبنا الدائم بانضمام أى شخص لمعركة الكفاح فإن المنظمة الجديدة كانت كثيرا ما تقوم بدور المفسد. فقد أدت إلى تقسيم الناس فى لحظة حرجة. فكانوا مثلا يطلبون من الناس الذهاب إلى العمل فى وقت نكون قد دعونا فيه إلى الإضراب وكانت تصدر تصريحات مضللة ترد بها على تصريحاتنا. لكننى كنت آمل فى الوحدة بين المنظمتين رغم أن المؤسسين كانوا قد انفصلوا عن المؤتمر. وهكذا بدأت أهتم بنشاط تلك المنظمة وسياستها على أمل أن أجد تماثلا أكثر من الاختلاف الظاهر.

-٣١-

وفى عام ١٩٥٩ أقر البرلمان قانون الحكم الذاتى للبانتو الذى أدى إلى خلق ثمانى بانتوستانات عرقية منفصلة وكان ذلك تأسيسا لما أسمته

الدولة بالأبارتايد الأعظم. وتبع ذلك قرار منع غير البيض من الالتحاق بالجامعات التى كانت تقبلهم بحجة استحالة دمج الأفارقة فى مجتمع أبيض. وطبقا للقانون الجديد فقد حُرمنا نحن الأفارقة الذين نعيش فى مناطق «البيض» من الحرية فى تلك المناطق ومن الاستقلال فى «مناطقنا» العرقية.

وحدثت مقاومة شديدة للقانون الجديد فى المناطق الإفريقية واعتقل على أثرها عشرات الأبرياء وحوكموا وسجنوا ونفوا وعذبوا وقتلوا. ووصلت المقاومة فى سكهوكهو نيلاند إلى تحد علنى رفض الناس على إثره دفع الضرائب وكان المؤتمر قد لعب دورا قائدا فى الاحتجاج فى تلك المنطقة وفى منطقة زيروست. وانبثقت فروع جديدة للمؤتمر فى زيروست لحق بعضويتها ألفان وحُظِر نشاط المؤتمر هناك. كما انفجرت المقاومة فى أماكن أخرى عديدة قوبلت بالقمع. أما فى ثمبولاند فقد كانت المقاومة قد بدأت منذ عام ١٩٥٥ وكان ساباتا أحد قوى الاحتجاج.

وقد آلمنى أن يتوجه غضب الناس فى ترانسكى إلى داليونجا الذى كان يتعاون مع الحكومة والذى كان ابن أخى ومعلمى فى وقت من الأوقات. واتخذ هو ضد المواطنين إجراءات تعسفية وكانت هناك محاولات عدة لاغتياله. وكان مصدر ألم آخر لى هو أن والد وينى كان من مؤيدى الحكومة.

-٣٢-

وفى ٣ أغسطس وبعد عامين وثمانية أشهر من اتهامنا بدأت محاكمتنا الفعلية. وقد ضمت المحكمة حوالى ألفين من الوثائق إلى ملف الدعوة ودعت مائتين وعشرة شاهد منهم مائتان من أعضاء الشرطة السرية الذين اعترفوا أنهم قاموا بالاختباء فى دواليبنا وتحت أسرتنا والتخفى كأعضاء فى المؤتمر بالإضافة إلى العديد من الوسائل الأخرى لجمع المعلومات. وكانت معظم الوثائق عبارة عن كتب وأوراق ضبطت فى حملات التفتيش ومذكرات كتبها رجال الشرطة السرية أثناء اجتماعنا وكانت معظمها مشوشة.

وبدأ استجواب الشهود ورغم حجم الوثائق المقدمة فلم يكن بها ما يديننا. وفى مارس أعلن الادعاء أنه أتى بدليل الإدانة القاطع وكان ذلك تسجيلا لكلمة ألقاها روبرت ريشا على عدد من المتطوعين قبل أسابيع من إلقاء القبض علينا وجاء فيها «إذا طلبت المنظمة منكم عدم استعمال العنف فيجب عليكم ألا تستعملوه. وإذا كنت متطوعا حقا وأطلب إليك أن تستعمل العنف فعليك أن تصبح عنيفا لأقصى درجة، لابد أن تقتل.. تقتل.. وهذا هو كل شئ».

واعتقد المدعى أنه قد ختم القضية ورددت الصحف كلمات ريشا واعتبرت الدولة والصحافة أنها قد كشفت النقاب عن زيف ادعاءات المؤتمر بعدم استعمال العنف. وكانت كلمات ريشا غير معتادة وكما أثبت الدفاع فقد كان يؤكد على أهمية النظام وعلى أن يفعل المتطوع

ما يطلب منه مهما كان لا يروقه وكانت تلك الكلمات مقتطعة من السياق كما برهن الشهود.

وبعد ذلك كان علينا استدعاء شهودنا وكان شاهدنا الأول هو د.ويلسون كونكو على خلاف جميع التوقعات بأن يكون هو الرئيس لوثولى. وكان كونكو من زولو إقليم الناتال وكان طبيبا ممارسا نابها وضمن مؤسسى تنظيم الشباب وأحد الذين شاركوا فى حملة التحدى. وكنا قد طلبنا ضم سجله فى جامعة ويتس -حيث كان الأول على دفعته- إلى القضية. وقد بدا على القاضى كيندى أنه هو الآخر فخور به حيث إنه كان هو ناتاليا أيضا. وقد سبب وجود كونكو فى أن ينظر إلينا كيندى على أننا لسنا مثيرى شغب بل رجالاً لهم طموحاتهم. وقد برهن كونكو فى شهادته التزام المؤتمر بعدم العنف. وبعد ذلك صعد الرئيس لوثولى منصة الشهادة وترك أثرا إيجابيا على الهيئة القضائية لوقاره وصدقه وقد استمرت شهادته عدة أيام برهن فيها بصدق سعى المؤتمر إلى التناغم الاجتماعى كما وضح أن هناك فرقا بين عدم العنف والمسالمة فإن الذين يميلون إلى عدم العنف يدافعون عن أنفسهم إذا هوجموا على عكس المسالمين. ولكن وقع حدث هام فى جنوب إفريقيا يوم ٢١مارس قطع سير شهادة لوثولى وحينما عاد مرة أخرى كانت جنوب إفريقيا قد تغيرت كثيرا.

-٣٣-

فى ديسمبر عام ١٩٥٩ عُقِد الاجتماع السنوى للمؤتمر فى دربان

وسط مظاهرات صاخبة ضد تصاريح المرور وقرر المجتمعون بالإجماع بدء حملة على مستوى البلاد ضد التصاريح يوم ٣١مارس تبلغ ذروتها يوم ٢٦ يونيو بحرق جماعى للتصاريح.

وبدأت الحملة فورا وأرسلت الوفود إلى السلطات المحلية وجاب موظفو المؤتمر البلاد متحدثين عن الحملة وسرت الأخبار فى المناطق والمصانع وتم طبع منشورات وملصقات وتوزيعها ولصقها فى القطارات والحافلات. وأخذت الدولة تهدد بحظر المؤتمر. أما فى أنحاء إفريقيا فكانت مسيرة الحرية تتقدم وأُعلنت غانا جمهورية مستقلة برئاسة نكروما الإفريقى القوى المعارض للأبارتايد مما سبب الذعر للحزب القومى وجعلهم أكثر إصرارا على إخماد المعارضة فى البلاد. وفى عام ١٩٦٠ تم استقلال عدة مستعمرات سابقة فى إفريقيا وأصبحت دولا مستقلة. وفى فبراير زار هارولد ويلسون رئيس وزراء بريطانيا جنوب إفريقيا وتحدث فى البرلمان عن رياح التغيير التى تهب على إفريقيا.

وكانت قيادة PAC تبحث عن مناسبة تضم إليها التابعين. فبدلاً من أن يلحقوا بحملة المؤتمر المعارضة للتصاريح قرروا بدء حملتهم المنفردة يوم ٢١مارس أى قبل حملتنا بعشرة أيام. وفى اليوم المحدد سار سوبوكوى ولجنته التنفيذية إلى مركز الشرطة ليسلم نفسه للحبس معلنا أنه لن يدافع عن نفسه أو يدفع غرامة أو يخرج بكفالة فقد اعتقد أن حبسهم لن يتجاوز الأسابيع وبدلا من ذلك حكم بسجنهم ثلاث سنوات دون أى خيار آخر.

ورغم أن دعوة الـ PAC لم تلق استجابة قوية فى جوهانسبرج، ففى إيڤاتون تقدم عدة مئات للشرطة طالبين إلقاء القبض عليهم لعدم حملهم التصاريح. كما حدثت مظاهرة ضخمة من حوالى ۳۰.۰۰۰ شخص فى كيب تاون ووقعت حوادث شغب قُتل فيها اثنان. وكانت آخر الأماكن التى وقعت فيها مظاهرات هى شاربفيل حيث انتهى الأمر بمأساة. فقد توجه عدة آلاف إلى الشرطة وكانوا هادئين غير مسلحين ونظرا لتفوقهم العددى شعرت قوة الشرطة وعددها خمسة وسبعون بالخوف وفتحت نيرانها على الجموع التى استدارت وبدأت فى الهرب من الرصاص. وكانت النتيجة مقتل ستة وتسعين إفريقيا أصيب معظمهم برصاص فى ظهره وبلغ عدد الجرحى أكثر من أربعمائة من بينهم عشرات النساء والأطفال. وكانت مذبحة نشرت صورها صحف العالم وأثارت ردود فعل عنيفة على المستوى المحلى والدولى وصدرت احتجاجات غاضبة من جميع أنحاء العالم بما فيها المصادر الرسمية الأمريكية. ولأول مرة يتدخل مجلس الأمن فى شئون جنوب إفريقيا ويصدر لوما للحكومة ويطالبها ببدء خطوات لإحلال المساواة بين الأعراق. وهبطت أسعار البورصة وبدأ تهريب رءوس الأموال إلى الخارج وأخذ البيض فى رسم خطط الهجرة بينما أصدرت الحكومة بيانا قالت فيه إن أحداث شاربفيل كان مؤامرة شيوعية.

خلقت تلك الأحداث وضعا جديدا فى البلاد فرغم عدم نضج وانتهازية بعض القيادات فقد أظهرت منظمة PAC شجاعة وقوة احتمال فى

المظاهرات فى شاربقيل. وفى خلال يوم واحد احتلت المنظمة الصفوف الأمامية فى المقاومة ولقى سوبوكوى الترحيب فى الداخل والخارج كمخلص للبلاد وقائد لحركة التحرير. وكان على المؤتمر أن يقوم بتعديل خططه طبقا للموقف الجديد.

وعقدت جماعة صغيرة منا -وولتر ودوما نوكوى وجو سلوڤو وأنا- اجتماعا دام طوال الليل للتخطيط لرد الفعل. وكنا نعرف أن علينا أن نعلن علمنا بالأحداث وأن نهيئ للناس فرصة للتعبير عن غضبهم وحزنهم. وأخبرنا الرئيس لوثولى بخطتنا. وفى ٢٦ مارس قام بنفسه بإحراق جواز مروره علنا فى بريتوريا ودعا الآخرين أن يفعلوا مثله. وأُعلن يوم ٢٨ مارس يوما يلزم المواطنون فيه منازلهم للحداد والاحتجاج على وحشية حوادث شاربقيل وقمت أنا ودوما نوكوى بحرق تصاريحنا فى أورلاندو أمام مئات الناس ومراسلى الصحف.

وفى يوم ٢٨ مارس كانت هناك استجابة رائعة لدعوة الرئيس وأثبت ذلك جماهيرية المؤتمر كمنظمة. وفى كيب تاون اجتمع حوالى خمسين ألفا فى منطقة لانجا للاحتجاج. وثارت أحداث شغب فى أماكن عديدة. وأعلنت الحكومة حالة الطوارئ وأعطت لنفسها سلطات واسعة فى اتخاذ الإجراءات ضد أى نوع من العصيان وباتت جنوب إفريقيا خاضعة للأحكام العسكرية.

-٣٤-

فى الواحدة والنصف من صباح ٣٠ مارس استيقظتُ على صوت

طرقات معادية على الباب وعرفت أنها الشرطة وفتحت الباب لأجد عددا من رجال الشرطة المسلحين الذين قاموا بقلب المنزل رأسا على عقب وأخذوا معهم كل قصاصة ورق وجدوها حتى السجلات التى كنت أقوم بجمعها عن ذكريات والدتى عن التاريخ والأساطير القبلية. وتم القبض عليّ دون إعطائى فرصة للاتصال بمحاميى وأُخذت إلى مركز شرطة نيولاندز في صوفيا تاون حيث وجدت عددا من زملائى. بينما وصل آخرون أثناء الليل حتى وصل عددنا أربعين. وفى السابعة والنصف صباحا نُقلنا إلى زنزانة صغيرة بها حفرة فى الأرض ولم نعط أى بطاطين أو حصائر. وأخذت الحفرة فى الانسداد بانتظام وأصبحت الرائحة لا تحتمل. واحتججنا وقوبل الاحتجاج بالصمت فقررنا الاندفاع حين يفتح الباب ثانية ورفض العودة لحين إحضار طعام ولما فعلنا ذلك أمرنا الجاويش بالعودة فورا وإلا أحضر خمسين شرطيا بهراوات لكسر رءوسنا. وفعلنا.

وفى الثالثة ظهرا وضعوا لنا إناء به ثريد ذرة دون أى أدوات إطعام ورغم ذلك أكلنا بأيدينا غير المغسولة نظرا لشدة جوعنا. وبعد ذلك انتخبنا لجنة كنت متحدثها وكتبنا طلبا نحتج فيه على الظروف غير المناسبة ونطلب الإفراج عنا على أساس عدم قانونية احتجازنا. وفى السادسة مساء أحضروا لنا بطاطين وحصرا ملوثة بالدماء الجافة والقئ ترعى فيها الحشرات والهوام كالقمل والصراصير وتنبعث منها رائحة تنافس رائحة المجارى. وفى منتصف الليل بدأوا فى استدعائنا وكنت أول المستدعين ووجهوا إلينا أسئلة أعيد بناء عليها إلقاء القبض

علينا طبقا لقانون الطوارئ. وفى الصباح قيل لنا إن علينا أن نُرحّل إلى بريتوريا لحضور جلسة المحاكمة.

-٣٥-

وكانت المحاكمة قد استؤنفت في غيابنا يوم ٣١مارس وكان الذين حضروها هم الذين فشلت الشرطة فى إلقاء القبض عليهم. وكان على الرئيس لوثولى أن يدلى ببقية أقواله وعندما سأل عنه القاضى رامف أُبلغ أنه فى حيازة الشرطة. وطلب القاضى استدعاءه ورُفعتِ الجلسة.

وبعد ذلك اكتشفت أنه قد وقع اعتداء على الرئيس بعد القبض عليه وكانت تلك المعاملة لشخص فى مثل منزلته، بالإضافة إلى مرضه بالقلب، شيئا لايحتمل. حينما أُحضرنا مرة أخرى إلى المحكمة أُبلغ القاضى أن الشرطة رفضت إحضار لوثولى وتأجلت الجلسة. وأُلقى القبض علينا مرة أخرى وسط هرج وفوضى. ووقعت يومها الشرطة فى خطأ مضحك. فقد كان ويلتون مكوايبى أحد العناصر النشيطة فى المؤتمر قد حضر من بريتوريا لحضور المحاكمة وحدث أن انفصل عن زملائه المسجونين داخل القاعة وحينما أراد الخروج ورأى الحلقة التى كان قد أحدثها إعادة القبض علينا سأل رجل الشرطة عن الأمر فأخبره أن ذلك لا يخصه فلما أبلغه أنه أحد المقبوض عليهم أهانه الضابط وهدده وانصرف ويلتون واختبأ لعدة أشهر ثم تم تهريبه خارج البلاد ليظهر مرة أخرى كممثل اتحاد النقابات التجارية فى الخارج وليذهب بعد ذلك إلى الصين ليدرَّب عسكريا.

وكانت الحملة قد أسفرت عن اعتقال أكثر من ألفى شخص فى جميع أنحاء البلاد رجالا ونساء من جميع الأعراق وكلهم معارضون للأبارتايد. وفى يوم ٨ إبريل أعلن المؤتمر وPAC منظمتين غير شرعيتين وأصبحت عضويتهما جريمة تعاقب بالغرامة والحبس وكانت عقوبة تعزيز أهداف المؤتمر عشر سنوات سجن وهكذا أصبحنا جميعا خارجين على القانون.

ونقلنا إلى سجن بريتوريا الذى أصبح منزلا لنا لمدة طويلة. فقد كنا نغادره فى الصباح إلى المحكمة ونعود إليه بعد الظهر. وطبقا لتعاليم الأبارتايد كان السجن يفصل بين المحتجزين طبقا للون البشرة وكانت الوجبات تحدد طبقا للون البشرة. فكانت تصرف فى الأفطار كميات متساوية للأفارقة والهنود والملونين لكن الهنود والملونين كانوا يحظون بنصف ملعقة سكر للفرد. وكانت وجبات العشاء موحدة إلا أنه لم يكن يصرف خبز للأفارقة. أما طعام البيض فكان متميزا حتى فى النوعيات التى تقدم.

وكنت أثناء مدة الحجز أتمتع برحلات فى نهاية الأسبوع إلى جوهانسبرج. فقبيل إعلان حالة الطوارئ غادر أوليفر جنوب إفريقيا عملا بأوامر المؤتمر الذى كان قد قرر أنه يجب سفر بعض الأعضاء لتقوية المنظمة فى الخارج تحسبا لليوم الذى تُحظر فيه. وكانت مناورة أوليفر من ضمن الأعمال الموفقة من جانب المؤتمر حيث لم نكن وقتها نتخيل الأهمية الحيوية التى ستكون للجناح الخارجى. وكان أوليفر قبل سفره قد أوكل إلى صديق مشترك لنا وهو هايمى داڤيدوف أمر إغلاق

مكتبنا وإنهاء عملنا وقد طلب داڤيدوف من السلطات السماح لى بالحضور إلى المكتب نهاية كل أسبوع ووافقت السلطات فى نوبة من الكرم.

-٣٦-

وفى يوم ٢٥ إبريل أى اليوم السابق لاستئناف المحاكمة استدعانا ميسلز لمناقشة الآثار الخطيرة لحالة الطوارئ على سير المحاكمة. وكانت الاستشارات بيننا وبين هيئة الدفاع قد أصبحت مستحيلة بسبب قانون الطوارئ. واقترحت هيئة الدفاع الانسحاب كنوع من الاحتجاج رغم معارضة ميسلز خوفا من استفزاز القضاة. وقررنا بالإجماع أن نتولى نحن المحتجزين الدفاع عن أنفسنا وأن أتولى أنا ودوما نوكورى إعداد القضية وقام نوكورى بإعلان ذلك فى المحكمة يوم ٢٦ إبريل وكانت صدمة للقضاة الذين حذرونا من مغبة تصرفنا.

وكانت استراتيجيتنا أن نطيل أمد القضية حتى انتهاء حالة الطوارئ وعند ذلك يعود محامونا ويتمكنون من الدفاع عنا فى أحوال طبيعية.

وكان من الصعب الإعداد للقضية فى السجن حيث تعوقنا أنظمة الأبارتايد فقد كنا نحتاج أن نتقابل لكن قوانين السجن كانت تمنع لقاء الرجال والنساء والبيض والسود وبعد مفاوضات مطولة مع سلطات السجن سُمح لنا بالتشاور تحت ظروف مشددة وتمت إقامة فواصل حديدية شبكية تفصل البيض عن السود أثناء تلك اللقاءات. وقمنا بتدريب المتهمين على إجراءات الشهادة والدفاع.

وبعد فترة من الإدلاء أمام المحكمة بدأ التعب ينتاب البعض. وطلب أحدنا التأجيل ورفضت هيئة المحكمة مذكرة إيانا بتحذيرنا عندما طلبنا من هيئة الدفاع الانسحاب. وعندما عدنا إلى السجن تعرضت للهجوم وطالبنى البعض بالكشف عن السبب الذى من أجله أخبرتهم أن يستغنوا عن فريق الدفاع وأخبرتهم أن ذلك كان قرارا جماعيا وحذرتهم من أن يفقدوا شجاعتهم وإلا فسنواجه متاعب جمة وذكرت أن القضية أكبر من أن تكون مجرد محاكمة لخرق القانون إذ إنها اختبار لقوتنا وخمد الاحتجاج.

وعندما بدأ المتهم الثالث أحمد كاثرادا قضيته وأثناء استجوابه للشهود أعلن ڤيرويرد رئيس الوزراء عن قرب رفع حالة الطوارئ اعتقادا منه أن الحكومة قد قضت على نضال التحرير. عندئذ عادت هيئة الدفاع وشعرنا بالارتياح فقد كان قد مر علينا خمسة أشهر فى الحجز بدون محامين.

بدأت شهادتى يوم ٣ أغسطس وكان قد مرت عليَّ سنوات ثلاث من الصمت والحظر والنفى الداخلى وكنت أترقب تلك الفرصة لأعبر عن نفسى أمام من يحاولون الحكم عليَّ. وفى أثناء شهادتى الرئيسية قلت إننا نطالب بالحقوق الدستورية لكل البالغين وأننا مستعدون للقيام بضغوط اقتصادية لتحقيق ذلك حتى تضطر الدولة للحوار معنا. فإذا اقترحت الحكومة مثلا أنه نظرا لعدم استعداد الأوربيين الآن أن يسيطر عليهم الأفارقة وأنها علي استعداد لمنحنا ستين مقعدا فى البرلمان على أن تعيد تقييم الموقف بعد خمس سنوات فإنى أعتبر ذلك

انتصارا. ولكن الدولة مصرة على كونى شيوعيا خطيرا ورغم عدم كونى شيوعيا فأنا لا أرغب فى التباعد عن أصدقائى الشيوعيين ولهذا ورغم خطر إعادتى للسجن للإدلاء بهذه الآراء فأنا لا أتردد فى التأكيد على الدعم الهائل الذى منحه إيانا الشيوعيون.

وعندئذ سُئلت عما إذا كان نظام الحزب الواحد مناسبا لجنوب إفريقيا فأجبت أن المشكلة ليست مشكلة شكليات ولكنها مشكلة الديمقراطية فإن كان بالإمكان التعبير الديمقراطى من خلال الحزب الواحد فلابد لى أن أبحث الأمر جيدا وكذلك أفعل إذا ما كان بالإمكان التعبير الديمقراطى من خلال التعددية الحزبية. وقلت إنه فى هذا البلد يوجد نظام متعدد الأحزاب لكن فيما يختص بغير الأوروبيين فلا توجد سوى ديكتاتورية شريرة.

وأغضبنى القاضى رامف حينما قال إن التمثيل البرلمانى لا يجدى مع غير المتعلمين فقد نسى أن التعليم لا يعنى القراءة والكتابة فالشخص الأمى من الممكن أن يكون ناخبا متعلما يفوق من يحمل درجة جامعية. وأخبرت المحكمة أيضا أننا نعتقد بإمكانية تحقيقنا لمطالبنا دون عنف نظرا لغلبتنا العددية. وأنه عن طريق سياسة الضغط الاقتصادى كالإضرابات مثلا فلابد وأن يستجيب الأوروبيون.

ورفعت القوانين الاستثنائية آخر أغسطس وأفرج عنا واستقبلتنا الجماهير بحماس زائد وجاءت وينى إلى بريتوريا ولأول مرة منذ خمسة شهور أقضى الليل فى سريرى.

واستمرت المحاكمة بعد ذلك تسعة شهور وكانت أياما مجيدة حيث كان بإمكان أفرادنا أن يقفوا على المنصة متحدثين عن سياسة المؤتمر. وكذلك فعلوا.

وفى أكتوبر دعى البروفسور ماثيوس كشاهد أخير. أدلى بشهادته برباطة جأش وكان يعامل ممثلى الادعاء كطلبة فى حاجة إلى توبيخ وشرح بأسلوب بديع أن الأفارقة يعلمون أن المعركة القائمة على عدم استعمال العنف تتطلب معاناة وقد اختاروا ذلك لأنهم يفضلون الحرية على أى شئ آخر. وهكذا أنهى الدفاع نهاية رائعة وبعد أن انتهى صافحة القاضى كيندى وأعرب عن أمله أن يلتقيا ثانية فى ظروف أفضل.

-٣٧-

وبعد رفع الطوارئ اجتمعت اللجنة التنفيذية للمؤتمر سرا فى سبتمبر لمناقشة المستقبل وقررنا ألا نحل أنفسنا بل نعمل سرا وكان ذلك يتطلب توقف سياستنا الديمقراطية المبنية على الاجتماعات والمؤتمرات وخلق هياكل جديدة للاتصال بمنظمات المؤتمر غير المحظورة وكانت تلك الهياكل غير قانونية مما يعرض المشاركين للسجن وكان علينا بالضرورة حل تنظيمى الشباب والمرأة.

ورغم أن مكتب «مانديللا وتامبو» كان قد أنهى أعماله فقد كنت أمارس عملى القانونى من خلال شقة أحمد كاثرادا وتكاثر العملاء حتى أصبحوا يزحمون المكان. وكانت وينى فى ذلك الوقت حاملا للمرة

الثانية وكانت تأمل أن أكون معها وقت الوضع. لكن مرض ابنى مكجاثو جعلنى أخرق أمر الحظر وأسافر إلى ترانسكى وأحضره لإجراء جراحة له فى جوهانسبرج. وحين عدت كانت وينى فى المستشفى وأسرعت هناك لأجدها قد وضعت بنتا أسميناها زيندازيسوا تيمنا باسم أمير الشعراء شعب الإكسهوسا.

-٣٨-

واستغرقت المحكمة شهرا لتستكمل تلخيصها الأخير للقضية وفى مارس بدأ ميسلز الدفاع وأعقبه برام فيشر. ولكن المحكمة قطعت دفاع فيشر فى ٢٣ مارس وطلبت التأجيل أسبوعا.

وكان قرار الحظر الخاص بى مقررا له أن ينتهى عقب ذلك بيومين وقررت أن أذهب فى غفلة من الشرطة لحضور مؤتمر «الجميع فى المعركة» الذى كان هدفه إثارة القلاقل من أجل مؤتمر دستورى لجميع مواطنى جنوب إفريقيا كان مقررا أن يعقد فى مدينة على بعد ثلاثمائة ميل وكنت أنا المتحدث الرئيسى.

وفى اليوم السابق لسفرى عُقد اجتماع سرى للجنة العاملة القومية لبحث الاستراتيجية وكنا قد قررنا العمل سرا وفقا لخطة «M». واتُخِذ القرار بأنه إذا لم تتم إدانتى فعلىّ أن أختفى وأسافر عبر البلاد لتنظيم المؤتمر المقترح كما تقرر أن أظهر فى بعض المناسبات لأعلن أن المؤتمر مازال يكافح.

وشرحت لوينى ما حدث وأخبرتها أنى سأرحل فى اليوم التالى وأننى

قد أعود لبريتوريا يوم الإثنين لسماع النطق بالحكم وعلى أية حال فلن أعود إلى المنزل فإن تمت إدانتى فسأذهب إلى السجن وإذا ما برِّئت فسأختفى.

حضر المؤتمر ألف وأربعمائة مندوب من أنحاء البلاد يمثلون مائة وخمسين هيئة دينية واجتماعية وثقافية وسياسية وحينما وقفت لإلقاء كلمتى قوبلت برد فعل حماسى ودعوت فى خطابى إلى اجتماع يجلس فيه جميع جنوب الإفريقيين فى تآخ ويأتون بدستور يمثل تطلعات البلاد ككل واختتمت كلمتى داعيا إلى الوحدة.

ودعا مؤتمر «الكل فى المعركة» إلى مؤتمر قومى عام من ممثلين منتخبين لكل الراشدين من مبدأ التساوى لتقرير دستور جديد ديمقراطى لا عرقى. وتم انتخاب مجلس قومى للعمل أُنتخبت أمينا عاما شرفيا لإبلاغ هذا المطلب للحكومة، وإنه فى حالة عدم دعوة الحكومة لمثل هذا المؤتمر فسندعو إلى ثلاثة أيام من الإضراب فى المنازل يوم ٢٩ مايو الذى يوافق عيد الجمهورية فى جنوب إفريقيا.

وكان ذلك اليوم قد حدد لإعلان الجمهورية فى جنوب إفريقيا. وعقب المؤتمر وجهت خطابا إلى رئيس الوزراء ڤيرديرد أطالبه بعقد مؤتمر للدستور وأعلمته باعتزامنا الإضراب ثم أصدرت بيانا صحفيا مؤكدا أن الإضراب سيكون سلميا خاليا من العنف ولم يجب رئيس الوزراء واكتفى بوصف خطابى فى البرلمان بالصلافة.

-٣٩-

حتى قبل أن تفتح المحكمة أبوابها يوم ٢٩ مارس عام ١٩٦١ لسماع النطق بالحكم كان جمهور من المؤيدين والصحفيين قد احتشدوا محاولين شق طريقهم إلى الداخل. وبعد أن استعرض القاضى رامف وقائع القضية قال إنه بناء على جميع الأدلة التى قدمت للمحكمة وعن بحث المحكمة عن الحقيقة كان من المستحيل لهيئة المحكمة أن تصل إلى استنتاج أن المؤتمر الإفريقي قد تبنى سياسة للإطاحة بالدولة بالقوة وكذلك فقد وجدت الهيئة أن الادعاء قد فشل فى أن يثبت أن المؤتمر منظمة شيوعية أو أن الميثاق تصورٌ لدولة شيوعية. وبعد أن تحدث لمدة أربعين دقيقة قال القاضى رامف «وهكذا فقد وُجد أن المتهمين غير مذنبين ويتم الإفراج عنهم».

دوّت صيحات الفرح من الجمهور. وعانقنا بعضنا. ولوحنا للقاعة الممتلئة سعادة وصاحت الجماهير بالغناء وأخذت فى الإنشاد. وعند خروجنا حمل بعضنا هيئة الدفاع على الأكتاف وأخذت الكاميرات تلتقط الصور وأخذنا نحن نبحث عن الزوجات والأصدقاء والأقارب. وجاءت وينى وتعانقنا بفرحة رغم علمى أننى لن أنعم بتلك الحرية طويلا وأخذنا جميعا نغنى لإفريقيا. وتسبب الحكم فى إحراج الحكومة فى الداخل والخارج وأدى ذلك إلى شعور الدولة بالمرارة أكثر تجاهنا وتصميمها على أن تكون أكثر صرامة.

ولم أنظر للحكم على أنه تبرئة للنظام القضائى فى جنوب إفريقيا أو على أن الرجل الأسود بإمكانه أن يحظى بمحاكمة عادلة فى محاكم

الرجل الأبيض فقد كان حكما صحيحا وعادلا لكنه كان نتيجة وجود هيئة دفاع ممتازة وهيئة قضائية عادلة.

أما في حالة محاكمة قضية الخيانة فإن القضاة الثلاثة سموا فوق تحيزاتهم وتعليمهم وبيئتهم. فأثناء المحاكمة كان القاضي رامف يعطي انطباعا بأنه يشارك الأقلية الحاكمة آراءها ولكن جوهر العدالة تغلّب في حكمه. ولم يكن كيندى محافظا بنفس درجة زملائه وكان يبدو أن فكرة المساواة تروق له. فقد حدث أن كان مسافرا إلى دربان على نفس الطائرة التي كان نوكوى سيسافر عليها ولما لم يسمح لنوكوى أن يركب الحافلة التي كانت ستقلهم إلى المطار رفض كيندى أن يستقلها. أما بيكر فبدا لي دائما أنه متفتّح عقليا وأنه كان على دراية بأن المتهمين قد عانوا كثيرا. وإني لأمتدح هؤلاء الثلاثة كأفراد وليس كممثلين للمحكمة أو الدولة أو جنسهم.■

6

الجزء السادس

البيمبرنيل الأسود

-٤٠-

لم أرجع إلى منزلى عقب الحكم فقد كنت أعرف أن السلطات قد توجه ضربتها في أية لحظة وأردت أن أرحل قبل أن يقع علىَّ الحظر أو يلقى القبض علىَّ.

وفى بورت إليزابيث التقيت عدداً من القيادات لنناقش الهياكل السرية للمنظمة والتقيت برئيسىْ تحرير مجلتين ليبراليتين لأناقش معهما القيام بحملة صحفية من أجل عقد مؤتمر قومى.

وفى اليوم التالى انضممت إلى اجتماع سرى فى دربان مع الأعضاء التنفيذيين لحركة الكونجرس لتقرير ما إذا كنا سننفذ الإضراب فى شكل احتجاج بالمنازل أو فى شكل تنظيم مرابطات أمام المؤسسات ومظاهرات. وكان هناك من يرى أننا فى حاجة إلى عمل أكثر نضالية خاصة وأنه بدأ فى اجتذاب الجماهير. وكان رأيى أن إضراب المنازل يسمح لنا بالإضرار بالعدو دون أن يضر هو بنا وكنت أقول ذلك وأنا أعلم أن الناس قد ضاقوا بالمقاومة السلمية. واتُخذ القرار فى صالح

إضراب المنازل.

أن تعيش فى السر يتطلب نقلة نفسية. فعلى المرء أن يخطط لكل فعل مهما صغر. وأن يسائل فى كل شئ. ولا يستطيع المرء أن يكون نفسه فلابد وأن يتقمص الدور الذى يلعبه. ولا أظن أن هذا صعب للشخص الأسود فى جنوب إفريقيا. ففى ظل الأبارتايد عاش الأفارقة حياة ظلية ما بين القانونية والخروج عنها وما بين الظهور والاختباء. ولأن تكون أسود فى جنوب إفريقيا فإن ذلك كان يعنى ألا تثق فى أى شئ وهذا لا يختلف كثيرا عن الحياة مختبئا.

أصبحت مخلوقا ليليا فكنت لا أخرج لعملى إلا فى الظلام. وفى الأساس كنت أعمل فى جوهانسبرج ولكننى كنت أسافر إذا استدعى الأمر. كنت أقيم فى شقق خالية وفى منازل الآخرين وفى أى مكان يمكن أن أكون فيه وحيدا وغير مرئى. وعندما كنت أعيش مختبئا كنت لا أسير طويلا معتدل القامة وكنت أتكلم بصوت خفيض بدون وضوح أو تميز وكنت لا أسأل عن أى شئ بل كنت أترك الآخرين يخبروننى عما أعمل. تركت شعرى وذقنى ينموان وكنت غالبا ما أتخفى كسائق أو طباخ أو بستانى وكنت أرتدى الزى الأزرق أو زى عمال الزراعة.

كانت لدىّ سيارة وكنت أرتدى قبعة السائق مع الزى الأزرق وكان ذلك التخفى يناسبنى لأننى كنت أستطيع التنقل متظاهرا بأننى أقود سيارة سيدى.

وفى الأشهر الأولى وحينما كان يصدر أمر بالقبض علىّ وتتبع آثارى الشرطة فقد كان وجودى كخارج على القانون يروق لأخيلة الصحفيين. فتظهر مقالات تدعى أننى أتواجد بأماكن معينة وتضع الشرطة المتاريس على طول الطرق لكى يعودوا خاوين الوفاض. وأطلق علىّ حينئذ لقب «البيمبرنيل الأسود» إشارة إلى شخصية روائية تدعى البيمبرنيل الأحمر نجحت فى أن تتحاشى الإمساك بها إبان الثورة الفرنسية.

وكنت أسافر سرا فى أنحاء البلاد. كنت مع المسلمين فى الكيب وعمال السكر فى ناتال وعمال المصانع فى بورت إليزابث وكنت أحضر الاجتماعات السرية فى المناطق المختلفة من البلاد فى المساء. وكنت أحيانا أغذى أسطورة البيمبرنيل بأن أحادث الصحفيين من تليفونات عامة وأخبرهم عما كنا ننوى فعله وعن عجز الشرطة. وكنت أظهر فجأة فى مكان أو آخر مما يضايق الشرطة ويبهج الناس.

هناك قصص غير دقيقة عن تجاربى وأنا مختف، لأن الناس يحبون تزيين قصص التحدى. لكننى أيضا كنت أجد نفسى فى مواقف كنت أهرب منها بصعوبة. فحدث أن كنت مسافرا بسيارتى فى المدينة ووقفت فى إشارة مرور ثم نظرت إلى اليسار لأجد الكولونيل سبنجلر

رئيس أمن وستووتزراند. وكان الإمساك بالبيمبرنيل الأسود سيعتبر إنجازا له. كنت أرتدى قبعة العمال والزى الأزرق والنظارة، ولكنه لم ينظر ناحيتى ومرت الثوانى كالساعات.

وفى عصر يوم وبينما كنت متخفيا فى زى سائق وأنتظر على ناصية ليصطحبنى أحدهم رأيت رجل شرطة إفريقياً يخطو بعزم تجاهى. ونظرت حولى لأرى ما إذا كان هناك طريق للهرب وقبل أن أفعل نظر إلىَّ وابتسم ورفع إبهاميه بإشارة المؤتمر واختفى. وكانت تلك المواقف تحدث كثيرا مما كان يمنحنى الثقة فى ولاء كثير من رجال الشرطة الأفارقة الذين لعب الكثير منهم أدوارا حقيقية وكانوا ذوى فائدة عظمى لنا.

-٤١-

واستغرق الإعداد لإضراب ٢٩ مايو وقتى وأنا مختف. فقد كانت الأمور تسير باتجاه حرب فعلية بين الدولة والحركة الليبرالية. ففى آخر مايو نظمت الدولة غارات على قيادة المعارضة ومنعت الاجتماعات وصودرت المطابع وصدر تشريع يسمح للشرطة بأن تحتجز المقبوض عليهم اثنى عشر يوما مع عدم السماح بالكفالة.

وأعلن ڤيرويرد أن هؤلاء الذين يؤيدون الإضراب، إنما يلعبون بالنار. وحثت الحكومة المصانع أن تمد العمال بأماكن للنوم. وقبل الإضراب بيومين قامت الدولة بأكبر استعراض عسكرى لقواتها فى زمن السلم وألغيت عطلات الشرطة ورابطت قوات الجيش فى مداخل ومخارج

المناطق المدنية وسارت الدبابات فى الشوارع غير المرصوفة فى المناطق الإفريقية بينما كانت تحلق الطائرات العمودية ثم تنقض لتفريق أى تجمع وكانت تُسلّط بالليل الأضواء الكشافة على المنازل.

وفى الليلة السابقة للإضراب كان مقررا لى أن ألتقى بعدد من قيادات المؤتمر فى منزل آمن بسويتو. ولكى أتحاشى متاريس الشرطة دخلت سويتو عن طريق لا يوجد به عادة دوريات ولكننى قابلت كمينا وأشار لى الشرطى الأبيض أن أقف وكنت أرتدى زى السائق وبعد أن نظر لى عن قرب أخذ يفتش السيارة ولما لم يجد شيئا سألنى عن تصريح المرور فأخبرته بأننى قد نسيته خطأ وذكرت له رقما وهميا فأشار لى بالذهاب.

وفى أول أيام الإضراب غامر مئات الآلاف من الناس بوظائفهم ولم يذهبوا إلى العمل، ففى دربان غادر العمال الهنود المصانع بينما لم يغادر آلاف العمال الملونين منازلهم فى الكيب. أما فى جوهانسبرج فقد لزم نصف العاملين منازلهم وكانت النسبة أعلى فى بورت إليزابث. وقد غطت حملتنا تماما على احتفالات البيض بيوم الجمهورية.

أما على مستوى بقية البلاد فكانت الاستجابة أقل مما توقعنا وذلك لصعوبة الاتصالات. وفى ذلك المساء صرحت لأحد الصحفيين قائلا إن أيام عدم العنف قد انتهت.

وبعد التشاور مع زملائى قررنا أن ننهى الإضراب فى يومه الثانى. والتقيت فى منزل آمن فى ضاحية بيضاء مع صحفيين محليين

وأجانب ووصفت الإضراب بأنه نجاح باهر كما ذكرت أنه طالما أن الحكومة تلجأ إلى العنف لقمع نضالنا السلمي فعلينا أن نستعمل طرقا أخرى.

وكان الحوار بشأن استعمال العنف قد بدأ عام ١٩٦٠ وتشاورت مع وولتر واتفقنا على أن المنظمة يجب أن تبدأ نهجا جديدا. وكان الحزب الشيوعي قد أعاد ترتيب صفوفه في السر وكون جناحا عسكريا. وقررنا مناقشة موضوع المقاومة المسلحة مع لجنة العمل في اجتماعها في يونيو عام ١٩٦١. وهناك عارضني موسيس كوتاني عضو الحزب الشيوعي وقوبل اقتراحي بالرفض. وقابلت موسيس في الخفاء وشرحت له الأسباب التي دعتني إلى الاعتقاد بأنه لا طريق لنا إلا العنف وضربت له مثالا باتيستا الذي استمر في ممارساته السلمية غير المجدية إلى أن قلب كاسترو الموازين وقلت له إن الناس قد بدأوا في تكوين وحداتهم العسكرية المستقلة وعلى المؤتمر أن يقودهم. وفي النهاية أخبرني موسيس بأنه لا يستطيع أن يعد بشيء وأن عليَّ أن أعرض الموضوع للمناقشة مرة أخرى على اللجنة المركزية في دربان. وكنت متخوفا من معارضة الرئيس لوثولي الذي يعتنق عدم العنف كمبدأ وقلت في الاجتماع إن العنف هو خيارنا الوحيد إذ إنه خطأ أخلاقي أن نعرض الناس لهجمات مسلحة من الدولة دون أن نقدم لهم البديل وأنه من الأفضل أن نقود نحن أعمال العنف من منطلق مبادئنا حيث ننقذ حياة الأفراد بالهجوم على رموز القمع وليس على الناس.

وفى البدء عارض الرئيس مناقشاتى وجادلناه طوال الليل وأخيرا وافق على أنه لا مفر من الحملة العسكرية وأقرت ذلك اللجنة.

وكانت فكرة الرئيس أن يكون للحركة العسكرية استقلالها الذاتى وفى نفس الوقت تكون متصلة بالمؤتمر وعلى هذا تكون هناك قناتان منفصلتان للمعركة.

وفى اجتماع اللجنة المركزية للحركات التحررية كانت المناقشة ساخنة وعارض بعض المشتركين وخاصة أعضاء المجلس الهندى اللجوء إلى العنف وحاولوا إثناعنا واستمرت المناقشات طوال الليل ووصلنا فى الصباح إلى قرار وفوضنى المجتمعون فى تكوين منظمة جديدة عسكرية منفصلة عن المؤتمر لأن سياسة المؤتمر يجب أن تظل سلمية.

وكانت تلك خطوة مصيرية. فعلى مدى خمسين عاما عالج المؤتمر عدم استعمال العنف كمبدأ لا يحاد عنه. ولكن فى تلك اللحظة أصبح المؤتمر منظمة مختلفة وأصبحنا على وشك الولوج فى طريق صعب، طريق العنف المنظم الذى لم يكن باستطاعتنا أن نعلم نتائجه.

-٤٢-

وأوكل إلىّ أنا الذى لم أكن أبدا جنديا ولم أطلق مسدسا مهمة تشكيل جيش. وكان اسم المنظمة رمح الأمة ويرمز إليها بـ MK ورغم أنه لم يكن يسمح بعضوية البيض للجنة المركزية للمؤتمر فلم تكن هناك قيود على MK. وعلى الفور جندت چوسلوڤو الذى شكلت أنا وهو و وولتر سيسولو القيادة العليا برئاسته واستعنا بجهود أعضاء الحزب

الشيوعى عن طريق چو الذين كانوا قد بدأوا حملة عنف تشمل قطع أسلاك تليفونات المصالح الحكومية وخطوط الاتصالات. وتم تجنيد جاك هودجسون الذى كان قد اشترك فى الحرب العالمية الثانية ورستى بيرنشتاين وكلاهما من الحزب. وأصبح جاك أول خبير لنا فى التدمير وكان تكليفنا هو توجيه ضربات عنيفة ضد الدولة بينما نتحاشى الإضرار بالأفراد.

وبدأت بالقراءة والتحدث إلى المختصين. واكتشفت أن هناك كتبا عديدة فى هذا الموضوع وبدأت أقرأ أدبيات الحرب المسلحة وخاصة حرب العصابات. كنت أود أن أعرف الظروف الملائمة لمثل تلك الحرب وكيف يُشكَّل الفرد ويُدرب وكيفية تكوين قوة فدائية وتسليحها وأين تجد إمداداتها إلى آخر المشاكل الأساسية. فقرأت تقرير بلاروكا سكرتير عام الحزب الشيوعى فى كوبا عن سنواتهم كمنظمة غير قانونية فى كوبا وقرأت عن چيفارا وماوتسى تونج وفيدل كاسترو. وفى «الفدائى» بقلم وليز ريتز قرأت عن تكتيكاتهم أثناء حرب البوير وقرأت كتاب إدجار سنو الرائع «النجم الأحمر» ورأيت كيف أن تصميم ماو وفكره غير التقليدى هما اللذان قاداه إلى النصر. كما قرأت كتاب «الثورة» لمناحم بيجن وشجعتنى حقيقة أن القائد الإسرائيلى كان قد قاد حرب عصابات فى بلد لا توجد به جبال أو غابات، وكان هذا يماثل وضعنا وكنت متشوقا أن أعرف المزيد عن المقاومة المسلحة لشعب أثيوبيا ضد موسولينى وعن جيوش الفدائيين فى كينيا والجزائر والكاميرون. كما رجعت إلى تاريخنا ودرست ماضينا قبل وبعد الرجل

الأبيض وحروب الأفارقة ضد الأفارقة وضد البيض وحروب البيض ضد البيض. ثم قمت بمسح المناطق الصناعية فى البلاد ونظام المواصلات وشبكة الاتصالات وجمعت خرائط مفصلة وحللت بطريقة نظامية تضاريس كل منطقة فى البلاد.

وفى ٢٦ يونيو وُجهت خطابات من مخبئى إلى صحف جنوب إفريقيا أثنيت فيها على الشعب لشجاعته أثناء إضراب المنازل ودعوت إلى مؤتمر وطنى دستورى وأعلنت أن حملة عدم تعاون ستبدأ فى شتى أرجاء البلاد إذا لم تعقد الدولة ذلك المؤتمر واختتمت خطابى بأننى لن أترك جنوب إفريقيا ولن أستسلم.

-٤٣-

وخلال الأشهر الأولى من العمل السرى تقاسمت شقة مكونة من غرفة واحدة فى دور أرضى مع وولفى كوديش فى ضاحية بيضاء هادئة إلى الشمال من وسط المدينة. وكان وولفى عضوا فى مجلس الديمقراطيين ومراسل صحيفة العهد الجديد وكان قد حارب فى شمال إفريقيا وإيطاليا إبان الحرب العالمية الثانية وكانت معلوماته وخبرته مفيدة لى. وبناء على اقتراحاته قرأت بعض الكتب القيمة ومنها كتاب الجنرال البروسى كارل فون كلوزويتز «عن الحرب» الذى كانت فكرته الأساسية هى أن الحرب استمرار للدبلوماسية. وكنت أقضى النهار داخل الشقة مُسدِلا الستائر وأترك المنزل للاجتماعات وجلسات التنظيم ليلا.

وكانت MK فى ذلك الوقت تتدرب على التفجيرات. وفى إحدى الأمسيات ذهبت بصحبة وولفى لحضور تجربة فى مصانع الطوب على أطراف المدينة. وبدأ جاك هودجسون التجربة ونجحت وعدنا إلى سياراتنا وذهب كل فى اتجاه.

كنت أشعر بالأمان فى تلك الضاحية لكونها منطقة بيضاء ومن غير المحتمل أن تبحث عنى الشرطة هناك. وكنت وأنا أقرأ أثناء النهار أضع لترا من الحليب على حافة النافذة ليخمر فقد كنت مولعا كبقية شعب الإكسهوسا بالحليب الرائب. وذات مساء وبينما كنت أتحدث مع وولفى سمعت حديثا يدور بين رجلين أسودين من الزولو خارج النافذة وكانت الستائر مسدلة فأشرت إلى وولفى أن يصمت. وسأل أحدهما عما يفعله «حليبنا» على حافة النافذة وحينما استفهم الآخر عن مقصده رد الشخص الآخر قائلا «الحليب الرائب على حافة النافذة» وأراد ذلك الشخص الثاقب البصر أن يوحى بأنه لا يضع الحليب على حافة النافذة سوى شخص أسود وبالتالى فماذا يفعل شخص أسود فى منطقة بيضاء. وحين ذلك قررت أن أرحل. ورحلت إلى مخبأ آخر الليلة التالية.

وتنقلت بين منزل طبيب فى جوهانسبرج ومُزارع قصب سكر فى ناتال حيث سكنت فى بيت للشباب متخفيا كمندوب لوزارة الزراعة لتقييم التربة. وكانت المنظمة قد أمدتنى بآلات التقييم وكنت أقضى جانبا من اليوم أفحص التربة وأجرى التجارب. ورغم ثقتى من أن المزارعين لم ينخدعوا لكنهم لم يوجهوا إلىَّ أية أسئلة حتى بعد أن رأوا أناسا

يصلون بسياراتهم فى الليل وكان بعض منهم سياسيين معروفين فى المنطقة. وحينما كنت أخطط للرحيل من المنطقة شكرت أحد الأشخاص من كبار السن لرعايته إياى فرد قائلا «أهلا بك، لكن من فضلك أخبرنا ماذا يريد الرئيس لوثولى؟». فأخبرته أنى لا أدرى ولكنى أعلم فقط أنه يريد عودة أراضينا إلينا وملوكنا إلى قوتهم كما يريد لنا أن نتحكم فى حياتنا. فرد قائلا «وكيف سيفعل ذلك وهو لا يملك جيشا»؟ وبينما تشجعت لما قاله الرجل عرفت أنه لابد وأن آخرين قد اكتشفوا مهمتى فرحلت الليلة التالية.

-٤٤-

كان مكانى التالى منتجعا أكثر منه مخبأ فقد انتقلت إلى ضيعة فى ريڤونيا وهى ضاحية رعوية فى شمال جوهانسبرج وكانت المنظمة قد ابتاعت ضيعة هناك لتكون ملجأ آمنا لمن يعملون فى السر. وكان البيت عتيقا غير مسكون.

وانتقلت هناك متخفيا كخادم يرعى البيت حتى يسكنه سيده. وكنت قد سميت نفسى دافيد موتسمايي وهو اسم أحد عملائى السابقين. وأثناء النهار كان المنزل يزدحم بالعمال والبناءين والمبيضين الذين كانوا يصلحون المبنى الرئيسى والمبانى الملحقة وكانت الخطة أن نعد غرفا إضافية ملحقة بالمنزل لمزيد من الأفراد وكان كل العمال أفارقة وكانوا ينادوننى بالنادل أو الصبى وكنت أقوم بإعداد الإفطار لهم والشاى فى الصباح وبعد الظهيرة وكانوا يرسلوننى فى مهمات بالمزرعة أو

يأمرونني بمسح الأرضية أو حمل القمامة. وكانت تحدث مواقف ينهرني فيها العمال بصفتي أقل منهم منزلة.

إن الكثيرين قد رسموا صورة مثالية لطبيعة المجتمع الإفريقي التي تساوي بين البشر. وبينما أشاركهم الرأي إلى حد كبير فإني أجد أن الأفارقة لا يعاملون بعضهم البعض دائما معاملة الأنداد فلقد لعب التصنيع دوره في إدخال فكرة الإحساس بمنزلة الفرد التي تعم مجتمع البيض. وبالنسبة لهؤلاء الرجال فقد كنت أقل منهم مرتبة، مجرد خادم أعامل باحتقار وقد أتقنت الدور بحيث لم يشك أحد في أنني غير ذلك.

وواصلت حياتي على النمط السابق فكنت أخرج للاجتماعات ليلا فقط، وبعد أسابيع لحق بي ريموند مهلابا الذي حضر من بورت إليزابث وكان عضو اتحاد نقابي قويا وعضوا في اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي في الكيب وكان من ضمن أوائل قادة المؤتمر الذين أُلقي القبض عليهم في حملة التحدي وكان قد تم اختياره للعمل في MK. وحضر إلى المزرعة ليستعد للرحيل لجمهورية الصين مع ثلاثة آخرين للتدريب العسكري وقد ساعدني في كتابة دستور الـ MK وبعد ذلك لحق بنا چو سولڤو وراستي برنشتامين. وبعد رحيل ريموند آتي مايكل هارمل أحد الأعضاء البارزين في الحزب الشيوعي السري وأحد مؤسسي مجلس الديمقراطيين ورئيس تحرير مجلة ليبراشن.

وبعد ذلك انتقل آرثر جولدريتش وعائلته إلى البيت الرئيسى بالمزرعة كسكان وانتقلت أنا إلى منازل العمال والخدم الملحقة التى كان قد تم بناؤها. وأمدنا وجود آرثر بغطاء لنشاطاتنا وكان آرثر فنانا ورساما وكان عضوا فى مجلس الديمقراطيين وأحد أعضاء الـ MK وكانت حياته السياسية غير معروفة للشرطة كما كانت له خبرة فى حرب العصابات إذ إنه قد حارب مع البالماخ وهو الجناح العسكرى للحركة اليهودية القومية فى فلسطين وكان على علم بحرب العصابات مما أفادنى. وبعد ذلك لحق بنا جيلمان وهو صديق قديم للحركة وأصبح رئيس عمال فى المزرعة وأحضر معه عددا من العمال فبدأ المكان كأى منزل آخر فى المنطقة. وكانت أسعد أوقاتى فى المزرعة تلك التى تزورنى فيها زوجتى وكانت تأتى فى عطلات نهاية الأسبوع وكنا نعمل جاهدين على تضليل الشرطة عن تتبع خط سيرها.

-٤٥-

كُنّا ونحن نخطط لاتجاه وشكل أنشطة MK قد درسنا أربع اختيارات: التخريب، حرب العصابات، الإرهاب، والثورة المعلنة. وكانت الثورة المعلنة مستحيلة على جيش لم يقو عوده أما الإرهاب فكانت له آثاره السلبية على من يقومون به لأنه يفقدهم أى تأييد جماهيرى. وكانت حرب العصابات إمكانية ولكن ولأن المؤتمر كان مترددا فى تبنى العنف فقد كان من الصواب أن نتبع الوسيلة التى تسبب أقل الأخطار للأفراد ألا وهى أعمال التخريب ولأن أعمال التخريب لا تتسبب فى إهدار حياة الأفراد فإنها كانت تحمل إمكانية المصالحة بين جميع

الأعراق فيما بعد.

وكانت استراتيجيتنا تتلخص فى القيام بمناوشات منتقاة ضد المنشآت العسكرية ومحطات توليد القوى وخطوط الهاتف وشبكات المواصلات وغيرها من الأهداف التى تعوق فاعلية الدولة العسكرية وتخيف مؤيدى الحزب القومى وتُفزع رأس المال الأجنبى وتضعف الاقتصاد لكى نجر الحكومة إلى المساومة. وقررنا أنه إذا لم تؤد أعمال التدمير نتائجها ننتقل إلى حرب العصابات.

وذات يوم سمعت عبر المذياع أن الرئيس لوثولى قد نال جائزة نوبل للسلام وغمرنى كما غمر غيرى الفرح فقد كان ذلك اعترافا بكفاحنا وبمنجزات الرئيس كقائد وشخص. كما أن هذا كان ذلك يمثل اعترافا من الغرب بأن معركتنا معركة أخلاقية كما أنه كان تحديا مهينا للقوميين الذين صوروا لوثولى على أنه ثورى خطير وقائد مؤامرة شيوعية.

وكان توقيت هذا التشريف حرجا بطريقة أثارت التساؤلات حول الجائزة. ففى اليوم التالى لعودة لوثولى من أوسلو أعلنت MK عن وجودها بطريقة درامية فى الساعات الأولى من صباح ١٦ ديسمبر إذ انفجرت قنابل يدوية فى محطات توليد الكهرباء ومكاتب حكومية فى بورت إليزابث وجوهانسبرج ودربان. وفى وقت الانفجار وزعت آلاف المنشورات نص فيها على مانيفستو الـMK فى أنحاء البلاد وحملنا فيها القوميين مسئولية الموقف.

وكنا قد اخترنا ذلك اليوم لأنه اليوم الذى يحتفل فيه البيض بهزيمة دينجانى قائد الزولو العظيم فى معركة نهر الدم سنة ١٨٣٨ على يد البيض.

وصدمت التفجيرات البيض وجعلتهم يتحققون من أنهم جالسون على فوهة بركان أما السود فبدأوا يدركون أن المؤتمر قد خرج عن كونه منظمة للمقاومة السلبية.

وقد أثار إعلان MK حفيظة الحكومة ودفعها إلى شن هجمات مضادة شريرة وقاسية على مدى لم يسبق له مثيل وأصبحت مهمة البوليس السرى الرئيسية القبض على أعضاء MK مظهرين عزمهم على اقتلاع ما كانوا ينظرون إليه على أنه أخطر تهديد لوجودهم.

-٤٦-

عندما كانت تزورنى وينى كنت أشعر بوهم مؤقت أن الأسرة مازالت متماسكة. وكانت ابنتاى مازالتا صغيرتين أما ابنى ماكجاثو فقد كان فى الحادية عشرة ولذا أخبرناه بألا يذكر اسمى الحقيقى أمام أحد. وذات يوم وبينما كان يلعب مع ابن آرثر وجدا نسخة من مجلة كانت وينى قد أحضرتها معها وأخذا يقلبان الصفحات وفجأة رأى ماكجاثو صورتى قبل أن أتخفى فصاح «هذا والدى» ولما لم يصدقه الآخر أخبره أن اسمى هو نيلسون مانديلا فرد عليه أن الاسم هو داڤيد ثم جرى إلى والدته لتؤكد ما يقوله. عند ذلك انزعجت وأخبرتنى وهنا تحققت من أنه يجب علىَّ أن أغادر المكان ولكننى لم أفعل لأنه كان

مقررا أن أسافر خارج البلاد بعد حوالى أسبوع.

وكان المؤتمر قد تلقى دعوة من حركة «الحرية لكل إفريقيا» لحضور مؤتمرها فى أديس أبابا. وكانت مهمتى فى إفريقيا أوسع من مجرد حضور المؤتمر، فقد كان عليَّ أن أرتب مساندة مالية لحركتنا العسكرية وتدريبا لرجالنا إن أمكن داخل القارة خاصة وأن PAC كانت قد قامت بحملتها للإعلان عن نفسها.

وقبل مغادرتى ذهبت للقاء الرئيس لوثولى فى مكان آمن. ولم يكن الرئيس فى حالة صحية جيدة وكانت ذاكرته قد بدأت تضعف فأخذ يؤنبنى على تكوين MK دون استشارته رغم أننى حاولت تذكيره بمناقشاتنا.

وكان على المؤتمر ترتيب أمر سفرى إلى دار السلام حيث كنت سأستقل الطائرة من هناك إلى أديس أبابا. وكنت سألتقى بوولتر وكاثرادا ونكويى الذين كانوا سيُحضرون الأوراق المطلوبة للسفر. ووصل كاثرادا ولكن تأخر وولتر ونكويى أكثر من اللازم وعلى ذلك اضطررت للسفر بالسيارة إلى بيتشوالاند حيث استأجرت طائرة من هناك. وبعد ذلك علمت أنه كان قد تم القبض على وولتر ونكويى فى ذلك اليوم.

وبعد عبورى حدود جنوب إفريقيا ووصولى إلى مدينة لوباتش وجدت بانتظارى برقية من دار السلام بتأجيل رحلتى أسبوعين. وهناك لحق بى چو ماثيوس ولكننى قررت أن علينا أن نسرع إلى دار السلام لأن

أحد أعضاء المؤتمر كان قد اختطف مؤخرا من لوباتش بواسطة شرطة جنوب إفريقيا. وبعد مصاعب جمة وصلنا إلى تانجانيقا ونزلنا في فندق محلي ووجدنا جمعا من البيض والسود يجالسون بعضهم بعضا ويتحادثون في شرفة الفندق ولم يكن قد حدث أن تواجدت في مكان عام ليس فيه تمييز عنصري. وكنا هناك في انتظار السيد مواكا نجالي من الاتحاد القومي الإفريقي التانجانيقي وعضو البرلمان. ومن حديثه مع موظفة الاستقبال البيضاء وتوصيته إياها بشأننا أحسست أننا في بلد يحكمه الأفارقة. وفي كل مكان ذهبت إليه في تنجانيقا كان لون بشرتي يلقى قبولا ولأول مرة كنت أقيم على أساس عقلي وشخصيتي وليس على أساس لون جلدي.

ووصلنا إلى دار السلام في اليوم التالي وقابلت جوليوس نيريري أول رئيس جمهورية للبلد المستقل وتحادثنا في منزله وأتذكر أنه كان يقود بنفسه سيارة بسيطة ماركة أوستن وقد ترك ذلك أثرا في نفسي إذ أدركت أنه رجل من الشعب وكان هو يؤكد أن الطبقية غريبة عن إفريقيا وأن الاشتراكية طبيعية.

ولخصت له موقفنا واختتمت بطلب المساعدة وكان سياسيا ماهرا ذا صوت منخفض. ولاقت مهمتنا منه قبولا ولكن سرعان ما ساءني نوع فهمه للموقف فقد اقترح أن نؤجل المعركة المسلحة إلى أن يفرج عن سوبوكوى وكانت تلك أول مرة أعلم فيها بشعبية PAC في بقية إفريقيا. وقمت بوصف نقاط ضعف الـ PAC وقلت له إن التأجيل سيكون نكسة للنضال ككل فاقترح أن أحاول كسب الإمبراطور

هيلاسى لاسى ووعدنى بتقديمى له.

وكان مقررا أن ألتقى بأوليڤر فى دار السلام ولكن بسبب تأخيرى لم يستطع الانتظار وترك لى رسالة أن أتبعه إلى لاجوس حيث ذهب لحضور مؤتمر للدول المستقلة.

وتوقفت الطائرة فى الخرطوم واصطففنا للمرور من الجمرك. وكان چو ماثيوس يتقدمنى وباسنر وزوجته من ورائى. وكان باسنر هو المحامى الذى كنت معه وكان قد طلب اللجوء السياسى إلى غانا بسبب اتجاهاته السياسية الراديكالية ونشاطاته اليسارية فى جنوب إفريقيا. وبما أننى لم أكن أحمل جواز سفر فقد كانت معى وثيقة صادرة من تانجانيقا تقول «إن هذا هو نيلسون مانديللا من مواطنى جنوب إفريقيا وهذا تصريح له بالسفر من تانجانيقا والعودة إليها» قدمت الورقة إلى الموظف السودانى المسن فنظر وهو يبتسم وقال «أهلا بك فى السودان يا ولدى» وصافحنى ثم ختم الوثيقة. وحينما قدم له باسنر نفس الوثيقة صاح قائلا «إنها غير رسمية وشرح له باسنر أنه مضطهد فى جنوب إفريقيا لأنه يقاتل من أجل حقوق الرجل الأسود». فنظر السودانى إليه قائلا «إنه رجل أبيض فوقفت إلى جانب باسنر وأومأت برأسى مُؤمّنا على كلامه وهنا ختم الرجل الوثيقة قائلا «مرحبا بك فى السودان».

وكنت لم أر أوليڤر منذ عامين وحينما التقيت به فى مطار أكرا تعرفت عليه بصعوبة فقد كان قد أطلق لحيته وشعره وكان يرتدى الزى

العسكرى الذى كان يميز المقاتلين فى جميع أنحاء إفريقيا. وامتدحته للإنجازات الهائلة التى أداها فى الخارج فقد قام بإنشاء مكاتب للمؤتمر فى غانا وإنجلترا ومصر وتانجانيقا وأقام صلات قيمة فى بلاد عديدة وكان بذلك أفضل سفير للمنظمة.

وعلى متن الطائرة من أكرا إلى أديس أبابا وجدنا جور راديبى وبيتر مولوتس وأعضاء آخرين من PAC الذين كانوا فى طريقهم إلى المؤتمر وأبدوا دهشتهم لرؤيتى وأخذنا فى مناقشة أمور تتعلق بجنوب إفريقيا ووجدت أننا ونحن خارج بلدنا كان هناك ما يجمعنا أكثر مما يفرقنا.

وتوقفنا قليلا فى الخرطوم ثم ركبنا طائرة أثيوبية إلى أديس أبابا وهنا انتابتنى مشاعر غريبة فقد كان قائد الطائرة أسود ولم أكن قد رأيت من قبل قائد طائرة أسود وفى تلك اللحظة وجدت أن علىَّ أن أتغلب على الخوف الذى تملكنى وواجهت نفسى ووجدت أن تفكيرى قد تأثر بالأبارتايد فاعتقدت أن الأفارقة أدنى مستوى وأن قيادة الطائرة هى وظيفة رجل أبيض ووبخت نفسى لتلك الأفكار.

-٤٧-

وكان أول توقف فى أديس أبابا التى وجدتها مختلفة عما عُرِف عنها حيث لم يكن هناك سوى شوارع قليلة مرصوفة وكانت هناك أغنام وماعز فى الشوارع أكثر من السيارات وبخلاف القصر الإمبراطورى والجامعة وفندق الرأس حيث كنا نقيم فلم تكن هناك مبان ذات قيمة.

ولم تكن أيضا أثيوبيا الحديثة مثلا للديمقراطية فلم يكن هناك أحزاب سياسية أو مؤسسات شعبية في الحكومة. فلا فصل للسلطات فقط كان الإمبراطور هو الشخص الأسمى.

وقبيل انعقاد المؤتمر اجتمع المندوبون في مدينة صغيرة اسمها ديرازيد وأقيم نصب عظيم في منتصف الميدان وجلست أنا وأوليڤر في جانب بعيد عن المنصة. وفجأة سمعنا موسيقى عن بعد تنطلق من بوق ثم أنغام آلات نحاسية تصاحبها دقات طبول إفريقية وحينما اقتربت الموسيقى كان باستطاعتي سماع مئات من الأقدام وهي تسير ومن خلف مبنى على حافة الميدان وظهر ضابط يلوح بسيف يبرق وفي أعقابه كان يسير خمسمائة من الجنود الأفارقة في صفوف عرضية مكونة من أربعة وكل منهم يحمل بندقية لامعة على كتفه وحينما وصلت القوات إلى المنصة الرئيسية سمعت صوتا آخر ينطلق بالأمهارية وتوقف الجنود فجأة وحيوا رجلا يلبس زيا مبهرا وكان ذلك الرجل هو إمبراطور أثيوبيا هيلاسي لاسي أسد يهوذا.

وفي الصباح حضرت وأوليڤر اجتماعا تقدمت فيه كل منظمة بطلب اعتماد ولدهشتنا علمنا أن أوغندا قد أوقفت سير طلبنا على أساس أن منظمتنا قبلية ولما شرحنا لهم الأمر ووضحنا أن رئيسنا هو لوثولي وهو من الزولو قبل الطلب.

وافتتح الإمبراطور المؤتمر رسميا وكان مقررا أن أتكلم عقب الإمبراطور وبعد أن استعرضت تاريخ نضالنا واضطهادنا شكرت

الدول المجتمعة لضغطها على جنوب إفريقيا وخصصت بالذكر الدول التى قادت الحملة والتى نجحت فى طرد جنوب إفريقيا من الكومنولث وانتقلت إلى تكوين MK ولما أعلنت أننى سأعود إلى جنوب إفريقيا لمواصلة الكفاح قوبل ذلك بالهتاف. وتناقشت وأوليفر مع كينيث كاوندا الذى أصبح رئيس زامبيا ورئيس حزب الاستقلال فى شمال روديسيا وأبدى قلقه لعدم اتحاد فصائل المقاومة فى جنوب إفريقيا وكان يقصد PAC التى لفتت أحداث شاربفيل إليها الأنظار فى إفريقيا.

وكانت مصر قد تملكت مخيلتى وأنا طالب كمهد للحضارة الإفريقية وكنز لجمال الفن والتصميم وكنت دائما أرغب فى زيارة الأهرام وأبو الهول وعبور نهر النيل أعظم أنهار إفريقيا. ومن أديس أبابا ذهبت وأوليفر وروبرت ريشا إلى القاهرة وقضيت يومى الأول فى المتحف أفحص القطع الفنية وأدون الملاحظات وأجمع المعلومات عن نمط الرجال الذين أسسوا حضارة وادى النيل القديمة ولم يكن اهتمامى اهتمام هاو للآثار فإنه لمن المهم للأفارقة القوميين أن يتسلحوا بالبرهان الذى يدحضون به ادعاءات البيض بأن الأفارقة لم تكن لهم فى الماضى حضارة تضارع مدنية الغرب. واكتشفت فى صباح واحد أن المصريين كانوا يبدعون أعمالا فنية ومعمارية عظيمة بينما كان الغربيون فى الكهوف.

وكانت مصر نموذجا هاما لنا فقد كان أمامنا على الطبيعة برنامج الإصلاح الاقتصادى الذى أطلقه جمال عبدالناصر. فقد حدد الملكية الخاصة للأراضى الزراعية وأمم بعض قطاعات الاقتصاد وكانت له

الريادة فى بدء برنامج سريع للتصنيع وجعل التعليم ديمقراطيا وبنى جيشا حديثا. وكانت كثير من تلك الإصلاحات هى بالتحديد ما يطمح المؤتمر إلى أن يحققه وكان الأهم بالنسبة لنا فى ذلك الوقت أن مصر كانت الدولة الإفريقية الوحيدة التى تمتلك جيشا وأسطولا بحريا وجويا يمكن أن يقارن بذلك الذى تمتلكه جنوب إفريقيا.

وبعد يوم رحل أوليفر إلى لندن على أن نلتقى فى غانا.

وفى تونس فى اليوم التالى التقينا بالحبيب بورقيبه وكان رد فعله إيجابيا وفوريا وعرض أن يقدم التدريب العسكرى ومنحنا خمسة آلاف جنيه للأسلحة.

وكانت المغرب ملتقى المناضلين من أنحاء إفريقيا فهناك وجدنا أناسا من موريتانيا وأنجولا والجزائر وكانت أيضا معقل جيش الجزائر الثورى وقضينا أياما مع رئيس البعثة الجزائرية فى المغرب. وكان الموقف فى الجزائر هو النموذج الأقرب لنموذجنا حيث كان الثوار يواجهون مجتمعا كبيرا من المستوطنين البيض الذين يحكمون الغالبية وهم السكان الأصليون. وشرح لنا د.مصطفى حرب العصابات فى الجزائر والهدف من حرب العصابات الذى هو ليس الكسب العسكرى لكن إطلاق العنان للقوى السياسية والاقتصادية التى ستهزم العدو ونصحنا بعدم إهمال الجانب السياسى لأهمية الرأى العام العالمى. ثم أرسلنا إلى المقر الرئيسى للجيش الجزائرى فى مدينة حدودية صغيرة حيث قمنا بزيارة وحدة

جيش على الجبهة وبعد يومين كنت ضيفا فى استعراض عسكرى على شرف أحمد بن بيللا الذى أصبح فيما بعد رئيس وزراء الجزائر والذى كان قد خرج لتوه من المعتقل.

وكانت محطتى التالية هى سيراليون. وعندما وصلت اكتشفت أن هناك اجتماعا للبرلمان قررت أن أحضره وبينما أنا جالس فى مقعد قرب رئيس المجلس اقترب منى أحد الكتبة وطلب منى أن أعرف نفسى فأخبرته أننى ممثل الرئيس لوثولى الحائز على جائزة نوبل فصافحنى بحرارة وقال لى إنه لشرف لهم أن أتواجد هناك. وأثناء الاستراحة وجدت أن المجلس بأكمله قد اصطف لمصافحتى وشعرت بالرضا حتى كان مرور الشخص الثالث أو الرابع الذى تمتم قائلا إنه ليشرفه أن يصافح الرئيس لوثولى وشعرت بأننى مُدّع وأن الكاتب قد أساء فهمى وعند ذلك حضر رئيس الوزراء وقدمنى ذلك الشخص على أننى لوثولى وهنا حاولت أن أخبر الكاتب أننى لست هو لكنه رفض أن يستمع وقررت أن أكمل الدور حتى لا يضيع كرم الضيافة هباء وبعد ذلك التقيت برئيس الجمهورية وشرحت له الأمر وقدم لى مساعدة مالية سخية.

وفى ليبريا أيضا قدم لى الرئيس تابمان مساعدة سخية وذهبت بعد ذلك إلى غانا حيث قابلت أوليفر وعند لقائنا مع وزير غينيا المقيم فى غانا أخبرته بأننى لم ألتق بسيكوتورى ورتب لنا لقاء معه وقد أثار سيكوتورى إعجابى فقد كان يعيش فى بيت متواضع ويرتدى حلة قديمة باهتة وشرحنا له تاريخ المؤتمر والـMK وبعد أن استمع إلينا

جيدا قال إن حكومة وشعب غينيا يؤازرون كفاح إخوانهم فى جنوب إفريقيا مؤازرة تامة وأنهم قد أعلنوا ذلك فى الأمم المتحدة ثم أهدانا كتابين له بتوقيعه وشكرنا وانتهت المقابلة. وتضايقت أوليفر وتساءلت إن كان قد تم استدعاؤنا من بلد آخر لنعطى كتابين موقعين وأحسسنا أننا قد أهدرنا وقتنا. وبعد ذلك بقليل، وبينما كنا فى غرفتنا فى الفندق وصل مسئول من وزارة الخارجية وكان يحمل حقيب ديبلوماسية فتحها ووجدنا أنها مليئة بأوراق النقد.

وفى السنغال أصدر لى الرئيس سنجور جواز سفر ودفع ثمن تذكرتى إلى لندن.

-٤٨-

أعترف بأننى أحب كل ما هو إنجليزى فحينما كنت أفكر فى الديمقراطية والحرية الغربية كنت أفكر فى النظام البرلمانى الإنجليزى وكان الرجل الإنجليزى هو نموذج الجنتلمان. ولكن بالرغم من أن إنجلترا هى وطن الديمقراطية فقد كانت تلك الديمقراطية هى التى عملت على ابتلاء شعبى بذلك النظام الكريه.

وكان من دوافع ذهابى إلى إنجلترا قلقى على صحة أوليفر ومحاولة إقناعه بتلقى العلاج الطبى كما كنت أرغب فى رؤية زوجته وأولاده وكذلك يوسف دادوو الذى كان يعيش فى لندن ممثلا لحركة المجلس الهندى.

وكنت أتحرك هناك فى السر خوفا من مخابرات جنوب إفريقيا.

وأنجزت بعض أعمال المؤتمر هناك وكانت لى لقاءات مع رئيس تحرير الأوبزرفر وأعضاء البرلمان من حزب العمال ورئيسه هيوجتسكل ورئيس الحزب الديمقراطى.

وبعد ذلك ذهبت إلى أثيوبيا لتلقى تدريبى العسكرى وكان مدربى هناك ضابطا ذا خبرة. وكان برنامج التدريب مرهقا ويتكون من التدريب العملى والمحاضرات وتعلمت استعمال الأسلحة المختلفة وصناعة القنابل الصغيرة والديناميت وغيرها من الفنون العسكرية كما تلقيت معلومات عن تكوين فرق العصابات وقيادة الجيش. وكان من المفروض أن أقضى ستة أشهر فى التدريب ولكن بعد ثمانية أسابيع تلقيت برقية من المؤتمر يطلب عودتى حيث كانت المقاومة تتصاعد وكان لابد من وجود القائد هناك.

وعند وصولى إلى الخرطوم قابلنى مسئول الخطوط البريطانية وأخبرنى أن طائرتى إلى دار السلام قد تأجلت إلى اليوم التالى. وفى دار السلام التقيت أول مجموعة من رجال MK الذين كانوا فى طريقهم إلى أثيوبيا لتلقى التدريب العسكرى. وبعد ذلك منحنى الرئيس نيريرى طائرة خاصة إلى ليبيا. ومن هناك طرت إلى لوباتش وأخبرنى قائد الطائرة أن الخطة قد تغيرت. وفى مدينة كاينى قابلنى القاضى المحلى ورجل أمن وكانا أبيضين وسألانى عن اسمى فأجبت أننى أدعى داڤيد موتسمابى فرد القاضى قائلا إن علىَّ أن أخبره باسمى الحقيقى لأنه أُبلغ أن يقابل نيلسون مانديلا وأن يوفر له المساندة والمواصلات وإلا فسيلقى علىَّ القبض لعدم حملى إذنا بدخول البلاد. وهنا لم أجد بدا

من ذكر اسمى الحقيقى وبعد ذلك اصطحبنى بالسيارة إلى حيث كان ينتظرنى رفاقى وقررت السفر فى الليلة نفسها مع سيسيل ويليامز وهو مدير مسرح أبيض وعضو فى الـMK وتخفيت كسائقه وقدت السيارة باتجاه جوهانسبرج.■

7

الجزء السابع

ريڤونيا

-٤٩-

وذهبت إلى ريڤونيا الضيعة التى كنت قد أقمت بها سابقا وعقدنا اجتماعا سريا فى الليلة التالية أخبرت فيها لجنة العمل بما تم فى رحلتى ولخصت ما دار أثناءها وأعطيتهم بيانا بالأموال التى تلقيتها وعروض التدريب العسكرى وأخبرتهم بالتفصيل عن التحفظات التى واجهتها من القادة الأفارقة حول تعاون المؤتمر مع البيض والهنود والشيوعيين. وكانت مازالت ترن فى أذنى كلمات قادة زامبيا عن أنه رغم علمه أن المؤتمر أقوى وأكثر شعبية من الـ PAC ولكنهم يتفهمون نقاء القومية الإفريقية لـPAC وإن اختلاط الأعراق فى المؤتمر يذهلهم وكذلك صلاته بالشيوعيين. وأخبرتهم أنى وأوليڤر متفقان على أن المؤتمر لابد وأن يبدو أكثر استقلالية ليطمئن حلفاؤنا الجدد فى القارة حيث إنهم سيقومون بتمويل وتدريب MK واقترحت إعادة تشكيل مجلس التحالف بحيث تبدو قيادة المؤتمر واضحة خاصة فى الشئون التى تتعلق بالأفارقة.

وكان ذلك اقتراحا خطيرا يجب بشأنه استشارة جميع القيادات وطلبوا منى الذهاب إلى دربان لمقابلة الرئيس. وذهبت الليلة التالية

برفقة سيسيل متخفيا كسائقه والتقيت بمونتي نيكر وإسماعيل مير ولخصت لهما ما دار في رحلتي وقدمت عرضي الجديد. وكان الاثنان شديدي القرب من الرئيس ولكنهما أظهرا قلقا شديدا حينما أخبرتهم أن المؤتمر يجب أن يقود التحالف وأن يصدر بيانات مستقلة فيما يتعلق بشئون الأفارقة. وكان رد لوثولي بعد ذلك أنه لا يجوز أن يُملي السياسيون الأجانب سياسة المؤتمر وأنه لابد من استمرار السياسية اللاعرقية. فقلت له إن أولئك الساسة لايملون لكنهم فقط لايمكنهم فهم سياستنا مضيفا أن التغيير سيكون ظاهريا من أجل إرضاء حلفائنا وإلا فسيقوى دعمهم لـPAC وستتحول من منظمة ضعيفة إلى منظمة شديدة القوة. ولم يتخذ الرئيس قراره فورا. وعقدت اجتماعات أخرى في دربان كان آخرها مع القائد المحلي لـMK وكان خبيرا في عمليات التخريب وشرحت للقيادة هناك تفاصيل رحلتي ثم أخبرتهم أنه في الوقت الحاضر سيقتصر نشاط MK على عمليات التخريب وإذا لم تُجد فستتحول إلى حرب عصابات.

ومرة أخرى تخفيت في زي سائق سيسيل وقفلنا راجعين وكنا نتبادل القيادة وبينما كنا مستغرقين في المناقشة رأينا سيارة فورد مليئة

بأشخاص بيض تسبقنا من الناحية اليمنى والتفت خلفى ورأيت سيارتين أخريين مليئتين بالرجال البيض وأشارت لنا السيارة التى فى الأمام أن نقف وعرفت أن الشهور السبعة عشر من الحرية كانت فى سبيلها إلى الانتهاء.

وأتى شخص نحيف طويل ذو تعبيرات قاسية إلى النافذة. وقدم نفسه على أنه الجاويش فورستر من قوة الشرطة وأبرز أمرا بالقبض علىّ وطلب منى أن أُعرّف هويتى فأخبرته أن اسمى هو داڤيد موتسمابى ووجه إلىّ عدة أسئلة حاولت تفادى الإجابة عنها فبدا ضيقه وقال «إنك نيلسون مانديلا وهذا سيسيل ويليامز وكلاكما مقبوض عليه».

وفى مكتب فورستر فى مقر الشرطة كان هناك عدة ضباط من بينهم ضابط كان قد أدى شهادة غير متحيزة فى قضية الخيانة وحيا كلانا الآخر.

وتمسكت هناك بما قلته إن اسمى داڤيد وطلبت محاميى ولكن طلبى رفض فامتنعت عن الإدلاء بأقوالى.

واحتجزت أنا وسيسيل كل منا فى زنزانة. وكانت السلطات قد اعتقدت منذ أسابيع سابقة لعودتى بأننى موجود بالبلاد. ففى شهر يونيو تصدرت الصحف العناوين عن عودة البيمبرنيل الأسود. وربما كان ذلك تمويها.

وكانت السلطات قد أخذت فى مضايقة وينى ظنا منها أنها تعلم بمكان تواجدى وتتبعوها وفتشوا المنزل فى عدة مناسبات. وربما أيضا كانوا

قد عرفوا أننى لابد وأن أزور الرئيس بمجرد عودتى. لكننى لم أستبعد الوشاية فقد كان المخبرون قد اخترقوا صفوف الحركة هذا بالإضافة إلى أننا لم نكن جميعا حريصين بالدرجة الواجبة.

وفى الساعة الثامنة والنصف صباحا أحالنى القاضى المحلى رسميا إلى جوهانسبرج. وفى الطريق استمعت إلى نبأ القبض علىَّ من المذياع وعند وصولى إلى جوهانسبرج أودعت سجن مارشال فى زنزانة منفردة. وبينما كنت أخطط لاستراتيجية اليوم التالى سمعت سعالا وتعرفت على صاحبه فقد كان وولتر وكان فى زنزانة قريبة فناديت عليه ورد النداء وأخذنا نضحك تحت تأثير مزيج من الدهشة والفرح والإحباط وقد علمت أنه قد تم القبض على وولتر بعد القبض علىَّ بقليل.

وفى اليوم التالى استُدعيت أمام القاضى لإعادة حبسى رسميا. وكان هارولد وولب وجوسلوفو قد حضرا إلى المحكمة بعد سماع نبأ القبض علىَّ وهناك تعرفت على القاضى وعدد من المحامين وحيونى كزميل. وأثناء الإجراءات بدوا جميعا خجلين محرجين. وعند ذلك تحققت أن سبب عدم ارتياح هؤلاء الرجال ليس فقط كونى زميلا لهم ولكن أيضا لكونى رجلا عاديا يعاقب على معتقداته.. وهنا تحققت أيضا من إمكانات دورى أثناء المحاكمة. فقد كنت رمزا للعدالة فى محكمة للمستبد وكنت أمثل العدالة والحرية والديمقراطية فى مجتمع أخل بتلك الفضائل وعرفت أنه بإمكانى مواصلة المعركة وأنا داخل قلعة العدو.

وأعلنت أننى سأمثل نفسى وأن جو سولڤو سيكون مستشارى القانونى وهكذا يمكن استخدام محاكمتى كوسيلة لعرض مقاومة المؤتمر لسياسية التمييز العنصرى وبذلك أضع الدولة فى موضع المتهم. وعلى ذلك لم أجب عن أية أسئلة فى ذلك اليوم إلا فيما يختص باسمى واسم مستشارى واستمعت إلى الاتهامات وهى تحريض العمال على الإضراب ومغادرة البلاد بدون مستندات رسمية وكانت العقوبة على ذلك تبلغ السجن لعشر سنوات. وشعرت بالارتياح لأن ذلك يعنى أن الدولة لم تكن تملك الدليل على صلتى بـMK وإلا كانت التهمة هى الخيانة العظمى.

-٥٠-

ونُقلت إلى قلعة جوهانسبرج. وفى الطريق كان هناك مئات من الناس يهتفون ويصيحون ويغنون. وكانت أخبار القبض علىَّ ومحاكمتى قد احتلت العناوين الرئيسية بالصحف.

كان المشرف على القلعة أفريكانيا يعتبر ليبراليا بمقاييس زملائه وقال إنه سيضعنى فى مستشفى السجن لكونه أفضل مكان بالقلعة وهناك سيكون لى مقعد ومنضدة لكى أتمكن من تجهيز قضيتى. غير أن السبب الحقيقى هو أن المستشفى كان أكثر الأماكن تحصينا فى القلعة فقد كان محاطا بأسوار حصينة وحراس مسلحين لأن الصحافة كانت قد تنبأت بأن المنظمة ستحاول إنقاذى.

وكانت الصحافة قد بدأت تنشر أنباء عن قيام أشخاص من داخل

المنظمة بالإبلاغ عنى وحددت البيض والهنود من أعضاء الحزب الشيوعى. ولكننى كنت أعلم وزملائى أن الحكومة تريد تفريق صفوفنا وقد استنكرت وينى تلك الشائعات فى اجتماع عام. كذلك انتشرت شائعات عن مسئولية وكالة المخابرات الأمريكية ولكن لم تثبت صحة تلك الشائعات رغم علمى بمسئولية الوكالة عن نشاطات حقيرة ومساندتها للإمبريالية.

ثم تم نقلى لبريتوريا حيث لم تكن هناك فرصة لاستقبال زائرين على عكس الحال فى القلعة.

وكان يُسمح لى بتلقى الزيارات مرتين فى الأسبوع وكانت وينى تأتى بانتظام ومعها الأكلات الشهية والملابس النظيفة رغم بعد المسافة ومشقة حضورها فى منتصف النهار ومنتصف الأسبوع تاركة طفلتين صغيرتين بالمنزل. وكان عدد كبير من الأفراد يأتون لزيارتى ومعهم الطعام الذى كنت أقتسمه مع السجناء الآخرين. وعن طريق قنوات الاتصال الداخلى علمت بوجود وولتر فى بريتوريا وقد تمكنا من الاتصال رغم فصلنا. وكان وولتر قد تقدم بطلب للإفراج عنه بكفالة ووافقته رغم موقف المؤتمر من الكفالة إذ كان البعض يرى أنها يمكن أن تؤدى إلى تصويرنا على أننا جبناء نتقبل محظورات النظام القانونى العنصرى. ولكننى كنت أرى أن لكل قضية ظروفها الخاصة فقد كان وولتر قد أصبح السكرتير العام للمؤتمر وكان وجوده فى الخارج حيويا للمنظمة. أما أنا فقد كنت أعمل فى الخفاء وكنت قد أصبحت رمزا عاما للثورة والنضال فى حين كان عمل وولتر يتم وراء

الكواليس. وبعد ذلك بقليل نقلت إلى المستشفى مرة أخرى وكان أول شئ فعلته هو إرسال خطاب للسلطات أعلمهم بعزمي على مواصلة دراسة القانون للتخصص وطالبا السماح لى بشراء كتاب قانون الضرر الذى كان ضمن المقرر.

إن الهرب من السجن يحقق هدفا مزدوجا فهو أولا تحرير للمعتقل المناضل كما أنه يعطى دفعة نفسية هائلة لحركة النضال ويوجه لطمة دعائية للعدو. وقد كنت قمت برسم خريطة تفصيلية للسجن وتم تهريبها مع التأكيد على إعدام الورقة فيما بعد وكانت هناك خطة لتهريبي من تدبير المؤتمر وأوصلها إلىّ جوسلوقو وأعطيت جو مذكرة شرحت فيها آرائى عن الخطة وهى أن الـMK غير مستعدة الآن للقيام بتلك العملية وأن من الأفضل تأجيل المغامرة إلى أن يصدر الحكم علىّ وتتراخى الإجراءات. وقد وافق جو والآخرون على عدم محاولة الهرب فى ذلك الحين. وكنت قد أضفت فى النهاية أنه يجب إعدام الورقة بمجرد قراءتها ولكنهم قرروا أن تبقى المذكرة كوثيقة تاريخية مما أدى إلى نتيجة سيئة فيما بعد.

-٥١-

وحدد يوم ١٥ أكتوبر لجلسة الاستماع الأولى. وأنشأت المنظمة لجنة سمتها لجنة إطلاق سراح مانديلا وبدأت حملة نشطة تحت شعار «أطلقوا سراح مانديلا» وبدأ الشعار يظهر مكتوبا على جوانب المبانى وردت الحكومة بأن منعت الاجتماعات الخاصة باعتقالى لكن الحركة

تجاهلت القرار.

وكإعداد للجلسة نُظمت اللجنة مظاهرة جماهيرية عند المحكمة وكانت الخطة أن يصطف الناس على جانبي الطريق الذى ستمر به عربة الشرطة وعرفت من التقارير الصحفية أن التوقعات أكدت أن أعداداً ضخمة ستشترك فى المظاهرة ولكن يوم السبت السابق للمحاكمة تم نقلى إلى بريتوريا حيث تقرر إجراء المحاكمة هناك ولم تعلن السلطات عن ذلك. وكان رد فعل الحركة سريعا فقد ازدحمت قاعة المحاكمة فى بريتوريا بالمؤيدين. وصدر قرار بحظر چو سلوڤو واستبدل ببوب هوبل الذى قدم لى المساعدة القديرة.

ودخلت القاعة وأنا أرتدى الزى التقليدى للإكسهوسا وتعالت الصيحات والهتافات التى اشتدت بسبب وقع الزى حيث كان كثير من الحاضرين أصدقاء وأقارب وكان بعضهم قد حضر من ترانسكى. كذلك ارتدت وينى زى نساء الإكسهوسا التقليدى وكنت ارتديت ذلك الزى لتأكيد أهمية رمزى كإفريقى أسود يدخل محكمة الرجل الأبيض. فقد كنت أحمل على ظهرى تاريخ وحضارة شعبى وإرثه. وكنت أعلم أن السلطات ستشعر بالتهديد من ارتدائى ذلك الزى الوطنى كما يستشعر البيض الخطر من الحضارة الإفريقية الحقة. ونودى على القضية فطلبت التأجيل أسبوعين نظرا لنقلى إلى بريتوريا دون أن تتاح لى الفرصة لإحضار محام. ووُفق على التأجيل أسبوعا. وعندما عدت إلى السجن حاول مديره أن يصادر ردائى فهددته بالالتجاء إلى المحكمة العليا حيث إنه ليس لديه السلطة القانونية ليفعل ذلك. فلم

يكرر الطلب، فقط مُنِعت من ارتدائه وأنا في الطريق إلى المحكمة واقتصر استعمال إياه عليّ داخل المحكمة فقط.

وحين أعيد نظر القضية طلبت السماح لى بالدفاع عن نفسى فقد كنت أريد أن أوضح لهيئة الحكمة نيتى فى وضع الدولة موضع الاتهام.

واستعان المدعى بأكثر من مائة شاهد وقدم معظمهم براهين فنية تثبت صحة التهمتين وهما تحريضى للعمال أثناء إضراب المنازل وأننى غادرت البلاد. ولم أحاول مجادلة أى من التهمتين فقد كنت مذنبا من وجهة النظر الفنية. واستدعت المحكمة السكرتير الخاص لرئيس الوزراء ليشهد بشأن واقعة الخطاب الذى أرسلته أطالب فيه رئيس الوزراء بعقد مؤتمر لوضع دستور غير عنصرى وإلا قمنا بالإضراب. وسألت الشاهد عما إذا كان رئيس الوزراء قد رد على الخطاب فأجاب بالنفى وكنت قد بدأت بقراءة نص الخطاب. وبعد أن سألته إنْ كان يوافق على أن الخطاب يثير قضايا تهم الأغلبية وأجاب بالنفى سألته إن كان يوافق على أن قضايا حقوق الإنسان والحريات المدنية حيوية للشعب الإفريقى فرد بالإيجاب وسألته إن كان الخطاب يذكر تلك القضايا فوافق. ثم سألته عما إذا كان يعلم أن الأفارقة لا يتمتعون بتلك الحقوق فأجاب أنهم لا يتمتعون ببعضها ففصلت له تلك الحقوق فأجاب أن الأفارقة لايتمتعون بها فسألته إن كان يوافق على أنه فى أى بلد متحضر فى العالم يعتبر عدم رد رئيس الوزراء على أمور بمثل تلك الأهمية تصرفا مخزيا فقال إنه لا يوافق وأجاب أن رئيس الوزراء لم يتجاهل الخطاب وأضاف أنه قام بالرد. ولم أتمكن من انتزاع

الموافقة منه.

وكنت حينما سألتني المحكمة عن عدد الشهود الذين سأستدعيهم أجبت بأنني سأستدعي عددا أكبر من الشهود الذين استدعتهم الدولة. ولكن حينما انتهت الدولة من عرض القضية وانتظرت أن أبدأ دفاعي نهضت وأبلغت المحكمة أنني لن أستدعي شهودا على الإطلاق. وحينما سألني القاضي إن كان لديَّ أي شئ أضيفه قلت له إنني أقرر أنني لم أرتكب جريمة وأنه ليس لديَّ ما أضيفه.

وأجلت المحكمة الجلسة إلى اليوم التالي لأعد خطابي الذي أطلب فيه تخفيف الحكم.

وفي اليوم التالي وقبل انعقاد الجلسة كنت أجلس مع بوب هيبل نناقش القضية ونمتدح القرار الذي اتخذته الجمعية العامة للأمم المتحدة بتوقيع بعض العقوبات على جنوب إفريقيا حينما دخل علينا المدعي في القضية السيد بوش وطلب من بوب مغادرة الغرفة ثم أخبرني أنه لم يكن يريد أن يأتي إلى المحكمة لأنه لأول مرة في تاريخه الوظيفي يشعر باحتقار ما يفعله وأنه يشعر بالمعاناة أن يطلب من المحكمة أن تحكم عليَّ بالسجن ثم صافحني وأعرب عن أمله في أن يتحول كل شئ لصالحي.

وكانت السلطات متأهبة إذ إن الزحام كان أشد منه في اليوم الأول وكانت ويني حاضرة بزيها الوطني وكذلك كان جمع من أقاربي وكان مئات المتظاهرين يقفون قريبا من المحكمة وكان عدد رجال الشرطة

يماثل عدد الحضور.

وعندما دخلت القاعة رفعت يدى هاتفا وردد الحاضرون الهتاف. ثم تكلمت لمدة ساعة وكان خطابى نصا سياسيا أكثر منه طلبا لتخفيف الحكم.

وفى خطابى ذكرت للمحكمة ما كانت عليه الأمور قبل قدوم الرجل الأبيض وكيف كنا نعيش فى سلام وديمقراطية وأنه لم تكن هناك ملكية خاصة ولا طبقات ولا استغلال للإنسان بل كان الجميع طلقاء متساوين وكان هذا أساس الحكم الذى وجد تعبيرا فى دستور الحكم القبلى ومجلس القبيلة. وأضفت أن ذلك التاريخ هو الذى يلهمنى وزملائى فى كفاحنا السياسى.

ثم أخبرت المحكمة عن سبب التحاقى بالمؤتمر الذى توافق سياسته الديمقراطية اللاعنصرية معتقداتى. وذكرت أننى وبينما كنت أعمل كمحام كنت دائما أُجبر على الاختيار بين إطاعة القانون وبين ضميرى وذكرت أن مثل هذا الصراع ليس مقصورا على هذا البلد ففى بريطانيا مثلا واجه أحد أعظم فلاسفة العصر وأحد نبلاء بريطانيا وهو برتراند راسل الصراع نفسه حُكِم عليه بالسجن لاتباع ضميره وتحدى القانون لاعتراضه على سياسة التسلح النووى.

ثم استعرضت تفصيليا المرات التى حاولت السلطات فيها استخدام القانون لشل عملى وحياتى ونشاطى السياسى وقلت إن القانون جعل منى مجرما ليس بسبب ما فعلت لكن بسبب ما أمثله والفكر الذى

أعتنقه وذكرت أن حياتى فى الخفاء كانت أصعب من حياتى المحتملة فى السجن وأن تحدينا كان بسبب أعمال ومواقف الحكومة وأن آخرين قبلى قد دفعوا ثمن معتقداتهم وآخرين أكثر سيدفعونه بعدى. ثم اختتمت قائلا إن الشئ الوحيد الذى هو أقوى من كراهيتى للظروف البشعة التى سأخضع لها فى المعتقل هو كراهيتى للظروف البشعة التى يخضع لها مواطنى خارج السجون فى عموم البلاد وأنه بعد انتهاء مدة الحكم على فسأواصل المعركة لإنهاء تلك المظالم حتى تختفى إلى الأبد.

وكان الحكم هو ثلاث سنوات لتحريض الناس على الإضراب وسنتان لمغادرة البلاد دون جواز سفر وبدأ الحضور فى العويل ولكنى اتجهت إليهم رافعا قبضتى وهتفت لإفريقيا وبدأ الناس فى الغناء والرقص وأطلقت النساء الزغاريد وأنا أُقاد إلى المعتقل.

-٥٢-

إن المعتقل لا يأخذ من الإنسان فقط حريته ولكنه أيضا يحاول أن يحرمه من هويته فإن الجميع يرتدون نفس الملابس ويأكلون نفس الطعام ويتبعون نفس برنامج الحياة اليومى وإن الدولة السلطوية فقط هى التى لا تسمح باستقلال الإنسان وتفرده.

وفى سجن بريتوريا المحلى أُمرت بخلع ملابسى وصرف لى زى المساجين الأفارقة وهو عبارة عن بنطلون وقميص كاكى وجورب وصندل وكان يصرف البنطلون القصير للمساجين الأفارقة فقط لأن

الرجال الأفارقة كانوا فى نظر السلطات «صبية» ثم أحضروا إلىَّ طعاما من ثريد الذرة البارد فرفضت الأكل والسروال القصير وهنا قال لى مأمور السجن إنه سيعطينى طعاما أفضل وسروالا طويلا إذا وافقت على الحبس الانفرادى، ووافقت.

وقضيت الأيام التالية فى عزلة تامة ولم يكن هناك ما أقرؤه أو أكتب به. وبعد بضعة أسابيع تغلبت على كبريائى وأخبرت المأمور أنى على استعداد لاستبدال السروال الطويل بصحبة الآخرين. وبعد اعتراضات متكررة وافق المأمور على أن أُلحق بالسجناء السياسيين الآخرين وكان بينهم سوبوكوى قائد الـ PAC وكنت أتوق للحديث معه عسى أن نصل إلى ما يوحد بين آرائنا فى السجن.

ووجدت خلافا لسوبوكوى آخرين من المنظمات الأخرى ورحب الجميع بى بحرارة وطلب منى روبرت أن أعطيه تقريرا عن رحلتى فى إفريقيا وكنت صريحا عن صورة PAC والمؤتمر فى إفريقيا وأضفت أننا لابد وأن نناقش مختلف القضايا ولكن بعد ذلك عملت سلطات السجن على فصلنا وعدم لقائنا. ولم يكن هناك سوى فرص قليلة لحديثنا وكنت أحترم سوبوكوى وأقدر آراءه. لكننا أيضا اختلفنا بشأن ظروف السجن إذ كان هو يعتقد أن مقاومة الظروف السيئة تعد اعترافا منا بحق الدولة فى سجننا.

ولحق بنا وولتر لمدة أسبوعين، فقد كان يحاكم فى جوهانسبرج بتهمة التحريض على الإضراب وحكم عليه بالسجن لمدة سنة واحدة. وكان قد

استئنف الحكم فشجعته على طلب الكفالة وفعل ذلك ثم صدرت إليه التعليمات من المنظمة بالاختفاء والعمل القيادى السرى وقد فعل ذلك بجدارة.

-٥٣-

وفى أكتوبر ١٩٦٢ وأثناء محاكمتى عقد المؤتمر اجتماعه السنوى الأول منذ عام ١٩٥٩ ولأن المنظمة كانت غير قانونية فقد عقد الاجتماع فى لوباتشى على حدود بتشوالاند وكان الاجتماع علامة مميزة لأنه أعلن صلة المؤتمر بـ MK وأشار إليها على أنها الجناح العسكرى للمعركة وكان ذلك قد تم للقضاء على أعمال إرهاب غير مسئولة تقوم بها منظمة موكو التى لها روابط ضعيفة مع PAC وكانت تستهدف المتعاونين من الأفارقة والبيض.

وكانت أعمال الإرهاب ضد سلطات البانتو قد تزايدت؛ وذلك لأن الحكومة كانت قد قننت النظام وكان الناس قد ساهموا فى تقنينه بالتصويت عليه ولو بالمعارضة وكان فورستر وقتها وزيرا للعدل وكان يؤمن بأن القبضة الحديدية هى الرد الوحيد على أعمال العصيان.

وفى مايو ١٩٦٣ طبقت الحكومة تشريعا كان الهدف منه كسر ظهر MK حسب تعبير فورستر وعرف القانون باسم قانون الحجز لمدة ٩٠ يوما الذى كان يعطى أى شرطى الحق فى احتجاز أى شخص دون أمر بالقبض عليه على أساس الشك فى ارتكابه جريمة سياسية. وكان بالإمكان مد أمد الأيام التسعين إلى مالا نهاية وقد حول القانون

البلاد إلى دولة بوليسية وأصبحت الشرطة أكثر شراسة وكان المساجين يضربون ويعذبون بالصدمات الكهربائية والخنق ولم يعارض القانون فى البرلمان سوى هيلين سوزمان من الحزب التقدمى.

وتزايدت العقوبات لعضوية المنظمات غير القانونية وكانت العقوبة على ما يسمى مساعدة أهداف الشيوعية تتراوح بين الخمس سنوات والإعدام وكان ذلك القانون قد طبق فى حالة سوبوكوى الذى كانت مدة عقوبته قد انتهت ولكن الحكومة جددت سجنه بدون تهمة جديدة وأرسلته إلى جزيرة روبن كما طبق قانون تحديد الإقامة بالمنازل وقوانين أخرى عنيفة وفق مشيئتها. كما صدر قانون بعدم نشر أو ترديد أية مقولة لشخص محظور. وفى عام ١٩٦٢ أوقفت صحيفة العهد الجديد وأصبح امتلاك أى إصدارات غير قانونية يعاقب عليه بالسجن.

-٥٤-

وفى ليلة قرب نهاية مايو أخبرت أنا والسجناء السياسيون الآخرون أنه سيتم نقلنا إلى جزيرة روبن. ونقلنا إلى كيب تاون وكنا أربعة موثقين معا ونقلنا فى حافلة شرطة مغلقة ليس بها نوافذ وبها دلو. واستمرت الرحلة طوال الليل ومعظم النهار. ولم يكن من السهل لأربعة أشخاص موثقين معا أن يستعملوا دلوا فى عربة تتحرك.

وكان رصيف الميناء فى الكيب يعج بأفراد الشرطة المسلحين ونقلنا إلى معدية خشبية وحيث وقفنا كانت هناك فتحة صغيرة بالسقف يروق

للحراس للتبول منها على رءوسنا. ووصلنا إلى الجزيرة قبل الغروب.

وكنت قد سمعت عن تلك الجزيرة وأنا طفل وكانت الجزيرة معروفة بين الإكسهوسا لأن أحد قادتهم كان قد نفى إليها عام ١٨١٩ لقيادته معركة ضد الإنجليز. وحاول الهرب بقارب ولكنه غرق قبل أن يصل إلى الشاطئ ولم يُعرف عن أحد أنه نجح فى الهرب منها سوى شخص كان قد نفاه هناك جان ڤان رايبيك عام ١٦٥٨.

وكانت الجزيرة قد تحولت إلى مستعمرة لمرض البرص ومعقل للمجانين وقاعدة بحرية ثم أصبحت مؤخرا سجنا مرة أخرى.

واستقبلنا مجموعة من السجانين البيض الأفظاظ وهم يصيحون «هذه هى الجزيرة وهنا ستموتون» وكان أمامنا مجمع تحيطه مراكز حراسة واصطف الحراس المسلحون على طول الممر المؤدى للمجمع. وصاح سجان طويل ذو وجه أحمر قائلا «إنى هنا رئيسكم» وكان أحد الأخوين كلينهانسن المشهورين بوحشيتهم فى معاملة السجناء وبينما كنا نسير تجاه السجن أخذ الحراس يصيحون «اثنين اثنين» ثم طلبوا منا أن نجرى وهنا قلت لزميلى إن علينا أن نعطى مثلا لأننا إذا خضعنا الآن فسنظل تحت رحمتهم وأخذنا نسير ببطء. كنا فى المقدمة وهددنا كلينهانسن لكننا ثابرنا فى السير بخطوات وئيدة. ولما وصلنا إلى الزنزانات أُخذنا إلى غرفة مستطيلة تغطى أرضيتها المياه وأمرنا أن نخلع ملابسنا وكنا كلما خلعنا قطعة التقطها الحراس وفحصوها ثم أغرقوها فى الماء ثم بعد ذلك أمرنا بارتداء الملابس المشبعة بالمياه.

ثم أخذنا إلى زنزانتنا وكانت أفضل زنزانة رأيتها فقد كانت النوافذ كبيرة وكانت بإمكاننا رؤية السجانين والنزلاء وهم يسيرون. وكانت الزنزانات متسعة ولها مراحيضها وحماماتها. ولكن أُمرنا ألا نحادث أحدا من النوافذ.

بعد ذلك علمنا أنه يوجد بالجزيرة أكثر من ألف مسجون من الأفارقة وكانوا كلهم قد وصلوا حديثا وكنت أعلم أنه لابد أن يكون بينهم بعض السجناء السياسيين وحاولت الاتصال بهم ولكننا كنا معزولين تماما. ولما طلبنا أن نخرج للعمل كبقية السجناء نُفِذ طلبنا لكننا كنا نخرج منفردين وكان يشرف علينا أحد الأخوين كلينهانسن. وأوكل إلينا ردم بعض الأنابيب التى كان قد تم تركيبها حديثا وكنا نعمل بجد طوال اليوم.

وكان مراقبنا هو الأخ الأكبر ولابد أن أخاه قد حذره وطلب منه أن يضبط نفسه لأنه لم يحدث وأن لمسنا. وحدث ذات يوم بينما كنا عائدين من العمل فى رفقة الأخ الأصغر أن توقف ليتحدث إلى أخيه واستدرت لأنظر إلى بعض المساجين الآخرين الذين كنت أعرف شخصياتهم وهنا أمرنى بوقاحة ألا أفعل ذلك وشعرت أن كبريائى قد جرحت فى حضور المساجين الآخرين ورفضت أمره فتقدم وهو ينوى مهاجمتى ولكن حينما اقترب منى جرى إليه أخوه هامسا فى أذنه وسحبه بعيدا.

وحينما بدأت أعمل فى السجن شعرت بحياة المساجين فى الجزيرة.

وقامت السلطات بنقل بعض المساجين التابعين لـPAC إلى زنزانة مقابلة وكنا نستطيع فى الليل التحدث معهم واكتشفت أن بينهم ابن أخ لى لم أكن قد رأيته منذ أن كان رضيعا. وذات ليلة سألنى، فيما تجمع الآخرون حوله، عن التنظيم الذى أنتمى إليه. وحينما قلت إنه المؤتمر،تغيرت تعبيرات أوجههم واختفوا من وراء النافذة. ثم عاود ابن أخى وسألنى ما إن كنت قد أنتميت أبدا إلى PAC وحينما أجبت بالنفى قال إنه قد فهم أننى التحقت بـPAC أثناء رحلتى فى إفريقيا فأجبته بالنفى واستاء الجميع أوقفوا التحدث معنا.

وذات ليلة حضر إلينا أحد الضباط وأمرنا أن نجمع أغراضنا. ورحّل الثلاثة الآخرين واستُبقيت أنا. وفى الصباح الباكر نُقلت إلى بريتوريا وكانت الحجة التى أذاعتها مصلحة السجون أن النقل قد تم لحمايتى من تهديدات أعضاء PAC وكان ذلك كذبا لأننى نقلت لأسبابهم الخاصة التى سرعان ما وضحت وسُجنت انفراديا فى سجن بريتوريا ولكننى تمكنت من تبادل الاتصالات مع أعضاء المؤتمر هناك وعلمت أنه قد تم القبض على بعض كوادر الـMK بعد انتهاء تدريباتهم فى أثيوبيا. وعن طريق القنوات السرية حاولت مساعدتهم فى المحاكمة وعرضت عليهم الاتصال بهارولد وولب للدفاع عنهم لكننى علمت أنه فى الحجز. فأيقنت أن شيئا ما قد حدث. وكان قد صدر أمر بالحظر على وينى فى أوائل ١٩٦١ لمدة سنتين. وذات يوم فى يوليو ١٩٦٣ وبينما كنت سائرا فى الممر المؤدى إلى زنزانتى رأيت توماس ماشيفان الذى كان رئيسا للعمال فى المزرعة. ورغم أننى فهمت أن السلطات قد

دبرت ذلك اللقاء لتتأكد من معرفتى إياه فقد حييته بحرارة وكان وجوده يعنى أن السلطات قد اكتشفت ريفونيا. وبعد يومين استدعيت إلى مكتب السجن حيث وجدت وولتر وچوفان مبيكى وأحمد كاثرادا وأندرو مالفجينى وريموند مهلابا عضو القيادة العليا لـMK الذى كان قد عاد من الصين بعد إتمام تدريبه. ووجهت إلينا تهمة التخريب وكان علينا الظهور فى المحكمة فى اليوم التالى. كنت قد قضيت تسعة أشهر من سنوات سجنى الخمس.

وبالتدريج علمت ما حدث. ففى عصر يوم دخلت شاحنة تنظيف ملابس إلى المزرعة ولم يكن أحد قد طلب تسليم شئ. وحينما حاول حارس إفريقى استيقافها هاجمه عشرات رجال الشرطة المسلحين وقفزت الكلاب البوليسية من الشاحنة وأحاطوا بالمزرعة وفتشوا المبانى وتم القبض على الجميع بما فيهم آرثر جولدريتش. وتمت مصادرة مئات الوثائق والأوراق وبضربة واحدة ألقت الشرطة القبض على جميع أعضاء قيادة MK وألقى بهم فى الحجز طبقا للقوانين المستحدثة. ولحسن الحظ كان چوسلوڤو وبرام فيشر غير متواجدينْ.

ووجهت إلينا تهمة التخريب وبعد أيام قليلة سمح لنا بمقابلة هيئة الدفاع وأخبرنا برام فيشر أننا نواجه محاكمة شديدة الخطورة وأن الدولة ستطالب بإعدامنا.

-٥٥-

وفى أكتوبر ١٩٦٣ نقلنا فى شاحنة شرطة مسلحة إلى قصر العدالة

فى بريتوريا حيث تنعقد المحكمة العليا فيما أصبح يعرف باسم قضية الدولة ضد نيلسون مانديللا وآخرين أو محاكم ريڤونيا. وأحاطت بنا شاحنات الشرطة. وهناك كانت تقف عربات شرطة بها كبار مسئوليها. وكانت المحكمة تعج بالرجال المسلحين. واقتدنا إلى المدخل الخلفى تحاشيا للمؤيدين الذين كنا نستطيع سماعهم وهم ينشدون. وبدأت ما اتفق على أنه أهم محاكمة سياسية فى تاريخ جنوب إفريقيا. ودخلنا قاعة المحكمة وكل منا فى حراسة اثنين من رجال الشرطة المسلحين. وقمنا برفع قبضات أيدينا بتحية المؤتمر ورددنا هتافاتنا التى رد عليها الجمهور. وقامت الشرطة بتصوير الحضور وأخذ بياناتهم قبل مغادرة القاعة. وكانت القاعة مليئة برجال الصحافة المحليين والأجانب ومندوبى الحكومات الأجنبية. وكون رجال الشرطة حاجزا بيننا وبين الجمهور. وكانت الحراسة قوية وخاصة لأن قبل ذلك بأسابيع كان آرثر جولد وهارولد وولب وموسى موولا وعبدالحى جاسات قد نجحوا فى الهرب وتمكن آرثر وهارولد من عبور الحدود متخفين كقساوسة إلى سوازيلاند ومنها إلى تنجانيقا. وقد أحدث هربهم حالة من الهستريا ورُحب به بعناوين رئيسية فى الصحافة مما سبب الإحراج للحكومة.

وكان القاضى فى محاكمة ريڤونيا هو كوارتس دى ويت أحد آخر قضاة كان قد عينهم حزب المتحدين. أما الادعاء واسمه بيرس يوتار فكان شخصا ميلودراميا غير دقيق التعبير ذا صوت كالصرير حينما يغضب. وقدم يوتارِ عريضة الاتهام وطلب محاكمة فورية مختصرة.

وكنت المتهم الأول. وكنا نحن الأحد عشر متهمين بالاشتراك فى أكثر من مائة عمل تخريبى تهدف إلى تسهيل الثورة المسلحة والغزو المسلح للبلاد وادعت الدولة أننا أعضاء مؤامرة لقلب نظام الحكم وكانت العقوبة القصوى هى الإعدام وطبقا لقانون التخريب فكان العبء على الدفاع ليثبت براءة المتهم.

وطلب فيشر التأجيل على أساس أن الدفاع لم يُعط فرصة لتحضير القضية ومنحنا القاضى ثلاثة أسابيع.

وطلبت وينى من وزير العدل السماح لها بالحضور وكانت تحت قرار حظر فوافق على شرط ألا ترتدى الزى الوطنى.

وفى يوم ٢٦ أكتوبر دخلنا مرة أخرى إلى قصر العدالة وكانت الجموع كبيرة ومهتاجة وكانت الحراسة قوية للغاية ومرة أخرى كان هناك العديد من الضيوف الأجانب ذوى الشأن.

وبدأنا الهجوم على الفور ووصف فيشر عريضة الاتهام بأنها زائفة وتحوى تفاهات كاتهامى بالاشتراك فى أعمال تخريبية فى وقت كنت فيه فى السجن ونظر القاضى إلى يوتار طالبا التوضيح وبدلا من أن يقدم تفصيلات بدأ ما وصفه القاضى بأنه خطبة سياسية وحينئذ قال له القاضى «إن أساس اتهامك كما أفهمه هو اقتناعك الشخصى بأنهم مذنبون» وألغى أمر الاتهام وأنهى الجلسة.

وأصبحنا فنيا فى تلك اللحظة طلقاء وساد الهرج القاعدة وأعيد القبض علينا حتى قبل أن يغادر دى ويت مقعده.

وأعادت الدولة صياغة عريضة الاتهام وعدنا إلى المحكمة أوائل ديسمبر. ولاحظنا أن دى ويت كان أكثر عداء هذه المرة وقُرِأت الاتهامات الجديدة وكانت هى أننا جندنا أشخاصا للقيام بأعمال تخريب والبدء فى ثورة مسلحة وأننا تآمرنا لمساعدة غزو عسكرى أجنبى لنبدأ ثورة شيوعية وأننا استشرنا دولا أجنبية وتلقينا منها مساعدات لهذا الهدف.

وعندما نودى علينا قرر كل من المتهمين أن يوحى بأن الحكومة هى المجرمة قبل أن يقرر أنه غير مذنب.

وفى كلمته أكد يوتار أننا كنا نخطط لعشرة آلاف من الفدائيين المدربين ليبدأوا ثورة يعقبها غزو عسكرى أجنبى وبعد ذلك تقام حكومة إقليمية ثورية وأن أداة تلك الخطة هى MK تحت الإدارة السياسية للمؤتمر والحزب الشيوعى وأن المقر الرئيسى لـ MK كان ريڤونيا. ثم قام بوصف لنشاطاتنا التى ضمنها إقامة محطة إرسال إذاعى فى ريڤونيا ومسئوليتنا عن مائتين واثنين وعشرين عملا تخريبيا وتجنيد الأعضاء وإقامة مدرسة تدريبية فى الكيب وإنتاج قنابل متنوعة وجمع الأموال من الخارج. وأثناء الشهور الثلاثة التالية أتت الدولة بمائة وثلاثة وسبعين شاهدا وضمت إلى سجل القضية آلاف الوثائق والصور.

وكنا فى حيرة من أمر ما تمتلكه الدولة من أدلة ضدى فقد كنت خارج البلاد وفى السجن فى الفترة التى حدث فيها التخطيط فى ريڤونيا.

وكنت حينما رأيت وولتر فى سجن بريتوريا المحلى قد طلبت منه أن ينقل كل كتبى ومذكراتى من الضيعة. ولكن خلال الأسبوع الأول للمحاكمة وحينما طلب راستى برينشتاين الإفراج بكفالة أبرز يوتار بطريقة درامية خريطة القلعة التى كنت قد رسمتها والمذكرة الملحقة بشأن خطة الهرب وصاح قائلا إن ذلك دليل على أن جميع المتهمين من الممكن أن يخططوا للهرب. وكان ذلك علامة على أن شيئا من متعلقاتى لم ينقل من ريفونيا.

وكان شاهد الدولة الرئيسى هو زولو من دربان ويدعى برونو متولو أو السيد X كما سُمى فى المحكمة وكان يوتار قد ذكر بلهجة مسرحية أن حياة الشاهد فى خطر جسيم، وكان متولو ذا ذاكرة حادة وكان قائد الفرع MK فى ناتال كما كان خبيرا فى أعمال التدمير وقد زار ريفونيا وكنت قد ألقيت خطابا فى كوادره فى ناتال عقب عودتى وقابلته هناك. وكانت شهادته دقيقة عن العمليات التى قام بها وعن استعمال القنابل وعن نشاطاتنا السرية وقال إنه لم يفقد الإيمان بمثل المؤتمر لكنه فقد الثقة فى المنظمة بعد أن تبين أنهاMK هى أداة للحزب الشيوعى. وأدلى شهادته ببساطة وتظاهر بالصراحة ولكنه أدخل إضافات -غالبا بناء على تعليمات الشرطة- كقوله إننى قلت لهم إن على كوادر MK أن يكونوا شيوعيين بدون الإعلان على آرائهم وبدا ذلك صحيحا فى سياق التفاصيل الدقيقة التى رواها. وقد أذهلتنى خيانة متولو الذى لم يتعرض للتعذيب والذى ذكر أسماء أبرياء كثيرين مُورطا إياهم فى القضية دون داع.

ومن خلال مساءلة الدفاع له اكتشفنا أن متولو كان مجرما حقيرا قبل التحاقه بـMK وكان قد سجن ثلاث مرات بتهمة السرقة ولكن بالرغم ذلك فقد كانت لشهادته أثرها المدمر لأن القاضى وجده أهل ثقة وكانت شهادته إدانة لنا جميعا.

وكان مفتاح القضية ضدنا هو خطة العمل المكونة من ست صفحات والتى صادرتها الشرطة عند الهجوم على ريڤونيا. وكانت حينئذ أمام القادة على المائدة وكانت تدعى عملياً مايبوبى وهى عبارة عن تخطيط مبدئى للعمليات الفدائية الممكنة وكيفية اشعال ثورة جماهيرية مسلحة ضد الحكومة وكانت قضية الادعاء ترتكز على أنه قد تمت الموافقة على العملية من قِبل اللجنة التنفيذية للمؤتمر وتمسكنا نحن بقولنا إنها كانت مازالت موضع مناقشة وقت الهجوم. وكنت أنا قد رأيت آنذاك أن العملية غير واقعية فى أهدافها وخططها.

-٥٦-

واستمرت قضية الدولة حتى ٢٦ فبراير ١٩٦٤. وبعد ذلك منحنا مدة شهر أو أكثر قليلا لفحص الأدلة وإعداد الدفاع وكانت أدلة الدولة لا تُجرِّمنا جميعا بنفس الدرجة فلم يكن هناك دليل ضد جيمس كانتور. أما راستى بيرنشتاين وريموند مهلابا وأحمد كاثرادا فكان دليل تورطهم فى المؤامرة ضئيلا. وقرر بقيتنا الستة الاعتراف بأننا مذنبون فى تهم معينة.

كان برام فيشر متشائما. أما نحن فكنا قد قررنا منذ البداية أن

هدفنا هو استغلال المحاكمات منصات نعلن منها عقائدنا. فلم يكن همنا هو أن تبرأ ساحتنا أو تخفف الأحكام ضدنا لكن أن تدعم المحاكمة القضية التي نناضل من أجلها. وكان دفاعنا عن أنفسنا ينصب على وجهة النظر الأخلاقية. فمثلا قررنا إثبات عدم صحة ادعاء الدولة بأننا بدأنا حرب عصابات لكننا قررنا الاعتراف بأنه كانت لدينا خطط بديلة لاستعمال حرب العصابات في حالة فشل أعمال التخريب.. وكنا أيضا سننفى أية تهمة قتل أو إضرار لحق بأى شخص برئ وكذلك الاتهام بأننا قد فكرنا في تدخل قوات أجنبية. أما بخصوصى فكان هناك من الأدلة ما يكفى لإدانتى.

وكنت الشاهد الأول وقررت بدلا من الخضوع للاستجواب أن أقوم بإلقاء بيان وكان ذلك الإجراء كما حذرنى المحامون سيعرّضنى لأن يستبعد القاضى أى شئ فى بيانى يخص براءتى. لكن اهتمامنا الأول كان أن نبدأ الدفاع ببيان عن سياستنا يكون هو السياق لما يتلوه.

وقضيت أسبوعين أُحضِّر بيانى ثم قرأته على زملائى وأقروه مع اقتراحات ببعض التغييرات. ولكن عندما قرأه فيشر وعرضه على أحد المحامين رجانى أن أعدله وإلا فلا أمل لى. لكننا كنا نعتقد أن احتمال حكم الإعدام وارد فلا أقل من أن نقول ما نعتقده.

وفى يوم الإثنين ٢٠ إبريل وتحت الحراسة المشددة أُخذنا إلى صالة العدالة لبدء الدفاع وكانت وينى هناك مع والدتى وكانت القاعة مكتظة.

وأعلن برام فيشر موافقة المتهمين على بعض أجزاء أدلة الدولة وقال إن

الدفاع سينكر بعض ما أكدته الدولة بما فيها أن MK هى الجناح العسكرى للمؤتمر لأن قادة المنظمتين حاولوا دائما إبقاءهما منفصلتين. وأنكر بشدة أن MK كانت تتلقى أوامرها من الحزب الشيوعى وأن جولدبيرج وكاثرادا وبيرنشتاين أعضاء فى MK ثم قرر أنه سيبرهن على أن MK لم تتبن عملية مايبيورلى وأنها لم تبدأ الإعداد لحرب العصابات. وبصوته الخفيض أعلن أن قضية الدفاع ستبدأ ببيان فى قفص الاتهام يلقيه المتهم الأول الذى اشترك شخصيا فى تأسيس MK.

وهنا ثار يوتار الذى كان قد أعد العدة لاستجوابى لكن القاضى تجاهله. ووقفت فى مواجهة المحكمة وقرأت بيانى ببطء.

قلت إننى المتهم الأول وإننى الآن سجين أقضى عقوبة مدتها خمس سنوات وإننى قد ساعدت فى إنشاء MK وقلت إننى فعلت ما فعلت كفرد وقائد نتيجة لتجربتى فى جنوب إفريقيا ولخلفيتى الإفريقية التى أفخر بها.

ثم ذكرت لهم ظروف نشأتى وكيف غرست فى نفسى الفخر بكل ما هو إفريقى مما جعلنى آمل أن تتاح لى الفرصة أن أخدم شعبى وأقدم مساهمتى المتواضعة فى معركة حريتهم وأن تلك هى دوافعى فى كل ما فعلت وتتعلق بالتهم الموجهة لى فى تلك القضية.

ولم أنكر أننى خططت لبعض أعمال العنف ليس حبا فى العنف ولكن نتيجة لتقييم هادئ للموقف السياسى الذى وجد نتيجة سنوات عديدة

من الطغيان والاستغلال والاضطهاد من جانب البيض لشعبى. ثم وضحت كيف أن خمسين عاما من عدم العنف من جانب المؤتمر لم ينتج عنها سوى القوانين الظالمة والاستغلال والاضطهاد للأفارقة وهكذا بدت السياسة التى تهدف إلى إقامة الدولة غير العنصرية عن طريق عدم العنف غير مجدية وذكرت أننا شعرنا أن البلد فى سبيله إلى حرب أهلية بين السود والبيض مما كان سيستحيل معه إقامة سلام فى المستقبل بين الأعراق المختلفة. وعلى ذلك بدت أعمال التخريب الأمل الوحيد لعلاقات سليمة مستقبلية بين الأعراق وكان رد الدولة على مجهوداتنا الأولية سريعا ووحشيا. ثم قلت إن التمرد سيعطى للحكومة فرصا لا نهائية لارتكاب المذابح ولأن تربة جنوب إفريقيا مازالت مشبعة بدماء الأفارقة الأبرياء فقد رأينا أن نعد أنفسنا على المدى البعيد لاستعمال القوة فى مواجهة القوة فإن كانت الحرب أمرا محتوما فقد أردنا للمعركة أن تجرى فى ظروف مواتية لنا وأن الحرب الوحيدة ذات الاحتمالات المواتية لنا والتى تقلل من المخاطرة بحياة الأفراد من الطرفين هى حرب العصابات. ولهذا قررنا أن نعد لإمكانية قيام حرب عصابات.

ثم ذكرت ظروف مغادرتى البلاد والتدريب العسكرى الذى تلقيته ثم ذكرت الخط الفاصل بين المؤتمر وMK ثم فندت دعاوى الدولة من أن أهداف المؤتمر والحزب الشيوعى واحدة مؤكدا أن المؤتمر كان مبدؤه دائما القومية الإفريقية وليس إلقاء الرجل الأبيض فى البحر وأن أهم وثائقه هى ميثاق الحرية ولم يفكر فى أى وقت فى تغيير البنية

الاقتصادية للبلاد. فبينما يعمل الحزب الشيوعى على التأكيد على تفاوت الطبقات يعمل المؤتمر على التناسق بين الطبقات. ثم أضفت أن التعاون بين الحزب الشيوعى وبين المؤتمر هو تعاون من أجل إنهاء سيادة الرجل الأبيض وأعطيت مثالا بتحالف بريطانيا وأمريكا والاتحاد السوفييتى ضد هتلر.

وذكرت أنه لعقود عدة كان الشيوعيون هم المجموعة الوحيدة السياسية فى جنوب إفريقيا التى تعامل الأفارقة كآدميين وأنداد ولهذا السبب فهناك أفارقة اليوم يميلون إلى مساواة الحرية بالشيوعية. ولم أنكر أن فكرة المجتمع اللاطبقى قد لاقت من نفسى قبولا وأن الفكر الماركسى قد أثر فى وقلت إن هذا ينطبق على كثير من القادة الأفارقة فى الدول حديثة الاستقلال الذين تقبلوا الحاجة إلى شكل من أشكال الاشتراكية ليمكنوا شعوبهم من اللحاق بالدول المتقدمة فى الغرب. ورغم ذلك فإننى أنظر إلى النظام البرلمانى البريطانى كأكثر النظم ديمقراطية فى العالم وكذلك هى نظرتى للنظام البرلمانى الأمريكى.

وبعد ذلك فصّلت الفوارق الرهيبة بين حياة البيض والسود فى جنوب إفريقيا وذكرت أن البيض يدعون أن الأفارقة فى جنوب إفريقيا أحسن حالا من الأفارقة فى أنحاء القارة وقلت إن شكوانا ليست أننا فقراء بالنسبة لغيرنا من الأفارقة ولكن أننا فقراء.. بالمقارنة بالبيض فى بلدنا وأننا ممنوعون من إصلاح هذا الوضع.

واستطردت قائلا إن انعدام الكرامة الإنسانية الذى يعانى منه الأفارقة

لهو نتيجة مباشرة لسيادة البيض، وإن التشريع الذى هدفه أن يحافظ على تلك السيادة يعمق تلك السيادة. فالمهمات الحقيرة يقوم بها الأفارقة. الفقر وانهيار الأسرة أشياء لها آثارها الأخرى. فالأطفال يجوبون الشوارع لأن ليس لديهم مدارس يذهبون إليها أو والدان يرسلانهم إلى المدرسة لأن على كل من الوالدين أن يعمل ليقيم أود أولادهم وهذا يؤدى إلى انهيار المعايير الأخلاقية وارتفاع عدد اللقطاء وتفجر أعمال العنف السياسية وغيرها.

وقلت إننى أعرف أن مطالبة الأفارقة بحقوق متساوية يبدو ثوريا للبيض لأن معظم الأصوات ستكون للسود ولهذا يخاف الرجل الأبيض من الديمقراطية. وختمت كلمتى وسط صمت تام فى القاعة وأنا أنظر إلى القاضى دى ويت وقلت:

لقد كرست نفسى لمعركة الشعب الإفريقى هذه وناضلت ضد سيادة البيض وناضلت ضد سيادة السود فقد اعتنقت مبدأ مجتمع حر وديمقراطى حيث يعيش جميع الأفراد فى تآلف ويكون لديهم فرص متساوية وهذا هو المثل الأعلى الذى آمل أن أعيش من أجله وأحققه. ولكن إذا احتاج الأمر فهو المثل الأعلى أيضا الذى أنا على استعداد كى أموت من أجله.

وجلست، وساد القاعة صمت بدا كما لو أنه امتد دقائق عديدة ولكنه فى الواقع لم يستمر أكثر من ثلاثين ثانية، وعندئذ، ومن مقاعد الجمهور سمعت ما قد بدا وقتها وإنه تنهيدة عظمى جماعية تلاها بكاء

النساء.

وكانت كلمتي قد استمرت أربع ساعات وكانت الساعة قد تخطت الرابعة وهو ميعاد رفع الجلسة عادة، لكن القاضي دي ويت طلب الشاهد التالي لأنه كان مصمما على تخفيف وقع بياني ولكن لم يفلح أي شئ فعله في تخفيف الوقع. وحينما فرغت من كلمتي وجلست كانت تلك آخر مرة يواجه فيها دي ويت نظراتي.

ولاقت كلمتي ردود فعل ضخمة في الصحافة المحلية والأجنبية ونشرتها الديلي راند كاملة رغم قرار حظر كلماتي. وكانت الكلمة قد بينت خط دفاعنا وجعلت الادعاء أعزل نظرا لأنه كان قد أعد للقضية على أساس أنني سأقوم بالإدلاء بالشهادة محاولا إنكار مسئوليتي عن أعمال التخريب.

وجاء دور المتهم الثاني، وولتر سيسولو، وكان عليه أن يتحمل الاستجواب الذي كان يوتار قد أعده لي ولكن وولتر تحمل سيل الأسئلة العدائية وسما على حقارة يوتار. وجاء بعد ذلك دور جوڤان الذي روى بفخر تاريخ عضويته للحزب الشيوعي وكذلك فعل أحمد كاثرادا ورستي بيرنشتاين وقد أنكر كاثرادا ارتكاب أعمال تخريب أو تحريض للآخرين ولكنه قال إنه يؤيد تلك الأفعال إن كانت تخدم المعركة.

وكان خطاب يوتار النهائي عبارة عن تلخيص مشوه لقضية الادعاد مليئا بالإهانات حتى أن القاضي دي ويت بدا متحيرا إزاء بعض

المعانى التى قصدها يوتار وعند نقطة معينة قاطعه متسائلا إن كان يوافق على أنه قد فشل على أن يبرهن أن قرارا كان قد اتخذ بشأن حرب العصابات.. وأحيا ذلك لدينا الأمل.

ورد مستشار الدفاع على النقط التى أثارها يوتار فى كلمته. وكذلك بيّن برام فيشر التناقضات والادعاءات الكاذبة التى وردت فى كلمة الادعاء. ولكن دى ويت قاطعه قائلا إنه مقتنع أنه لم يتخذ قرارا بشأن حرب العصابات وأن المؤتمر منظمة منفصلة عن MK. وتأجلت الجلسة ثلاثة أسابيع لدراسة الحكم.

-٥٧-

وكان العالم مهتما بمحاكمة ريفونيا. أُقيمت صلوات طوال الليل فى كاتدارئية سان بول فى لندن وانتخبنى طلبة جامعة لندن رئيسا للاتحاد غيابيا ودعا فريق من المختصين فى الأمم المتحدة إلى عقد مؤتمر قومى فى جنوب إفريقيا لانتخاب برلمان يمثل حقيقة الشعب ودعوا إلى العفو عن جميع المعارضين للأبارتايد وقبل أن يتخذ القاضى دى ويت قراره بيومين حث مجلس الأمن فى غياب أربعة أعضاء من بينهم بريطانيا والولايات المتحدة حكومة جنوب إفريقيا إلى إنهاء المحاكمة والعفو عن المتهمين.

وفى الأيام التى سبقت إعادة انعقاد المحكمة كنت قد أديت امتحان ليسانس الحقوق لجامعة لندن وكان السجانون يعلقون على ذلك بقولهم إننى لن أحتاج لدرجة فى القانون حيث أنا ذاهب. وكانت تلك الطريقة

منعتنى عن التفكير فى المحاكمة بطريقة سلبية. ونجحت فى الامتحان.

ويوم الخميس ١١ يونيو اجتمعنا ثانية بقصر العدل وكنا فقط ننتظر نوع العقوبة:

وبدون إضاعة وقت نطق دى ويت بالحكم وكان إدانة المتهمين الرئيسيين فى التهم الأربع الموجهة إليهم أما كاثرادا فقد ثبتت عليه تهمة واحدة وثبتت براءة راستى بيرنشتاين. وتأجل النطق بالعقوبة حتى اليوم التالى لكى تُعطى الدولة والدفاع فرصة لتقديم أية وثائق يرونها.

وبعد مناقشات قررنا أننا لن نستأنف الحكم حتى ولو كان حكما بالإعدام لأن الاستئناف يقوض الموقف الأخلاقى الذى التزمنا به وكبرياءنا فيما فعلنا وعبرنا عنه. كما أننا لم نكن نريد أن نعوق الحملة الجماهيرية التى لابد وأن تتفجر فى حالة الحكم بإعدامنا وكان رأينا أن الاستئناف سيكون هبوطا مفاجئا للخط الذى التزمنا به وإحباطا للآمال.

وكنت مستعدا للحكم بالإعدام ولكى يكون الإنسان مستعدا بحق فلابد له وأن يتقبله بالفعل فلا يستطيع الإنسان أن يكون مستعدا لشئ إذا كان يؤمن فى أعماقه أن لن يحدث. وكنا جميعا مستعدين ليس لكوننا شجعانا ولكن لكوننا واقعيين.

-٥٨-

وفي يوم ١٢ يونيو ١٩٦٤ دخلنا المحكمة للمرة الأخيرة وكان قد مر عام تقريباً منذ الهجوم على ريڤونيا. وكانت احتياطات الأمن غير عادية. وهرعت بنا حافلة الشرطة عبر الشوارع مطلقة صفاراتها ولم يسمح بالمرور في الشوارع المؤدية للمحكمة. وبرغم إجراءات التخويف فقد تجمع حوالي ألفي شخص أمام المحكمة رافعين شعاراتهم. وفي الداخل امتلأت مقاعد النظارة عن آخرها. ولوحت محيبا ويني ووالدتي. وقبل النطق بالحكم تكلم هارولد هانسون وآلان بيتون الكاتب ورئيس الحزب الليبرالي طالبين تخفيف الحكم حيث إنه لا يمكن تجاهل المظالم القومية وأن أهدافنا نفسها لم تكن إجرامية ولكن الوسائل المتبعة هي غير المشروعة. وتجاهل القاضي كلماتهما. ثم أشار إلينا بالوقوف وتكلم وهو يتحاشى نظراتنا وقال إنه استمع لكل ما قيل عن مظالم غير الأوروبيين وعن دوافع المتهمين التي كانت لرفع تلك المظالم لكنه شخصيا لا يعتقد في إيثارية دوافعهم إذ إنه في حالة قيام ثورة فإن هؤلاء القادة سيحتلون مناصب الحكومة وحيث إن الدولة قد قررت عدم اتهامهم بالخيانة العظمى فإنه بعد تفكير ودراسة قرر من منطلق التسامح ألا يحكم بالعقوبة القصوى وعلى ذلك فإن العقوبة لجميع المتهمين هي السجن مدى الحياة.

وساد الهرج قاعة المحكمة. وأخرجنا من الباب الخلفي ودخلنا الشاحنة السوداء التي سلكت طريقا مختلفا رغم ذلك كنا نسمع صيحات وهتافات الجماهير. وفُصلنا عن دينيس جولدبيرج لكونه أبيض. وسجن

الباقون فى زنزانات فى سجن بريتوريا المحلى بعيدا عن جميع السجناء الآخرين وبدلا من الهتافات والأغانى كنا نسمع فقط صرير الأبواب والبوابات.

وتلك الليلة وأنا مستلق على حصيرتى فى الزنزانة بدأت أراجع أسباب قرار دى ويت. فقد كانت المظاهرات قد عمت جميع أرجاء جنوب إفريقيا. كما أن الضغط الدولى كان لابد وأنه أثر فى قراره. فقد احتجت الاتحادات الدولية على المحاكمة وهدد اتحاد عمال السفن بمقاطعة التعامل مع بضائع جنوب إفريقيا وكتب بريجنيف إلى فيرويرد طالبا استعمال الرأفة واحتج بعض أعضاء الكونجرس الأمريكى وقام خمسون من أعضاء البرلمان فى إنجلترا بتسيير مسيرة وكانت هناك شائعات أن وزير خارجية بريطانيا قد تدخل من أجل المحاكمة كما كتب ممثل الولايات المتحدة يقول إن حكومته مستعدة لأى شئ من أجل أن تمنع صدور حكم الإعدام. وفكرت أنه بما أن دى ويت قد اقتنع أننا لم نبدأ حرب عصابات وأن المؤتمر وMK منفصلان فقد كان من الصعب عليه إصدار حكم بالإعدام.

وفى كل مساء فى سجن بريتوريا المحلى وقبل أن تطفأ الأنوار كانت تُسمع أصداء أغانى الحرية التى ينشدها السجناء وكنا نحن أيضا ننطلق بالغناء.■

8

الجزء الثامن

جزيرة روبن

السنوات المظلمة

-٥٩-

وفى منتصف إحدى الليالى أوقظنا واقتدنا عبر ممرات السجن وفى الخارج قيدنا نحن السبعة:وولتر، وريموند، وجوفان، وكاثرادا ، وأندرو، وإلياس، وأنا، وحشرنا فى الجزء الخلفى لشاحنة شرطة وفى أقل من نصف ساعة وجدنا أنفسنا فى مطار عسكرى قديم خارج المدينة ودُفعنا نحو طائرة نقل عسكرية عتيقة حملتنا إلى جزيرة روبن. وحينما رسونا قابلنا الحراس المسلحون بالأسلحة الأوتوماتيكية. ثم اقتدنا إلى السجن القديم وهو مبنى حجرى منعزل حيث أمرنا بخلع ملابسنا وألقى إلينا بالزى الكاكى الخاص بجزيرة روبن وكانت تعليمات الأبارتايد تشمل زى السجن فقد أعطى كاثرادا سروالا طويلا وجوربا. وأقسمت وأنا أرتدى السروال القصير ألا أرتديه طويلا.

وفى الصباح الرابع قيدت أيدينا ونقلنا فى شاحنة مغطاة إلى سجن داخل سجن. وكان ذلك عبارة عن قلعة مستطيلة من طابق واحد لها فناء إسمنتى فى المنتصف وكانت الزنزانات تحتل ثلاثة من الجوانب الأربعة أما الجانب الرابع فكان جدارا ارتفاعه عشرون قدما.

وخصصت لكل منا زنزانة وكان لكل زنزانة نافذة مساحتها قدم مربع مغطاة بالحديد وبابان أحدهما من المعدن وله قضبان حديدية وخارجه باب من الخشب الثقيل وفى أثناء النهار كان الباب المعدنى يوصد أما أثناء الليل فكان البابان يوصدان.

ولما شكوت إلى الضابط من رطوبة الجدران قال إن أجسادنا ستمتص الرطوبة وتم صرف ثلاث بطانيات رقيقة بالية لدجة الشفافية وحصيرة من القش لكل منا ثم أضيف إليها حصيرة من اللباد وكانت الزنزانات فى ذلك الوقت من السنة شديدة الرطوبة لدرجة أننا كنا ننام بملابسنا كاملة.

ولحق بقسمنا بعد ذلك عدد آخر من المسجونين السياسيين كانوا فى القسم العام مثل جورج بيك أحد مؤسسى منظمة ملونى جنوب إفريقيا ودنيس برونس وهو مناضل آخر من الملونين وكان شاعرا وكاتبا وبيلى نير من المجلس الهندى لناتال ونيڤل الكسندر من المثقفين الملونين البارزين وعضو حركة غير الأوروبيين وآخرين وكونا مجموعة من عشرين سجينا سياسيا.

ويدأ فى الأسبوع الأول العمل الذى اشتغلنا به لعدة أشهر تالية. فكان يُلقى إلينا كل صباح بحمولة من الأحجار فى حجم الكرة فى مدخل الفناء وباستعمال عربات يد كنا ننقل تلك الأحجار الى منتصف الفناء وكان علينا أن نصحن تلك الحجارة بالمطارق ونحولها إلى حصى. وتم تقسيمنا إلى أربع مجموعات يفصل كل منها عن الأخرى حوالى ياردة ونصف وكنا نجلس على الأرض متربعين ثم كان كل منا يعطى حلقة سميكة من المطاط مصنوعة من إطارات السيارات القديمة نضع فيها الحجارة لمنع تناثر الشظايا التى كانت فى الواقع غير مؤثرة. وكنا نلبس أقنعة من السلك لحماية أعيننا وكان السجانون يمشون بيننا ليفرضوا الصمت والمساجين من الأقسام الأخرى يأتون ليحملقوا فينا كحيوانات متوحشة. وكان العمل صعبا ومملا وغير عنيف بالدرجة التى تجلب لنا الدفء ولكنه متعب بدرجة توجع مفاصلنا.

وكان الجو فى الجزيرة فى ذلك الوقت قارس البرودة وكنت أرتجف حتى وأنا فى الشمس وعند الظهيرة كنا نتوقف للغداء وكان فى الأسبوع الأول حساء كريه الرائحة.

وحدث أن تحديت السجانين بمحاولة مساعدة كاثرادا لتحريك عربة اليد المحملة بالحجارة، وفى الصباح التالى وضعت السلطات دلوا ضخما فى الفناء وأعلنوا أنه لابد وأن يملأ إلى منتصفه قبل نهاية الأسبوع، وفى الأسبوع التالى أعلنوا أن علينا أن نملأ ثلاثة أرباع الدلو فاجتهدنا ونجحنا وفى الأسبوع الثالث أمرنا أن نملأه حتى الحافة وكنا نعلن أننا لن نحتمل ذلك لمدة طويلة ولكن لم نفعل شيئا

وتمكنا من ملء الدلو لكن السجانين استفزونا. وفى الأسبوع الذى تلا ذلك بدأنا أول إضراب للعمل ببطء فى الجزيرة فقررنا أن نعمل بنصف السرعة التى عملنا بها للاحتجاج على المطالب المسرفة وعلى الفور فهم السجانون وأنذرونا لكننا لم نزد سرعتنا وأخذنا فى اتباع استراتيجية البطء مدة العمل فى الفناء.

وكانت جزيرة روبن قد تغيرت عما كانت عليه عندما كنت نزيلا بها عام ١٩٦٢ حيث كان المكان يبدو كتجربة أكثر منه سجنا متكاملا. وبعد سنتين من ذلك التاريخ كانت الجزيرة بدون شك أعتى وأقسى نقطة حدودية فى نظام العقوبات فى جنوب إفريقيا. وكان التقسيم العرقى هناك مطلقا فلم يكن هناك سجانون سود أو مساجين بيض. وهناك كنا معزولين تماما وكان عزاؤنا الوحيد وجودنا معا. لكن سرعان ما اختفى شعورى بالاستياء ليحل محله شعور أن معركة جديدة قد بدأت.

منذ اليوم الأول كنت قد احتججت على إجبارى على ارتداء السروال القصير وطالبت مقابلة مأمور السجن لإبلاغه بقائمة شكاواى وتجاهل السجانون احتجاجاتى. ولكن فى نهاية الأسبوع الأول وجدت سروالا طويلا ملقى على أرض زنزانتى ورغم فرحتى به فقبل أن أرتديه عرفت أنه لم يتم صرف سراويل مماثلة لزملائى وكان إصرارى أن يرتدى جميع الأفارقة السراويل الطويلة لكن مأمور السجن رفض وأخذ منى سروالى.

-٦٠-

وفى نهاية الأسبوعين الأولين أخطرنا أن محاميينا برام فيشر وجويل جوف سيزورانا فى اليوم التالى وكان الهدف من زيارتهما معرفة أحوالنا والتأكد من أننا لم نكن نرغب فى الاستئناف. وجلسنا فى الغرفة الخاوية وكنت أشعر برغبة شديدة فى معانقتهما لكن وجود الضابط معنا منعني وأخبرتهما أننا لا نرغب فى الاستئناف للأسباب التى ذكرناها سابقا. وحينما كنا على وشك إنهاء المحادثة سألت برام عن زوجته مولى ولكننى ما كدت أنطق بالاسم حتى نهض فجأة وخرج من الغرفة وبعد دقائق عاد مرة أخرى وقد تمالك نفسه. واستأنف الحديث. وانتهت مقابلتنا وبينما كنا فى طريقنا إلى زنزانتنا سألنى الضابط إن كنت قد عجبت لتصرف برام فيشر ولما رددت بالإيجاب أخبرنى أن مولى توفيت فى حادث سيارة فى الأسبوع الماضى وكان برام يقود السيارة حينما انحرف بها ليتفادى حيوانا فى الطريق وسقطت السيارة فى نهر وغرقت مولى. وصعقتنى الأنباء فقد كانت مولى امرأة مدهشة كريمة منكرة لذاتها وبدون تحيزات على الإطلاق. وكانت له زوجة وزميلة ورفيقة وكان برام قد خبر المآسى فى حياته عند وفاة ابنه فى سن المراهقة من مرض السكر. وكان تصرف برام عندما سألته متمشيا مع شخصيته فقد كان صبورا لا يحمل أصدقاءه آلامه ومشاكله. وكان كأفريكانى قد فرض عليه ضميره أن يرفض إرثه. ونبذه قومه. وأظهر مستوى من الشجاعة والتضحية لا نظير له. فقد كنت أنا أقاتل ضد الظلم وليس

ضد قومي.

وفي خلال شهر استقرت حياتنا وفقا لنمط معين في السجن. فإن حياة المعتقل روتينية تتماثل فيه الأيام حتى تختلط الأشهر والسنوات. وإن أي شئ يخرج عن القالب يقلق السلطات لأن الروتين علامة من علامات حسن الإدارة في السجن. وقد كانت الساعات من أي نوع ممنوعة وكنا نعتمد على الأجراس وصفارات السجانين وصيحاتهم لمعرفة الوقت. وكان من بين أوائل ما فعلته هو أن أسجل تقويما على الحائط فإن الإنسان إذا فقد قبضته على الوقت فقد قبضته على سلامة عقله.

إن التحدي الذي يقابل كل سجين وخاصة السجين السياسي هو المحافظة على ذاته في السجن وأن يخرج من السجن دون أن يتضاءل وأن يحتفظ بل ويزيد من عقائده. وأول مهمة لتحقيق ذلك هو أن يتعلم المرء كيف يبقى ولكي يتحقق ذلك فلابد للمرء أن يعرف هدف عدوه. فإن السجن يهدف إلى هزيمة معنويات الإنسان وتقويض عزمه ولكي يتحقق ذلك تحاول السلطات استغلال كل ضعف وتحطيم كل دافع وأن تبطل ما يدل على التفرد وذلك لكي تقضي على تلك الومضة التي تضفي على كل آدمي هويته.

وكان بقاؤنا يعتمد على فهم ما تحاول السلطة أن تفعله وتَشَارُك ذلك الفهم. كان من المستحيل أن يقاوم الفرد منفردا وكان خطأ السلطة الأكبر هو إبقاؤنا معا لأن ذلك قوّى تصميمنا. وهكذا عاون الأقوياء من

هم أقل قوة وصرنا جميعا أقوياء وفى النهاية فقد كان علينا أن نخلق حياتنا داخل المعتقل. وكما اعترفت بذلك السلطات فقد كنا نحافظ نحن على النظام أكثر من السجانين.

كنت حينذاك مهمشا ولكننى كنت أعلم أننى لن أتخلى عن المعركة. كنت فى بيئة مختلفة وصغيرة حيث الجمهور هو أنفسنا وسجانونا. ولكننا نظرنا للمعركة داخل المعتقل كمصغر للمعركة ككل. فقد كانت هناك نفس العنصرية ونفس الاضطهاد. ولم يدر فى خلدى قط أننى لن أخرج من السجن يوما من الأيام وكنت أعلم أن سيجئ اليوم الذى أسير فيه رجلا حرا تحت أشعة الشمس والعشب تحت قدمى. فإننى أساسا إنسان متفائل وجزء من هذا التفاؤل أن يُبقى الإنسان جزءا من رأسه فى اتجاه الشمس وأن يحرك قدميه إلى الأمام. وكانت هناك لحظات عديدة مظلمة اختبرت فيها ثقتى بالإنسان بقوة ولكننى لم أترك نفسى لليأس أبدا، فقد كان ذلك يعنى الهزيمة والموت.

-٦١-

وكان يتم إيقاظنا فى كل صباح فى الخامسة والنصف على صيحات السجان وفنون جرسه النحاسى. وكانت الفترة ما بين إيقاظنا وخروجنا من الزنزانات فى السابعة تُقضى فى تنظيف الزنزانة وطى الحصائر والبطاطين.ولم تكن هناك مياه جارية فى الزنزانات بل كان هناك دلو من الحديد وكان له غطاء مقعر من الخزف يوضع به الماء المخصص للحلاقة وغسل أيدينا وأوجهنا.

وكان أول شئ نفعله بعد خروجنا من الزنازنة إفراغ الدلو وغسله جيدا لمنع الرائحة الكريهة. وكان الشئ الوحيد المبهج فى تلك اللحظات هو أنها كانت فرصة للتهامس بيننا.

وكان السجناء من القسم العام يحضرون إلينا طعام الإفطار فى الزنزانة وكان عبارة عن ثريد الذرة وبعد ذلك بأشهر كنا نتناول طعام الإفطار فى الفناء حيث كان يوضع فى براميل زيت معدنية أما القهوة فكانت عبارة عن ذرة محمص مطحون مغلى فى الماء. وكان الطعام عنصريا لأن الملونين والهنود كانوا يتناولون طعاما أفضل قليلا من طعامنا. وكان الطعام موضع احتجاجنا. وبعد ذلك كنا نعمل فى تفتيت الحجارة حتى موعد الغداء الذى كان يتكون بالنسبة للأفارقة من ذرة مسلوقة أما الهنود والملونون فكانوا يتناولون نوعا من حساء الذرة بها بعض الخضروات أحيانا.

وبعد الغداء كنا نعمل حتى الرابعة ثم يسمح لنا بنصف ساعة للاغتسال وكانت المياه فى الحمامات هى مياه البحر الباردة، وبعد ذلك نتناول العشاء فى الزنزانات وكان يتكون من ثريد الذرة وأحيانا يضاف إليه حبة من الجزر أو البنجر أو قطعة من الكرنب. وأحيانا كانت تضاف قطعة غضروفية من اللحم إلى الثريد وكان الهنود والملونون يعطون ربع رغيف من الخبز فى العشاء. ثم يتم غلق أبواب الزنزانات والممرات فى الثامنة حيث كان من المفروض أن ننام. ولكن مرور الصوت فى الممر كان ممتازا فكنا نحاول أن نتجاذب أطراف الحديث أحيانا قبل النوم.

-٦٢-

وذات صباح وبعد أيام عديدة من لقائنا مع برام وجويل أُخذنا إلى المكتب الرئيسى واصطففنا هناك لأخذ بصماتنا وكان ذلك إجراء روتينيا فى السجن. وبينما كنا ننتظر لاحظت أحد السجانين ومعه كاميرا وبعد أخذ بصماتنا أمرنا كبير السجانين بالاصطفاف لالتقاط صورنا ولكننى أشرت على زملائى ألا يتحركوا وقلت للسجان إننى أود أن أرى الوثيقة الصادرة من مدير السجون والتى تخوله السلطة فى التقاط صورنا وكنت أعلم أن مثل تلك الوثيقة ضرورية. فهددنا بتوجيه الاتهام ضدنا إذا رفضنا أن يلتقط صورنا ولم يفلح تهديده. وكنا كقاعدة نرفض التقاط صورنا فى السجن لأن نشرها كان يعتبر نوعا من المهانة.

ولكن حدث أن فى صباح يوم بدل أن يعطى لنا السجان المطارق أعطانا إبرا وكومة من الملابس البالية وأمرنا أن نصلحها وكان الأمر قد استثار دهشتنا. وفى وقت متأخر من الصباح فُتحت البوابة الأمامية ودخل منها مأمور السجن ومعه زائران عرفنا أنهما مصور ومراسل صحيفة الديلى تلغراف اللندنية ولكننا كنا فى شك من أمرهما لأنهما أتيا تحت رعاية الحكومة ولأن الصحيفة التى يمثلانها محافظة. وكان من مصلحة الحكومة إزاء الاهتمام العالمى بأمرنا، أن تبرهن أنه لا يساء معاملتنا وسار الصحفيان حول الفناء وبقينا ورء وسنا إلى أسفل مركزين على عملنا ثم جذبنى أحد الحراس من كتفى وطلب منى أن أتكلم وتحدثت مع المراسل حوالى عشرين دقيقة عن السجن وعن

محاكمة ريفونيا بصراحة وعندما طلب التقاط صور ترددت ولكننى وافقت لعلمى أن الصور ستنشر بالخارج وربما تساعد القضية وطلبت إن يرافقنى سيسولو. ولم أر المقال أو أسمع عنه بعد ذلك.

وكانت القصص قد انتشرت فى الخارج عن طريق الصحافة عن الظروف غير الإنسانية فى الجزيرة وعن التهجم علينا وتعذيبنا وسببت الحرج للحكومة وعلى سبيل الرد عليها أحضرت مجموعات لزيارتنا لتدحض تلك القصص.

وفى يوم أخبرنا أن السيد هايننج ممثل جمعية المحامين الأمريكيين سيحضر لزيارتنا. وكان الأمريكيون مستجدين فى جنوب إفريقيا. وملأنى حب الاستطلاع لمقابلة ممثل جمعية قانونية مهيبة كتلك.

وفى يوم زيارته دعينا إلى الفناء ووصل الأمريكى برفقة جنرال شتاين مدير السجون الذى كان نادرا ما يأتى إلى الجزيرة وكان شخصيا يسبب لنا الاضطهاد بما يغفله وليس بما يفعله لأنه كان يترك للمسئولين حرية ممارسة وحشيتهم. واختارنى الآخرون للتحدث عنهم. وشكرت السيد هايننج ولخصت شكاوانا وأولها أننا مسجونون سياسيون ولسنا مجرمين ويجب أن نعامل على هذا الأساس وعددت الشكاوى من الطعام وظروف المعيشة والعمل. ولكن هايننج أخذ يقاطع حديثى. ولما تحدثت عن ساعات العمل الطويلة التى نقضيها فى مجهود جسدى قال إننا كمسجونين يجب أن نعمل وربما كنا أشخاصا كسالى -وذكر أن الظروف فى السجون الأمريكية أسوأ

بكثير منها فى جزيرة روبن وأضاف أن الحكم علينا عادل وأننا محظوظون أن لم يصدر حكم بإعدامنا، الأمر الذى استحققناه.

-٦٣-

تصنف السلطات المساجين فى جنوب إفريقيا... أربع فئات أ، ب، ج، د. وأرفع تلك التصنيفات «أ» ويمنحون بعض الميزات وكان جميع المساجين السياسيين يصنفون من فئة د وكانت الميزات تتضمن الزيارات والخطابات والفرصة لأن يشترى المسجون مأكولات وخلافه. وقد طالبنا اعتبارنا ضمن فئة أ ولكن كان التصنيف جزءا من نظام السجون. فإذا احتج سجين من فئة د على أنه يتسلم خطابا واحداً كل ستة شهور كانت الإجابة أن عليه أن يحسن سلوكه ليلحق بفئة ج ويتسلم خطابين كل ستة شهور وكانت التصنيفات توازى عدد سنوات الحكم فيبدأ السجين فئة د ثم يرقى كل سنتين إلى الفئة الأعلى وكانت السلطات تشهر ذلك النظام سلاحا ضد السجناء السياسيين وكانت أسهل وسيلة للارتقاء هى الطاعة وعدم الشكوى.

وكان مسموحا لى كسجين من فئة د أن أتلقى زيارة واحدة وخطابا واحدا كل ستة أشهر وكانت الزيارات مقصورة على الأقرباء من الدرجة الأولى -ولكن السلطة أساءت استعمال هذا الحظر فكانت الخطابات تصل إلى الجزيرة مرة كل شهر وأحيانا كان يمر ستة أشهر دون أن تصل خطابات وهكذا كان يحدث ألا نتسلم الخطاب المقرر كل ستة أشهر وكان يحدث حينما يصل الخطاب أن تحتجزه السلطات

وتخبرنى أننى لن أتسلم الخطاب بدون أى توضيح وفى تلك اللحظات كنت أحتاج لما تعلمته من صبر كى لا أنفجر وأن أحتج من خلال القنوات الرسمية.

وخلال الستة أشهر الأولى تلقيت خطابا من وينى ولكن الرقابة كانت قد سودت بالحبر معظمه حتى لم يبق سوى التحيات. وبعد ذلك عدلت السلطات عن استخدام الحبر حينما اكتشفت أنه يمكن غسله وقراءة ما تحته واستخدمت الأمواس لقطع فقرات كاملة وحيث إن الخطابات كانت تكتب على صفحتى الورقة فكان ذلك يعنى قطع أجزاء كاملة كانت الرقابة تسمح بها. وكانت قراءة الخطاب من الرقابة تستغرق شهرا أحيانا.

وبعد ثلاثة أشهر من وجودنا على الجزيرة تلقيت أنا و وولتر أول زيارة لنا. وكانت السلطات مثلا تتصل بزوجة السجين وتخبرها أن لديها تصريحا بزيارة زوجها اليوم التالى وبذلك تصبح الزيارات مستحيلة. فإذا كانت الزوجة رتبت أمر الزيارة مقدما تعمدت السلطات تأخير تسليم التصريح حتى تقلع الطائرة. وبما أن معظم أسر السجناء كانت تعيش فى أماكن نائية عن الكيب ولم يكونوا يمتلكون من الأموال ما يكفى أصبحت زيارة الجزيرة أمرا يفوق استطاعتهم. ولذا قضى رجال سنوات طويلة دون رؤية زوجاتهم وبعضهم لم يروهن إطلاقا. وكانت الزيارة تتم فى غرفة بدون نوافذ أقيمت بها أكشاك ضيقة بها مساحات صغيرة من الزجاج يحوى عددا صغيرا من الثقوب للتحدث من خلالها ولذا كان الحديث يستلزم استعمال الصوت العالى جدا

لكى يسمع الطرف الآخر، وبعد ذلك قامت السلطات بوضع مكبرات الصوت. واستدعيت أنا و وولتر إلى غرفة الزيارة ورأيت وجه وينى يملأ الزجاج وكانت دائما ترتدى ملابس أنيقة جديدة لزيارتى ولكن ذلك لم يخفف أثر المعاناة من وجهها. ثم اكتشفت بعد ذلك أن أمرا جديدا «بالحظر» قد صدر ضدها وأنها قد فقدت وظيفتها فى مركز رعاية الطفولة نتيجة لذلك وأنه تم تفتيش مكتبها لاعتقاد السلطات أنها تتصل بى. وكانت وينى مولعة بوظيفتها لصلتها بالمعركة فقد كانت تساعد على إيجاد آباء لتبنى الأطفال وإيجاد فرص عمل للعاطلين ومساعدات طبية لمن ليس لديهم تأمينات.

وأثناء الزيارة كان يقف خلفها سجانان ويقف خلفى ثلاثة وكانت مهمتهم التخويف إلى جانب الرقابة. وكانت التعليمات تنص على أن المحادثة يجب تكون بالإنجليزية أو الأفريكانية وإلا أنهى السجان المحادثة وكان يجب أيضا أن تكون عن أمور الأسرة فقط. وطمأنت وينى عن نفسى وسألتها عن كل أفراد الأسرة وفجأة سمعت السجان ينهى المقابلة. وبينما كنت أسير فى طريقى إلى الزنزانة استعدت ما تحدثنا عنه وكنت أفعل ذلك وأستحضر صورتها خلال الأسابيع والشهور التى تلت فقد كنت أعلم أننى لن أراها قبل ستة أشهر على الأقل. وكان لى ألا أراها لمدة عامين بعد ذلك.

-٦٤-

وذات صبح.. وبدلا من أن نسير إلى الفناء أُمرنا بالسير إلى الخارج

ودخول شاحنة مغطاة وبعد دقائق خرجنا ووجدت أننا فى المكان الذى رأيته أول شئ حين أتيت الجزيرة عام ١٩٦٢ وكان ذلك هو محاجر الجير. وقابلنا هناك الضابط المسئول الكولونيل وسيلز وقال لنا إن العمل الذى سيعهد لنا به سيستمر ستة أشهر بعدها يعهد إلينا بواجبات طفيفة. ولم يكن توقيته صحيحا إذا استمر عملنا فى المحاجر ثلاثة عشر عاما.

وسُلمنا فئوسا ومجارف ثم أعطينا تعليمات أولية عن تنجيم الجير. فالجير نفسه يوجد مدفونا تحت طبقات من الصخر يجب تكسيرها بالفأس ثم يُستخرج الجير بالمجرفة. كان ذلك العمل أصعب كثيرا من العمل فى الفناء وكنا فى الأيام الأولى ننام من شدة الإجهاد بعد العشاء مباشرة وكان ذلك فى الرابعة والنصف ولا نستيقظ إلا فى اليوم التالى.

وفسرنا ذلك التغيير على أنه طريقة السلطات لإخبارنا أننا لا نختلف عن السجناء العاديين الذين كانوا يعملون فى محاجر الجزيرة فقد كان ذلك ضمن المحاولات لسحق معنوياتنا. لكن الأسابيع الأولى فى المحجر كان لها أثر عكس ذلك هو أنه بالرغم من أيادينا الدامية الممتلئة بثورا فقد زادت قوتنا. وكنت أنا أفضل تواجدى فى أحضان الطبيعة مع الحشائش والأشجار أرقب الطيور وأشعر بالريح وهى تهب من البحر.

وخلال أيام أصبحنا نمشى إلى المحاجر بدلا من ركوب الشاحنة.

وكانت العشرون دقيقة التى تستغرقها الرحلة فرصة لنا لرؤية الجزيرة وكان بإمكاننا رؤية الأدغال الكثيفة والأشجار الطويلة التى تحيط بنزلنا وأن نشتم النباتات والزهور. ورغم أن عملنا فى المحاجر كان يهدف لإشعارنا أننا لا نختلف عن السجناء الآخرين فقد كانت السلطات تعاملنا كالمصابين بالبرص وكانت تأمر المساجين الآخرين بالاختفاء فى الأحراش إذا حدث ومررنا بمجموعة منهم أثناء سيرنا. غير أننا كنا نلمح من طرف أعيننا أحيانا بعضهم وهم يرفعون قبضتهم بتحية المؤتمر.

وقرب المحجر كان الطريق يتفرع وكان السجناء العاديون يسلكون الجهة اليمنى فى اتجاه محاجرالحجارة. وقد أصبح التقاء الطريق ذلك نقطة هامة للاتصال فيما بعد وحيث كان الطريق يتفرع كان بإمكاننا أن نرى الأحراش والكوخ الأبيض الصغير الذى كان يعيش فيه روبرت سوبوكوى. وكانت مدة الحكم على سوبوكوى قد انتهت عام ١٩٦٣ لكن كان يحق لوزير العدل أن يبقى السجناء دون اتهامهم لأجل غير مسمى وهذا ما فعلوه مع سوبوكوى الذى كان يعيش نصف حياة فى الجزيرة فقد كان رجلا حرا محروما من حريته.

وكنا نبدأ العمل فى الصباح.. وقبل الظهر مباشرة كنا نعبئ الجير فى عربات يد نجرها إلى الشاحنة التى تنقل الجير بعيدا.

وكانت الصفارة تنطلق فى منتصف النهار فننزل أسفل التل حيث كنا نجد البراميل المحتوية على الذرة المسلوقة وكانت طيور النورس تحلق

أثناء أكلنا وهى تصرخ ثم تنقض وتدور حولنا وأحيانا كان يسبب روثها إفساد طعامنا. ثم كنا نعمل مرة أخرى حتى الرابعة وننقل الجير إلى الشاحنة. وبنهاية اليوم كانت أجسادنا ووجوهنا تكون مغطاة بطبقة سميكة من الرماد الأبيض نحاول جاهدين إزالتها بمجرد عودتنا إلى الزنزانات.

وكان الضوء فى المحاجر أسوأ من الحرارة لأن أشعة الشمس كانت تنعكس فى أعيننا من الجير نفسه وكانت تتسبب فى انهمار الدموع من أعيننا. وقد طالبنا بنظارات شمسية فرفضت السلطات حيث إن التعليمات لم تكن تسمح حتى بالنظارات الطبية. وبعد ثلاث سنوات ونصف من المطالبة قرر طبيب متعاطف ضرورة النظارات وإلا فقدنا بصرنا. وكان علينا أن نبتاعها نحن.

وبالنسبة لنا فقد كانت الحملة لتحسين الأوضاع فى المعتقل جزءا من الحملة ضد الأبارتايد فى الخارج. فقد كنا نحارب عدم العدالة أينما وجدناه وكان علينا أن نحاربه لنحتفظ بآدميتنا.

وبعد ذلك بوقت قصير التحق بنا عدد آخر من أعضاء MK البارزين الذين كان قد ألقى القبض عليهم فى يوليو ١٩٦٤ وحوكموا وأدينوا وكان من بينهم ماك مهاراج ولالو تشيبا وويلتن مكاوايى الذى كان فى محاكمة الخيانة وترك طليقا عن طريق الخطأ وفر إلى الخارج وتلقى التدريب العسكرى وأصبح القائد العام لـMK بعد محاكمة ريفونيا، وكذلك إيدى دانيالز الذى أصبح أحد أحسن أصدقائى فى المعتقل.

ولكي توازن السلطات وجود الحلفاء السياسيين وضعت بيننا عددا من المساجين العتاة المحكوم عليهم في قضايا قتل واغتصاب وسرقة بالإكراه والذين كانوا يثيرون الرعب بين السجناء وكان دورهم كعملاء هو إثارة الشغب واغتصاب طعامنا وتعويق أي مناقشات سياسية كنا نحاولها. وكنت أرى في هؤلاء مادة خاما يمكن تغييرها وهذا ما حدث، مثلا بالنسبة لأحدهم الذي التحق بالمؤتمر فيما بعد وقدم خدمات جليلة في تهريب أشياء من وإلى المعتقل.

وذات يوم سمعنا أن سجانا في المحجر ضرب بوجارت قائد عصابة السجناء العتاة ضربا وحشيا أدى إلى إحداث جرح عميق وكدمات في وجهه وطلب بوجارت مني المساعدة. وكنا دائما نبحث عن موقف نتخذه ضد السلطات ونعلم أن تقريرا عن الضرب هو نوع الحادث الذي يمكن إثارته مع قيادة السجون. وكنت قد علمت قبل ذلك بفترة وجيزة أن رجلا من PAC قد ضُرب أيضا. وبصفتي محاميا كتبت خطابا إلى مدير السجون نيابة عن المعتدى عليه. ووُجهت بالمسئولين في السجن الذين أنكروا. لكنى صممت على نقل السجان ورُفض الطلب بداية ولكن بعد ذلك بقليل تم نقله. وشجعتنى تلك الواقعة فطلبت مقابلة رئيس السجن الذي قال لي إنه حقق في القضية وثبت بطلان الادعاء ولكنى تمسكت بأن يُجرى تحقيقا ولكن الضابط أخبرنى أن المدعى ينكر أنه ضُرب وواجهنى ببوجارت الذي كانت تغطي وجهه الضمادات وأنكر أنه ضُرِب. ومنذ ذلك الوقت صرت أطالب المسجون المعتدى عليه بتقرير خطي موقع عليه قبل تولي قَضيته.

-٦٥-

وذات يوم فى صيف ١٩٦٥ لاحظنا تحسنا غير عادى فى الطعام. وفى اليوم التالى تلقى بعض الأفراد قمصانا جديدة وأخذ السجانون يعاملوننا باحترام. وبعد ذلك علمنا أن رجال الصليب الأحمر الدولى سيصلون فى اليوم التالى.

وفى السنوات الأولى لم يكن أحد يستمع إلى شكاوانا أو يستجيب لها سوى الصليب الأحمر. وقبل ذلك بقليل تقدمنا بقائمة شكاوى إلى مدير السجون وقدمناها إلى كبير السجانين الذى لم يكن يريد تسلمها بحجة خرقنا للتعليمات لأننا استخدمنا الورق فى غير كتابة الخطابات.

وفى يوم الزيارة استدعيت إلى المكتب للقاء ممثل الصليب الأحمر وكان حينذاك ولسنوات قليلة بعدها هو السيد سن مدير السجون فى بلده الأصلى السويد ثم هاجر إلى روديسيا. وعكس جميع المقابلات لم تكن تلك مراقَبة وكتب مذكرة تفصيلية بجميع الشكاوى والمظالم وشكرنى لما قلته -وشكوت من ملبسنا وقلت إننا نطالب بسراويل طويلة وجوارب وملابس داخلية وشكوت من الطعام والزيارات والخطابات والدراسة والتدريب والأشغال الشاقة وتصرفات السجانين. وتقدمت بطلبات كنت أعلم أن السلطات لن تنفذها كأن ننقل إلى سجون قرب منازلنا.

وبعد الزيارة بقليل تحسنت الملابس بأن صرفت لنا سراويل طويلة. ولكن سن لم يكن بالشخص التقدمى وكانت سنوات إقامته فى

روديسيا قد عوّدته على التفرقة العنصرية. فمثلا قبل عودتى إلى الزنزانة ذكرت أنه لا يُصرَف خبز للأفارقة وكان رده أن الخبز مضر جدا بالإنسان، وأن الذرة أفضل وبعد سنوات صارت الهيئة ترسل أشخاصا أكثر ليبرالية ولعبت دورا هاما: فقد كانت تمد زوجاتنا وأقاربنا بالأموال التى كانت تساعدهم على زيارة الجزيرة.

وبعد شهور قليلة من وصولنا أعلنت السلطات أن على الراغبين فى الدراسة التقدم بطلباتهم. وتقدم معظم السجناء وسمح لهم وكانت الدولة تشعر بالثقة فمنحنا الإذن. وندمِتْ على ذلك فيما بعد. ومنحتُ أنا الإذن بمواصلة الدراسة العليا، وسجل السجناء للدراسة الجامعية وللحصول على شهادات المدارس. لكن تم منع دراسة السياسة والتاريخ العسكرى، كما مُنعنا من تلقى أموال من أسرنا ومعنى ذلك أن الدراسة كانت مقصورة على من لديهم نقود. ومُنعنا حتى من إعارة كتبنا لزملائنا. وكنت أدرس أنا تبعا لجامعة لندن مما نجم عنه تمكنى من دراسة كتب مثيرة غير التى كانت تدرس بجنوب إفريقيا لكن السلطات كانت تصادر الكثير منها.

وتقدمنا بشكوى من عدم وجود مقاعد وسلمناها لمندوب الصليب الأحمر وفى النهاية قامت السلطات بتثبيت لوحات خشبية فى الجدران كنا ندرس عليها ونحن وقوف وشكونا مرات حتى منحتنا الدولة مقاعد بدون أظهر وقللت من ارتفاع اللوحات بعد حوالى ستة أشهر.

وذات يوم سبت بعد عودتى من التدريبات التى كان يسمح لنا بها

لمدة نصف ساعة يوميا لاحظت أن أحد السجانين وقد أصبح ودودا نحونا قد ترك إحدى الصحف على المقعد. وكانت الصحف ضمن قائمة الممنوعات وأغلى ما كنا نتمناه. وكنا نتوق إلى الأنباء ولكن السلطات لم تكن تريد لنا أن نعرف شيئا قد يرفع معنوياتنا. وفيما بعد تمكنا من الحصول على الصحف بطرقنا. وكان الحراس في المحجر يغلفون سندوتشاتهم بأوراق صحف ثم يلقونها في القمامة فكنا نغافلهم ونحصل عليها. وكانت الرشوة هي الطريقة الأخرى حيث كان كثير من السجانين في حاجة إلى نقود ولما كان تداول الصحف التي كنا نحصل عليها بتلك الطريقة شديد الخطورة فقد كان كاثرادا، وفيما بعد ماك ماهراج يقومان بقراءتها وتلخيص ما يخصنا في أوراق صغيرة نتداولها ويتم تهريبها بعد ذلك إلى القسم العام.

وحينما رأيت الصحيفة على المقعد تركت زنزانتي وسرت إلى نهاية الممر ونظرت في الاتجاهين ثم اختطفت الصحيفة وجلست مستغرقا في قراءتها لدرجة أنني لم أسمع صوت الأقدام القادمة. وفُتحت الزنزانة ودخل الضابط والسجانون واتهمت بحيازة ممنوعات وتم استدعاء القاضي وحكم علي بالحبس الانفرادي ثلاثة أيام وفي الحبس الانفرادي كان يتم حرمان الفرد من الرفقة والتدريب والطعام الذي كان عبارة عن ماء أرز ثلاث مرات يوميا.

وكما ذكرت فإنني كنت أجد أن الحبس الانفرادي أبغض مظاهر المعتقل فلا توجد بداية أو نهاية. فليس هناك سوى عقل الإنسان الذي

يبدأ في خداعه ويبدأ الفرد في التساؤل عما إذا كان شئ بعينه حقيقة أم خيالا ويبدأ في مساءلة قراراته وأهمية تضحياته. أما جسم الإنسان فيتكيف مع أي ظروف قاسية كما أن المعتقدات الراسخة هي سر البقاء في ظروف الحرمان.

وكان الحبس الانفرادي روتينا في السنوات الأولى نعاقب به على نظرة مخالفة أو عدم الوقوف إذا دخل الحارس الزنزانة. وكان بعض أعضاء الـPAC الذين يتحدون الأوامر من أجل التحدي يقضون أوقاتا طويلة في الحبس الانفرادي.

-٦٦-

إن أهم فرد في حياة المعتقل ليس وزير العدل أو مدير السجون أو مأمور المعتقل لكنه السجان الذي يعمل في القسم الذي به السجين - فإن شعرت بالبرد وكتبت إلى الوزير طالبا بطانية لن تتلقى ردا أما مدير السجون فيقول إن ذلك ضد التعليمات وسيرد مأمور المعتقل قائلا إنه إذا أعطاك فسيعطي الآخرين. ولكنك إذا التجأت إلى سجان أنت على علاقة طيبة به فسيذهب إلى المخزن ويحضرها لك.

وكنت أحاول دائما أن أبقى على علاقات طيبة مع السجانين فإن العداوة كانت تعتبر هزيمة للنفس، وكانت سياسة المؤتمر قائمة على محاولة تعليم الأفراد حتى الأعداء منهم. ولكن أن تكون ودودا مع سجان لم يكن أمرا هينا لأنهم عموما كانوا يجدون فكرة التأدب مع رجل أسود كريهة.

وسهّل اجتذاب السجانين المتعاطفين أحد أصعب مهامنا فى جزيرة روبن، ألا وهو الاتصال. فقد كنا نعتبر الاتصال بالأقسام التى يتواجد بها رجالنا من المساجين العاديين أمرا واجبا لأنه كان يهمنا كسياسيين أن تقوَى منظمتنا داخل السجن وخارجه. كما أن الاتصال كان أساسيا لتنسيق احتجاجاتنا وشكاوانا ولأن دخول المعتقل والخروج منه كان يحدث كثيرا بين هؤلاء السجناء فكانوا يحصلون لنا على معلومات عما يحدث بالمنظمة فى الخارج وعن أخبار أصدقائنا وعائلاتنا.

وكان الاتصال بين الأقسام المختلفة خرقا للأنظمة وأمكننا تخطى ذلك الحظر عن طريق الرجال الذين كانوا يحملون إلينا الطعام وكانوا من الأقسام العامة وشكلنا لجنة من كاثرادا وماهراجا وتشيبا وآخرين للقيام بمهام تلك الاتصالات السرية.

لجأنا أولا إلى استعمال صناديق الثقاب التى كان يلقى بها الحراس لكتابة رسائل بأحرف دقيقة ووضعها فى الصناديق بعد إضافة قاع آخر لكل منها. وبعد ذلك اتفقنا مع رفاق من القسم العام ممن يعملون بالمطبخ على وضع الرسائل والمذكرات مغلفة بالبلاستيك أسفل براميل الطعام وكنا نرسل الردود بنفس الطريقة بالإضافة إلى أننا كنا أيضا نستعمل المراحيض العامة التى كان يشاركنا استعمالها سجناء القسم العام وكنا نحث رفاقنا السياسيين فى القسم العام على العصيان لكى يُرسَلوا إلى الحبس الانفرادى ويحضرون إلينا الرسائل ويتسلمون رسائلنا من المراحيض.

وكنا نكتب رسائلنا بطريقة يصعب قراءتها أو فك ألغازها إن أُمسك بها. فكنا أحيانا نستعمل الحليب فى الكتابة التى كانت تتضح إذا رشت بالسائل المطهر الذى كنا نستعمله فى تنظيف الزنزانات. كما كنا نستعمل ورق «التواليت» وكان وسيلة محببة لسهولة تخبئته وحمله. وبعد أن اكتشفت أمره السلطات قللت الكمية المسموح بها بدرجة كبيرة. وكانت أفضل وأسهل طريقة هى دخول المستشفى الوحيد فى الجزيرة حيث كان يصعب فصل المساجين بالقسم العام عن المساجين السياسيين وكان يمكن هناك تبادل المعلومات عن المنظمات السياسية والإضرابات والتباطؤ وغير ذلك.

أما الاتصال بالعالم الخارجى فكان يتم عن طريق السجناء الذين يكملون مدة العقوبة ويفرج عنهم وعن طريق الزائرين. فكان المفرج عنهم يحملون خطابات فى أمتعتهم أما بالنسبة للزوار فكان الأمر صعبا عدا المحامين الذين لم يكن يسمح بتواجد السجانين فى حضورهم وكنا أحيانا نسلمهم خطابات كما أننا كنا ننقل المعلومات لهم عن طريق كتابتها كما كنا نفعل أثناء محاكمة ريفونيا لأن الغرفة كان بها أجهزة تصنت.

وعن طريق مذكرة مخبأة في براميل الطعام علمنا أن مساجين القسم العام سيقومون بالإضراب عن الطعام لسوء الأحوال ولم تذكر المذكرة الزمن أو المدة ولكننا قررنا مشاركتهم.

وخلال اليوم الأول قُدمت لنا المقادير العادية أما فى اليوم الثانى فكانت

المقادير أكبر من إضافة الخضروات وفى اليوم الثالث كان هناك لحم طازج زادت كميته فى اليوم الرابع. وسمعنا أن المساجين فى القسم العام بدأوا يفقدون قوتهم وكان يتم نقلهم للمستشفى على عربات يد.

واستُدعيت إلى مكتب الرئيس لمقابلة الكولونيل ويسيلس وكان زملائى يعلمون أن السلطات ستحاول التأثير علىّ لأدعو لإنهاء الإضراب. وطلب ويسيلس معرفة أسباب إضرابنا فأجبته أننا نرى أن إضرابا لتحسين الأحوال هو امتداد للنضال ضد الأبارتايد وأضفت أن معركتنا فى القسمين واحدة. فأنهى المقابلة. وفى اليوم التالى علمنا بتطور غير عادى فى الأحداث فقد قاطع السجانون طعامهم ورفضوا الذهاب إلى الكافيتريا الخاصة بهم. ولم يكونوا مضربين تأييدا ولكنهم رأوا أنه إذا كنا نحن نستطيع الإضراب فلماذا لا يضربون هم للمطالبة بطعام أفضل وبتحسين وسائل معيشتهم. وكان إضرابان فى وقت واحد أمرا كبيرا بالنسبة لسلطات السجن فسوّت أمورها مع السجانين وطلبت من مسجونى القسم العام إرسال ثلاثة مندوبين للمفاوضات. فأعلن المسجونون هناك انتصارهم وأوقفوا الإضراب وتبعناهم.

وكنت أرى أن مجرد الإضراب عن الطعام داخل السجن أمر غير واقعى فلكى يكون فعالا يجب أن يعلم به العالم الخارجى وكانت الاتصالات شبه مستحيلة فى تلك السنوات.

وبالنسبة لى كان الإضراب عن الطعام أمرا سلبيا يضر بصحة

أجسادنا الضعيفة واستدعاءً للموت. وكنت دائما أفضل أنواع المقاومة الأكثر إيجابية ونضالا كالإضراب عن العمل والتباطؤ ورفض أعمال النظافة وتلك أعمال تضر بالسلطات ولا نعاقب بها أنفسنا ولكن اقتراحاتى لم تلق تأييدا. وكان متى اتُخذ القرار أؤيده تماما.

-٦٧-

وفى منتصف الإضراب عن الطعام فى يوليو ١٩٦٦ زارتنى زوجتى للمرة الثانية وكانت قد تعرضت لمضايقات جمة منذ زيارتها عام ١٩٦٤ واضطهدت الشرطة أخاها وأخواتها وحاولت السلطات منع أى فرد من عائلتها العيش معها وكنت أعرف بعض التفاصيل لأننى كنت عند عودتى من المحجر أحيانا أجد قصاصات بها أنباء عن وينى وقد وضعها أحد السجانين على سريرى.

وعملت السلطات على وضع العراقيل فى سبيل زيارات وينى بفرض الحظر عليها الأمر الذى كان يمنعها من السفر وبعد ذلك أخبرتها السلطة أنها تستطيع زيارتى فقط إذا كانت تحمل تصريح مرور وكانت وينى ضمن من احتججن على التصاريح فى الخمسينات فكان رفضها طبيعيا ولكنى اعتقدت أن رؤية أحدنا الآخر أهم من مقاومة الإجراءات التافهة ووافقت على حمل التصريح. وكانت إجراءات زيارتها طويلة ومعقدة فقد كان محظورا عليها السفر سوى بالطائرة مما كان يكلفها كثيرا وكان عليها التوقيع على وثائق مكتب شرطة كيب تاون عند وصولها وقبل رحيلها هذا عدا مضايقات أخرى كثيرة.

وكانت مدة الزيارة الثانية نصف ساعة وكان هناك الكثير الذى نود مناقشته. وتكلمنا عن تعليم الأولاد وعن صحة والدتى المتدهورة وعن أمورنا الحالية وكانت وينى قد ألحقت طفلتينا بمدرسة هندية وقامت الدولة بمضايقة المدير باعتبار ذلك خرقا لقانون التعليم لأن الطفلتين إفريقيتان وقررنا إرسال الطفلتين للدراسة فى سوازيلاند رغم ما كان يعنيه هذا لوينى. وسألتها أيضا عن أمور تتعلق بها وبالمؤتمر عن طريق استعمال أسماء مستعارة متفق عليها.

وبعد الزيارة علمت أن وينى قد أُلقى القبض عليها وأفرج عنها بكفالة لعدم ذهابها إلى مركز الشرطة بعد زيارتى ورفضها تسجيل عنواننا وحكم عليها بالسجن سنة مع وقف التنفيذ مما ترتب عليه فقدانها لوظيفتها كإخصائية اجتماعية للمرة الثانية.

وعملت الدولة على اختلاق المضايقات لى بطريقة ظنوا معها أننى لا أستطيع المقاومة. فبناء على تحريض من وزير العدل اقترحت جمعية القانونيين للترانسفال شطب اسمى من قائمة المحامين المشتغلين على أساس إدانتى فى محاكمة ريفونيا. وأبلغتُ السلطات أننى سأتقدم بالطعن وأننى سأجهز دفاعى بنفسى وطلبت من موظفى السجن أن أعفى من العمل فى المحجر وأن تجهز زنزانتى بمنضدة وكرسى مناسبين وضوء للقراءة لأكتب المذكرة كما طلبت أن أنقل لبريتوريا لكى أستطيع استعارة الكتب المناسبة من المكتبة القانونية، وكان الرد المبدئى أن أقوم بتوكيل محام عنى ولكننى تقدمت إلى مسجل المحكمة العليا طالبا السجلات والكتب والوثائق التى أحتاجها وطلبت قائمة

بأسماء شهود الدولة وملخصات شهاداتهم وتلقيت ردا يطلبون فيه معرفة طبيعة دفاعى لكى يتمكنوا من إرسال ما طلب ورددت قائلا إن الدفاع سيعرفونه حين تنظر القضية.

واستمر تبادل سيل الخطابات بينى وبين المحكمة العليا. والمحامى العام الذى كان سيمثل الجمعية القانونية ورفضت جميع طلباتى ولكننى واصلت الكتابة إليهم لعدة شهور وبعدها، وبدون مقدمات أسقطوا الموضوع وأمكننى قراءة ردود الفعل الرسمية لمعارضتى لأعمال الجمعية القانونية لأننا فى ذلك الوقت كنا نتلقى صحيفة يومية بانتظام. فقد تمكن ماك ماهراج من مصادقة الحارس الليلى وهو شخص هادئ كبير السن بعد أن طلب منه الحارس مساعدته فى دخول مسابقة كتابة مقال لصحيفة نظير وعد بجائزة وبعد أسبوعين حضر الحارس وهو مبتهج وقال لماك إن اسمه فى القائمة النهائية للمسابقة. وطلب منه كتابة مقال آخر ووعده بدجاجة مطهوة فى المقابل وقال له ماك إنه سيفكر فى الأمر وفى المساء قال للحارس إنه سيكتب المقال لقاء علبة سجائر وفى اليوم التالى أخبر ماك وولتر أن لديه بصمات الرجل على علبة السجائر وبإمكانه أن يبتزه ليحضر لنا صحفا ورغم تحفظاتنا على الوسيلة التى اتبعها ماك فلم نعارض. ونجحت الحيلة وبعد ذلك ولمدة ستة أشهر وحتى تم نقله كان الرجل يهرب إلينا الصحيفة يوميا وكنت أنا وماك نلخص الأنباء فى ورقة صغيرة ونتداولها.

وفى عام ١٩٦٦ بدأ الحراس فى المحجر يخففون من رقابتهم فكان باستطاعتنا أن نتحدث كما شئنا وأخذنا نكون مجموعات صغيرة

ونقضى اليوم فى التحدث فى جميع المواضيع.

وفى المعتقل يصبح لدى الإنسان وقت للتفكر، الأمر الذى لا يتأتى للمرء وهو فى خضم المعركة وكنا كثيرا ما ندخل فى مساجلات سياسية وكان أحد المواضيع الذى استغرق بحثه وقتا طويلا هو العلاقة بين المؤتمر والحزب الشيوعى. وكان البعض وخاصة جنود الـMK الذين كانوا قد ذهبوا إلى بلدان اشتراكية يعتقدون أنهما - المؤتمر والحزب- شئ واحد. وكانت هناك بعض الرئاسات فى المؤتمر مثل جوفان مبيكى وهارى جوالا الذين تبنوا نفس النظرة. فإن الحزب لم يكن يتواجد كشئ منفصل كما كان الحال فى الخارج ولم تكن نظرتى لتلك القضية قد تغيرت على مدى السنوات، أى أننى كنت أرى أن المؤتمر هو حركة جماهيرية ترحب بكل من كان له نفس الأهداف وبمرور الوقت أصبح الحوار لاذعا واقترح البعض أن نحسم ذلك الأمر بأن نكتب إلى المثقفين من أعضاء المؤتمر فى لوساكا وأعددنا وثيقة من اثنتين وعشرين صفحة مع خطاب منى وأرسلناها إلى لوساكا مع ما كان ذلك يحوى من المخاطرة. وفى النهاية أكدت لوساكا على فصل المؤتمر عن الحزب وانتهت المناقشة.

وكانت إحدى نقاط الحوار الأخرى هى ما إن كان من الواجب قصر قيادة المؤتمر على الطبقة العاملة. فقد كان البعض يرى أنه بما أن المؤتمر حركة جماهيرية تعتمد عضويته إلى حد كبير على العمال فإن القيادة يجب أن تكون من بين صفوفهم. وكانت وجهة نظرى أن قصر القيادة على طبقة واحدة مناف للديمقراطية وأن ذلك يعنى أن معظم

قادة المؤتمر مثل لوثولي وموسيس كوتانى ودادوو غير مؤهلين للقيادة. لكن لم تكن كل الحوارات سياسية بل كان هناك أخرى اجتماعية وتراثية.

-٦٨-

كان الربيع قد ترك أثره على السلطات فخففت من قبضتها الحديدية كما خف التوتر بين السجانين والسجناء. لكن فترة الهدوء لم تدم طويلا ففى أحد أيام سبتمبر ١٩٦٦ همس إلينا أحد مساجين القسم العام أثناء تناول الغداء قائلا إن ڤيرويرد قد توفى ونظرنا إلى بعضنا البعض غير مصدقين. ولم نكن ندرى كيف توفى وقد سمعنا بعد ذلك أن شخصا أبيض يعمل مراسلا فى البرلمان قد طعنه ولم نعرف دوافعه.

وكان ڤيرويرد قد برهن على أنه المنظر الأساسى ومهندس بنية الأبارتايد فقد تبنى خلق البانتوستانات ونظام تعليم البانتو.

وفى اليوم التالى كان من الواضح أن السجانين قد علموا بالأمر وبدأوا يعكسون شعورهم بالغضب علينا. وتبلور التوتر مرة أخرى وأخذت السلطات تفرض أنظمتها بقسوة. وكانت السلطات تعتقد أننا على علاقة سرية بالمنظمات الوطنية بالخارج. وكان انفجار أعمال حرب العصابات الناجحة ضد شرطة جنوب إفريقيا فى ناميبيا بواسطة منظمة سوابو وهى حليف المؤتمر قد أفقد السلطات تماسكها. وتجددت الأجواء الصارمة التى كانت سائدة عند وصولنا إلى الجزيرة.

وتم استبدال الحارس المسالم بضابط متشدد شرير يدعى فان رينسبرج وكان قد طار إلى الجزيرة بعد أربع وعشرين ساعة من الاغتيال وكان اسمه معروفا ومقترنا بين المساجين بالوحشية. وكانت وظيفته تنحصر فى إتعاس حياتنا الأمر الذى كان يفعله بحرارة.

وخلال الأشهر التالية كان رينسبرج يتهم واحدا منا يوميا بالعصيان أو التهرب. وكان كل صباح يناقش زملاءه عمن سيوجه إليه الاتهام بعد الظهيرة. وكانت سياسته سياسة تخويف انتقائى وكان الاتهام يوجه للشخص عشوائيا. وبدأت المحكمة الإدارية المعتقل تعمل ساعات إضافية. وردا على ذلك كونًا لجنة قانونية منى وفيكيل بام وماك ماهاراج لتوجيه الاستشارة القانونية للرفاق فى تعاملاتهم مع المحكمة الإدارية.

وكان ڤان رينسبرج حقودا فى عظائم الأمور وصغائرها. فكان مثلا يختار وقت تناولنا الغداء ليتبول إلى جوار طعامنا وكانت إحدى الوسائل التى أمكننا الانتقام بها منه هو جعله موضع تفكهنا واستهزائنا.

وذات صباح فى بداية عام ١٩٦٧ وبينما كنا نستعد للذهاب إلى المحجر أخبرنا فان رينسبرج أن أمرا صدر من الماجور كيليرمان بمنعنا من الحديث أثناء السير والعمل. وكان الحديث هو الشئ الوحيد الذى يجعل العمل فى المحجر محتملا وأثار هذا استياءنا وغضبنا. وتمكن قادة المؤتمر والمنظمات السياسية الأخرى من

تكوين خطة وبينما كنا نناقشها ظهر ماجور كيليرمان بنفسه وكان ذلك أمرا غير عادى وأعلن بشئ من الإحراج أن أمره كان خطأ وأننا باستطاعتنا الحديث على أن نفعل ذلك فى هدوء وقفل راجعا. وانتابنا الشك. وطوال ذلك اليوم لم يجبرنا أحد على العمل الشاق وعمل ڤان رينسبرج جهده ليتودد إلينا وقال إنه كدليل على حسن نيته فسيسحب الاتهامات التى كان يزمع توجيهها إلينا. وبعد ظهر ذلك اليوم اكتشفت أن حاجياتى قد نقلت إلى الزنزانة الخلفية رقم ١٨ بدلا من الزنزانة الأمامية التى كنت أحتلها. وحدست أن هناك أمرا مرتقبا وأنه قد تم نقلى لكى لا أكون أول المتحدثين وأنه سيبدأ بالاستماع إلى شكاوى المسجونين الآخرين وحينما يأتى دورى سيكون ميعاد إعلان أن الوقت قد انتهى. وقررنا أن يقول الجميع إن سجين الزنزانة رقم ١٨ هو الذى سيتحدث باسمهم. وفى الصباح التالى تم إخبارنا بأن نذهب إلى المحجر ثم ظهر الماجور كيليرمان ليقول إن السيدة هيلين سوزمان ممثلة الحزب التقدمى وعضو المعارضة الوحيد فى البرلمان، وربما العضو الوحيد هناك الذى كان يهتم بمعاناة المسجونين السياسيين قد حضرت يرافقها جنرال شتاين مدير السجون وسارت الخطة كما رسمناها ووصلت إلى باب زنزانتى وكانت القصص قد انتشرت عن جزيرة روبن وحضرت بنفسها لتقصى الحقائق.

ولم أتحفظ فيما قلت رغم وجود ستاين وكيليرمان وأخبرتها برغبتنا فى تحسين طعامنا وملبسنا وتوفير احتياجات الدراسة ووسائل المعلومات

مثل الصحف وأشياء أخرى كثيرة وأخبرتها عن قسوة السجانين وبالذات ڤان رينسبرج وسجلت سوزمان ما قلت ووعدتنى أن ترفع الأمر إلى وزير العدل ثم قامت بتفتيش الزنزانات وتحدثت مع آخرين.

وكان فان رينسبرج منزعجا أثناء حديثى مع سوزمان كما أخبرنى كاثرادا واعتذر عن تصرفاته السابقة ولكن فى اليوم التالى عاد إلى سيرته الأولى وأعلن أنه سيعيد اتهاماته لنا. وفيما بعد علمنا أن سوزمان قد رفعت شكوانا إلى البرلمان وبعد أسابيع قليلة تم نقل ڤان رينسبرج.

-٦٩-

لم أتخيل فى يوم أن المعركة ستكون قصيرة أو سهلة وكانت السنوات الأولى فى المعتقل سنوات صعبة بالنسبة للمنظمة فى الخارج وبالنسبة لنا فى الداخل. وكانت معظم الآليات السرية قد تم تدميرها بعد ريڤونيا وتم اكتشاف هياكلنا واقتلاعها. وكان الذين لم يتم القبض عليهم يحاولون بصعوبة تجنب العدو وكان كل الأعضاء القياديين تقريبا إما فى المعتقل أو فى المنفى.

وفى السنوات التى تلت ريڤونيا أخذت البعثة الخارجية للمؤتمر التى كانت فى الأصل مسئولة عن جمع الأموال والمهام الدبلوماسية وتوفير التدريب بزمام الأمور كلها. فلم تعمد فقط إلى خلق منظمة فى المنفى بل تولت المهمة الأصعب وهى تنشيط النظام السرى للمؤتمر داخل جنوب إفريقيا.

أما الدولة فقد ازدادت قوتها كما ازدادت قوة الشرطة وأصبحت أساليبها أكثر عنفا ووسائلها أكثر صقلا وكبرت قوة دفاع جنوب إفريقيا واستقرت الأحوال الاقتصادية وكانت الحليفتان القويتان لجنوب إفريقيا، بريطانيا والولايات المتحدة، ترغبان في إبقاء الأمور على ما هو عليه.

ومن ناحية أخرى نمت المقاومة للإمبريالية. فمنذ منتصف الستينيات وحتى نهايتها انتشرت المعارك في جميع الجزء الجنوبي من إفريقيا وكانت سوابو تقوم بهجماتها في ناميبيا وكذلك اشتدت حرب العصابات في موزمبيق وإنجولا. أما في زيمبابوي أو روديسيا سابقا، فكانت المعركة تتصاعد ضد حكم الأقلية البيضاء وكانت قوة دفاع جنوب إفريقيا تدعم حكومة إيان سميث البيضاء بينما اعتبر المؤتمر المعركة في زيمبابوي امتدادا للمعركة في قلب الوطن. وفي ١٩٦٧ علمنا أن المؤتمر أنشأ تحالفا بينه وبين اتحاد شعب زيمبابوي «زابو».

وفي تلك السنة عبرت مجموعة من جنودMK التي تلقت تدريبها في تانزانيا وزامبيا نهر زامبيري إلى روديسيا استعداداً للتسلل إلى البلاد وكان قد أطلق على تلك المجموعة فرقة لوثولي. وفي أغسطس وبينما كانت تتحرك تجاه الجنوب ترافقها فرق من الزابو اكتشفها الجيش الروديسي ونشبت معارك بين الطرفين أسفرت عن خسائر في الأرواح لكل منهما. وفي النهاية تمت هزيمة قواتنا وأسر البعض وانسحب الآخرون إلى بوتشوالاند التي أصبحت فيما بعد بوتسوانا. وبداية

١٩٦٨ دخلت فرقة أكبر من جنود المؤتمر روديسيا وحاربت جيش روديسيا وشرطة جنوب إفريقيا المتمركزة هناك.

ولم نعلم عن ذلك حتى التحق بنا بعض من حاربوا من الرجال ورغم أنهم لم يحرزوا النصر فقد احتفينا بهدوء لمجرد أن كوادر الـMK قد قامت بالاشتباك مع العدو فى معركة بطريقتهم.

وقبل أن نعلم عن المعارك فى الخارج كنا قد علمنا بوفاة الرئيس لوثولى فى منزله فى يوليو ١٩٦٧ فى ظروف غريبة. فقد صدمه قطار قرب مزرعته التى كان كثيرا ما يتمشى بها. وقد تركت وفاة لوثولى فراغا فى المنظمة فقد كان حائزا على جائزة نوبل وكان شخصية دولية متميزة احترمه البيض والسود. ووجدت المنظمة فى أوليفر تامبو الذى كان نائب الرئيس العام خليفة للرئيس. ومثل لوثولى كان أوليفر متحدثا ماهرا واثقا ومتواضعا وكان يجسد فكر لوثولى.

أقمنا صلاة وتأبينا للرئيس فى قسم ب ودعونا كل من يريد التحدث وحينما جاء دور نيفيل الكسندر وهو عضو فى حركة الوحدة ليتحدث كان من الواضح أنه يفعل ذلك من أجل دفن لوثولى وليس لإطرائه فقد اتهمه بالعمالة للبيض قبل جائزة نوبل. وكانت كلمة نيفيل الخاطئة ضد مناخ التعاون بين مختلف المنظمات الذى حاولنا خلقه فى الجزيرة.

وكنت قد رأيت فى تواجدنا بالجزيرة فرصة لرتق الخلاف بين PAC والمؤتمر ليكون ذلك سابقة لتوحيدهما فى معركة التحرير ككل. ولكن

منذ البداية كانت العلاقة بين المنظمتين علاقة تنافس أكثر منها تعاوناً وحين وصولنا رأى بعض أعضاء الـPAC أن تواجدنا على الجزيرة انتهاك لحضورهم هناك.

ولى عام ١٩٦٢ كان عدد أعضاء الـPAC يفوق بكثير عدد أعضاء المؤتمر ولكن فى عام ١٩٦٧كان الوضع قد انعكس وعمل ذلك على صلابة أعضاء PAC فى مواقفهم وتحادثت مع زيف موثوينج عضو لجنتهم التنفيذية وكان نقاشه ينصب على أن PAC أكثر نضالية من المؤتمر وأن علينا أن نتبع قيادتهم فى المعتقل. وفى عام ١٩٦٧ أجريت محادثات مع سلبى نجندانى حول موضوع الوحدة الذى كان يعارضه بشدة خارج المعتقل ولكن وجدت أن حدته قد خفت وكتب كل منا خطابا إلى منظمته فى القسم العام نؤيد الوحدة. وكان هناك تعاون بين المؤتمر وكلارانس ماكيتو الذى أصبح بعد ذلك رئيسا لـPAC وكان قبل ذلك عضوا فى تنظيم شباب المؤتمر ولكن بعد الإفراج عنه خلفه جون يوكيلا فى قيادة المنظمة فى الجزيرة وتعثرت المحادثات.

وكون المؤتمر منظمته الداخلية فيما عرف بالقيادة العليا التى كانت تتكون من الأعضاء القياديين الموجودين فى الجزيرة وكانوا سابقا أعضاء فى اللجنة التنفيذية مثل وولتر سيسولو وجوفان مبيكى وريموند مهلابا وعملت أنا رئيسا للجنة.

ومنذ البداية قررنا أن تحاول القيادة التأثير فى سياسة المؤتمر خارج

الجزيرة كما كنا نصدر قراراتنا بشأن الأمور التى نعلمها مثل شكوى المعتقلين والبريد والطعام وكنا أحيانا نعقد اجتماعات عامة. لكن نظرا لخطورة مثل تلك الاجتماعات التى كانت تضم أعضاء من مختلف المنظمات، ونظرا لتصادف كون أعضاء القيادة من الاكسهوسا ضممنا عضوا دوريا إلى الأعضاء الأربعة من خارج الاكسهوسا. ولم أكن أسيطر على القيادة بل على العكس فإن عددا من اقتراحاتى تم رفضها.

-٧٠-

فى عام ١٩٦٨ زارتنى والدتى ولم أكن قد رأيتها منذ نهاية المحاكمة وقد بدت وقد أصابتها الشيخوخة وكانت قد جاءت من ترانسكى برفقة ابنى مكباثو وابنتى مكازيوى وشقيقتى ميبل ولأن عدد زوارى كان أربعة وكانوا قد جاءوا من مسافة بعيدة فقد سمحت السلطات باستمرار الزيارة لمدة خمس وأربعين دقيقة.

وكان ابنى وابنتى قد نضجا وشعرت بالدهشة والفخر أما أمى فكانت قد نحفت مما سبب لى القلق على صحتها. فقط أختى ميبل بدت وكأنها لم تتغير.

وأبديت رغبتى لابنى وابنتى أن يواصلا تعليمهما وتحدثت لميبل عن الأهل فى ترانسكى ومر الوقت وشعرت أنها آخر مرة أشاهد فيها والدتى. وبعد أسابيع تلقيت برقية من ابنى يخبرنى فيها بوفاتها وقد أضاف إلى حزنى عدم استطاعتى المشاركة فى تشييعها.

ودعانى موتها إلى مساءلة نفسى عن صحة قرارى فى أن أضع أمور شعبى فى المقام الأولى على حساب رفاهية أسرتى. ولم تستطع والدتى أن تفهم لمدة طويلة التزامى بالمعركة. ولم تطلب أسرتى أو ترد التورط فى المعركة لكن تورطى أنزل بهم العقاب. ولكنى توصلت إلى نفس الإجابة فإنه من الصعب أن يتجاهل الإنسان فى جنوب إفريقيا احتياجات شعبه حتى ولو كان ذلك على حساب أسرته فقد أخذت قرارى وأيدت هى اختيارى فى النهاية. ولكن ذلك لم يقلل شعورى بالأسى على عدم قدرتى أن أجعل حياتها أكثر راحة وأن أشيعها بعد وفاتها.

وفى ١٢ مايو ١٩٦٩ احتجزت الشرطة وينى طبقا لقانون الإرهاب وكان ذلك جزءا من إجراءات صارمة شملت أرجاء البلاد واحتجز إثرها العشرات من بينهم شقيقة وينى. وتم وضع وينى فى الحبس الانفرادى فى سجن بريتوريا ولم يسمح لها حتى بالكفالة أو بالزيارات وأخذوا وعلى مدى شهور فى استجوابها بوحشية ولما تم توجيه التهمة إليها هى واثنين وعشرين آخرين وهى تهمة محاولة إحياء المؤتمر أرسلت تعليماتى أن يتولى الدفاع عنها جويل كارلسون المعارض للأبارتايد. وفيما بعد التحق بالدفاع جورج بيزوس وآرثر تشاسكالسون من أعضاء فريق ريفونيا. وبعد سبعة عشر شهرا من اعتقالها أسقطت الدولة التهمة ضدها وتم الإفراج عنها وطلبت السماح بزيارتى ولكن طلبها رفض. وفى تلك الأيام تلقيت برقية من ابنى الأصغر ماكجاثو يخبرنى فيها أن ابنى الأكبر الذى كنا ندعوه

ثيمبى قد قتل فى حادث سيارة وكظان وقتها فى الحادية والعشرين وأبا لطفلين. وليس لدىَّ من الكلمات ما أستطيع به التعبير عما شعرت به تجاه تلك المأساة التى جاءت على قمة أحزانى على والدتى وقلقى على وينى.

ولم توافق السلطات على طلبى لحضور جنازة ولدى وكل ما سمحوا به هو أن أرسل خطابا لوالدته إيڤيلين أشاركها فيه الأحزان.■

9

الجزء التاسع

جزيرة روبن

بداية الأمل

-٧١-

كان التحسن فى المعتقل لا يأخذ شكلا اضطراديا بل كان يتوقف وينتكس. ولكن الأحوال تحسنت بالفعل فقد كسبنا عدة معارك صغيرة أدت إلى تغيير الجو في الجزيرة. وبعد رحيل ڤان رينسبرج أصبحت حياتنا محتملة.

وكنا قد أعطينا سراويل طويلة فى خلال السنوات الأولى. فى ١٩٦٩ تسلم كلٌّ الملابس الخاصة به وسمح لنا أن نغسلها بأنفسنا وسمح لنا بالخروج للفناء أثناء نهاية الأسبوع، كما سمح للمساجين الأفارقة بالخبز أحيانا مع وجبة الإفطار. وصرفت لنا ألعاب مختلفة وأوراق لعب ولم يعد أحد يقاطع أحاديثنا فى المحجر ونجحنا فى تحييد السجانين السيئين وصادقنا المعتدلين كما أصبحنا قادرين على عقد الاجتماعات.

كما كانت مناسبة الكريسماس هى اليوم الوحيد الذى تبدى فيه السلطات الإرادة الحسنة نحو الرجال فلم نكن نذهب للمحاجر وكان يسمح لنا بشراء كميات قليلة من الحلوى ويصرف لنا قدح إضافى من

القهوة مع العشاء وكان يسمح لنا فى أيام الكريسماس بإقامة حفلات غنائية كنا نقدم فيها مسرحيات ونغنى فيها التراتيل الدينية والأغانى التراثية والشعبية التى كنا نضمنها بعض أغانى الاحتجاج الأمر الذى كان تتجاهله السلطات أو ربما أنهم كانوا لا يفهمون الكلمات كما كنا نقيم مسابقات فى الشطرنج والطاولة وألعاب الورق.

-٧٢-

كان بعض السجانين يبدأون معنا الأحاديث. ولم أكن أنا آخذ المبادرة ولكن إن حادثونى أجبتهم. وكانوا يسألوننى عما أريد وقد أوتيت ما يكفينى فكنت أبدأ فى شرح سياسة المؤتمر لهم. وفى عام ١٩٦٩ وصل سجان شاب بدا وكأنه مهتم بأن يتعرف علىّ وكنت قد سمعت شائعة مؤداها أن أشخاصا فى الخارج كانوا يرتبون أمر هروبى وأنهم سوف يسربون أحد الحراس إلى الجزيرة لمساعدتى. وأسر إلى ذلك الحارس أنه الشخص المعنى.

وبدأ يخبرنى بالخطة، وكانت تتلخص فى أنه سوف يقوم بتخدير الحراس المناوبين عند الفنارة؛ لكى يرسو قارب عند الشاطئ وأنه

سيمدنى بمفتاح أستعمله للخروج من المبنى ولقاء القارب وبعد ذلك أرتدى زى الغطس وأنا فى القارب وأسبح حتى ميناء كيب تاون حيث يصحبنى أشخاص إلى مطار محلى وأهرب خارج البلاد.

وتشاورت مع وولتر وقررنا أن ذلك الشخص غير أهل للثقة ولم أوضح له أننى لن أقوم بالعملية لكنى لم أفعل أى شئ لإنجاز الخطة ولابد أنه فهم ما اعتقدته لأنه سريعا ما انتقل من الجزيرة وقد تبين لى فيما بعد أنه عضو فى مخابرات جنوب إفريقيا وكانت الخطة أن أنجح فى الهرب من الجزيرة لكى يتم قتلى بواسطة رجال الأمن وأنا أحاول الهرب من المطار.

وفى نهاية عام ١٩٧٠ قررت السلطات استبدال الجو المتراخى فى الجزيرة وعين الكولونيل بيت بادنهورست مأمورا للجزيرة وكانت له سمعة ضابط وحشى سلطوى فى جميع خدمات السجون. وكان كلما تم تعيين مأمور جديد أطلب مقابلته لشرح موقفنا وأيضا لتقييم شخصه ولما تقدمت بطلبى هذه المرة كان الجواب هو الرفض.

وألغى المأمور الجديد عددا من القواعد بشأن الدراسة ووقت الفراغ وكان من الواضح أنه يعتزم إلغاء المزايا التى اكتسبناها على مدى السنوات. وتم نقل السجانين القدامى من الجزيرة واستبدالهم بأشخاص من انتقائه يصغرون الآخرين سنا ويفوقونهم فظاظة. وكانت وظيفتهم تنحصر فى مضايقتنا وهدم معنوياتنا. وخلال أيام من تعيينه تم تفتيش الزنزانات وصودرت الكتب والصحف وحجبت الوجبات بدون

إنذار وكان يجرى دفع الأشخاص بخشونة فى الطريق إلى المحجر.

وكان بادنهورست يجيب بالنفى على كل شئ وإذا طلب أحد رؤية محاميه كانت النتيجة الحبس الانفرادى. وألغيت الزيارات وتدهور الطعام وزادت الرقابة.

وبعد أسبوع من تعيينه وبينما كنا نعمل فى المحجر وصل بسيارته وخرج منها ووقف يرقبنا عن بعد وتوقفنا للنظر إلى مأمورنا الجديد فنادانى ووجه إلىّ عبارة بذيئة لم أتقبلها فتقدمت نحوه. لكن قبل أن أقترب منه ركب سيارته ومضى. ثم أرسل رسالة بالراديو إلى موظفيه حيث حضروا بالشاحنة ونقلونا إلى قسمنا وحينما وصلنا إلى الفناء أمرنا بالوقوف وعندئذ ظهر بادنهورست يتمشى أمامنا وأخذ يوجه إلينا العبارات البذئية ثم قال لنا إنه شعر بالاشمئزاز لما رآه من تكاسلنا فى المحجر وعلى ذلك قرر أن يدنى تصنيفاتنا درجة وكان معظمنا قد ارتفع إلى تصنيف جـ أو أعلى وكان لا يسمح بالدراسة للمساجين من تصنيف جـ. وكانت السلطات قد ندمت على السماح لنا بالدراسة وبدا بادنهورست مصمما على إصلاح ذلك الخطأ.

-٧٣-

فى مايو ٧١ أحضر عدد من رجال منظمة سوابو إلى الحبس الانفرادى وكان على رأسهم أنديمبا تويتو مؤسس سوابو. وعلمنا أنهم بدأوا إضرابا عن الطعام فقررنا أن نلحق بهم مما سبب غضب بادنهورست والسلطات الذين رأوا فى ذلك عصيانا غير مقبول.

وفى وقت متأخر من ٢٨ مايو استيقظنا على صوت صيحات وطرقات عنيفة على أبواب الزنزانات وأخذ السجانون يأمروننا بالاستيقاظ ثم بخلع ملابسنا والاصطفاف على الحائط وكان الليل قارس البرودة ولمدة ساعة وبينما كنا نقف عارين مرتجفين أخذوا فى تفتيش زنزاناتنا واحدة واحدة. وبنهاية الساعة أصابت جوفان آلام حادة فى صدره وانهار وأخاف ذلك الحراس وأمرونا بالعودة إلى الزنزانات.

وكان التفتيش عذرا ليمارس به رئيس السجانين نزعاته السادية. وفى اليوم التالى اكتشفنا أن السجانين قد قاموا بضرب بعض مسجونى القسم العام. وبعد ذلك تهجموا على تويفو الذى قام بدوره بالدفاع عن نفسه وأوقع السجان الذى هاجمه وتمت معاقبته بقسوة لذلك.

وقررنا ألا ندع الأمور تسوء كلية تحت إدارة بادنهورست وقمنا بتهريب رسائل إلى رجالنا فى الخارج للقيام باضطرابات لطرده وفى نفس الوقت قررنا تكوين لجنة لمقابلة بادنهورست واستغرقت المناقشات شهورا حتى اتخذ قرار التكوين وكنت أنا وولتر نمثل المؤتمر وكان لكل من التنظيمات الأخرى ممثلون وأثناء المقابلة هددناه بالتوقف عن العمل والتباطؤ والإضراب إن لم يعدل أساليبه ويرد إلينا الامتيازات التى سحبها منا وقال إنه سيدرس الموضوع اعتبرنا ذلك انتصارا.

وبعد أسابيع قليلة عرفنا أن زيارة هامة قد اقترب موعدها إذ سمح لنا أن نحتمى من الأمطار حينما هطلت على المحجر.

وفى اليوم التالى علمنا أن ثلاثة قضاة سيقدمون إلى الجزيرة واخترت

متحدثا عن الباقين.

وفى تلك الأثناء علمت أن سجينا من القسم العام قد تم ضربه بعنف من قبل الحارس وكان القضاة الثلاثة من قسم الكيب تاون من المحكمة العليا وكان يرافقهم مدير السجون وبادنهورست وقابلتهم فى المكان الذى نعمل فيه.

وتكلمت فى حضرتهم عن الهجمات التى حدثت فى القسم العام وعن وقائع الضرب الآثمة ومحاولة تغطية الجريمة وحاول بادنهورست تكذيبى وتهديدى ولكن القضاة اعتقدوا فى صحة ما أقوله. ثم عددت شكاوانا من نظام التغذية والعمل والدراسة. وعقب الزيارة لاحظنا أن يدى بادنهورست كبلت وعقب ثلاثة أشهر تم نقله.

وقبل أيام من مغادرة بادنهورست كان مدير السجون فى زيارة للجزيرة واستدعانى إلى المكتب الرئيسى ليعرف شكاوانا وعددت مطالبنا وبعد انتهائى من كلمتى رد بادنهورست مباشرة قائلا إنه سيغادر الجزيرة وأضاف أنه يرجو لنا حظا موفقا. وأصابتنى الدهشة. فقد قال تلك الكلمات كإنسان وأظهر جانبا من نفسه لم نره من قبل فشكرته.

-٧٤-

وأعلن أن الكولونيل ويليمز سيخلف بادنهورست وطلبت مقابلته ووجدت أنه وإن لم يكن تقدميا فقد كان مجاملا ومعقولا.

ورحل السجانون الذين كان بادنهورست قد أحضرهم معه واستعدنا تصرفاتنا المعتادة فى المحجر ورغم أن ويليمز كان معقولا فقد صُعِق عندمـا رأى أننا نقضى وقتا فى الحديث أكثر منه فى العمل. فاستدعانى إلى مكتبه وطلب منى مساعدته فى فرض النظام فأخبرته أن لطلبه شرعيته ولكن قبل أن أستجيب له فعلى أن أجتمع بكل الرجال وكان مثل ذلك الاجتماع محظورا فطلب منى بعض الوقت لدراسة طلبى وبعد أيام سمح لى بالاجتماع. والتقينا جميعا بعد الظهيرة فى الفناء دون حراس وأخبرتهم بما قاله ويليمز واتفقنا أن نظهر على الأقل وكأننا نعمل لكن بالسرعة التى تناسبنا ولم نسمع شكوى مرة أخرى.

وفى الفترة الأولى من عمل ويليمز ما بين ١٩٧١-١٩٧٢ حضرت أعداد كبيرة من أسرى MK وكانوا قد شهدوا المعركة وكانت لديهم معلومات عن حالة الحركة فى المنفى. وكنت متشوقا أن سمع عن أوليفر وعن معسكرات التدريب وعن نجاح وفشل الـMK.

وكان هؤلاء الرجال نضاليين إلى أقصى درجة ولم يتقبلوا حياة السجن بسهولة وكان من قيادات هؤلاء الرجال چيمى إبريل وهو ضابط MK تلقى تدريبه تحت قيادة چو سلوڤو وحارب العدو فى روديسيا.

وكانت الـMK تواصل تسريب رجالها إلى البلاد بوثائق مزورة وكان چيمى أحد هؤلاء، وقد ألقى القبض عليه.

وروى جيمى لنا الكثير من أنباء الحرب وانتحيت به جانبا وسألته عن مشاكل الـMK وبما أننى مؤسسها وأول قائد عام لها فكان چيمى أكثر صراحة معى وروى لى قصصا عن عدم رضا فى المعسكرات وعن سوء المعاملة من جانب الضباط وطلبت منه ألا يحادث أحدا فى الموضوع وتمكنت من تهريب خطاب إلى أوليڤر طالبا منه أن يجرى الإصلاحات فى المعسكرات.

وكانت نضالية هؤلاء الرجال شديدة وعدم تقبلهم لقيود وحياة السجن تسبب لنا المتاعب.

-٧٥-

وذات صباح وبدلا من أن نسير إلى المحجر أُمرنا أن نصعد مرة أخرى إلى الشاحنة وسارت بنا خمس عشرة دقيقة ورأينا المحيط أمامنا والشواطئ الصخرية وعلى بعد كانت هناك أبراج كيب تاون الزجاجية وقال لنا الضابط إن علينا أن نجمع طحالب بحرية وكانت طويلة ولزجة وكان بعضها يصل طوله إلى ثمانية أقدام ويزن ثلاثين رطلا. وبعد جمع الأعشاب انتظمنا فى صفوف ثم حملناها فى الشاحنة بعد جفافها وقيل لنا إنه سيتم تصديرها إلى اليابان لتستعمل كأسمدة وفى ذلك اليوم لم يعد العمل متعبا ولكننا فى الأسابيع والأشهر التى تلت وجدناه مجهدا ولكن ذلك كان محتملا لما كان يوفره جمال المنظر من متعة.

-٧٦-

وفى أوساط المقاومة كانت تعرف جزيرة روبن بالجامعة ولم يكن ذلك فقط لأننا كنا نتعلم من الكتب أو لأن المسجونين درسوا هناك الإنجليزية والأفريكانية والفن والجغرافيا والرياضيات، أو لأن أشخاصا مثل بيلى نير وأحمد كاثرادا ومايك وينجاكى وإيدى دانيالز حصلوا على عدة درجات جامعية، ولكنها كانت تسمى الجامعة أيضا لأننا كنا نتعلم من أحدنا الآخر فقد كنا نحن هيئة تدريس أنفسنا ومنهجنا الدراسى وكنا نميز بين الدراسات الأكاديمية الرسمية وبين الدراسات السياسية غير الرسمية.

فحينما كان يصل الشباب إلى الجزيرة كنا نعلم أنهم لا يعرفون سوى القليل عن تاريخ المؤتمر وكان وولتر أعظم مؤرخ للمؤتمر يبدأ فى إخبارهم عن نشأة المنظمة الأولى، وتدريجيا تحول ذلك التاريخ غير الرسمى إلى منهج دراسى تم وضعه بواسطة القيادة العليا وكان يعرف بمنهج أو كان يستغرق عامين من المحاضرات، وكان المنهج يتضمن مقررا يقوم كاثرادا بتدريسه يسمى تاريخ النضال الهندى وآخر يسمى تاريخ نضال الملونين بينما قام ماك بتدريس تاريخ الماركسية.

وشمل المقرر الذى درسه وولتر تاريخ المؤتمر منذ عام ١٩١٢ إلى الوقت الحالى وكان بالنسبة لكثير من الشباب التعليم السياسى الوحيد الذى تلقوه.

وبدأنا نوعا من الدراسة بالمراسلة مع مسجونى القسم العام الذين علموا عن البرنامج التعليمي ورغبوا فى الالتحاق به وكان القادة يسربون إليهم المحاضرات. وكان ذلك مفيدا لنا ولهم فهؤلاء الرجال لم يكونوا قد تلقوا سوى القليل من التعليم ولكنهم كانوا على دراية واسعة بمشاق الحياة وكانت اهتماماتهم عملية أكثر منها فلسفية وكانت أسئلتهم تجبرنا على التفكير الجدى فى آرائنا.

وقمت أنا بتدريس مقرر فى الاقتصاد السياسى حاولت فيه تتبع تطور الإنسان الاقتصادى، منذ المجتمعات الجماعية وحتى الإقطاع ثم الرأسمالية والاشتراكية، وكنت أحاول أن أجيب عن الأسئلة بدلا من أن ألقى المحاضرات، وكنت منحازا للاشتراكية التى كنت أجد فيها أكثر مراحل الحياة الاقتصادية التى طورها الإنسان تقدما.

كما استمر عملى القانونى.. فكنت أقضى الساعات العديدة كل أسبوع أعد استئنافات قانونية للسجناء من جميع الطوائف السياسية. وكان كثير من الرجال فى القسم العام قد حكم عليهم بالسجن لأنه لم تكن لديهم الفرصة للاستشارة القانونية وسعى إلىّ كثير منهم لعمل استئنافات. وكان فى ذلك إبقاء على حيوية مهاراتى القانونية من جهة ومن جهة أخرى فقد تم إلغاء بعض الأحكام أو تقليلها فى عدد قليل من القضايا وكانت تلك انتصارات مرضية.

-٧٧-

لم يتوقف اضطهاد السلطات لزوجتى، ففى عام ١٩٧٢ ركل رجال

الشرطة باب المنزل وحطموه وقذفوا قوالب الطوب من النافذة وأطلقوا النيران على البوابة، وفى عام ١٩٧٤ اتُهمت وينى بخرق أوامر الحظر التى كانت منعت بمقتضاها من استقبال أى زائرين سوى أطفالها وطبيبها . وكانت وقتها تعمل فى مكتب محام وأحضر صديق البنتين إليها أثناء ساعة الغداء فاتهِمت بخرق الحظر وحكم عليها بالسجن ستة أشهر فى سجن ولاية أورانج وكتبت إلى وينى قائلة إن تجربتها فى السجن عملت على تدعيم التزامها بالمعركة وكانت السلطات تسمح لزيندزى وزينى بزيارتها كل يوم أحد.

وكانت قوانين السجن فى جزيرة روبن لا تسمح للأطفال ما بين عامين وستة عشر عاما بالزيارة. وفى عام ١٩٧٥ كانت زيندزى قد أتمت الخامسة عشرة وقامت والدتها بتغيير وثائق ميلادها لتثبت أنها أتمت السادسة عشرة وقدمت لها على تصريح بالزيارة تمت الموافقة عليه.

ولم أكن قد رأيت زيندزى منذ أن كانت فى الثالثة وكانت هى تعرفنى من الصور أكثر من الذاكرة. وفى يوم زيارتها اعتنيت بمظهرى أكثر من المعتاد. وعندما رأيتها سعدت أنها قد أصبحت امرأة جميلة تشبه والدتها إلى حد كبير. وبدت زيندزى مترددة فى البداية فلم يكن من السهل عليها أن ترى والدها الذى لم تعرفه أبدا والذى بدا وأنه لا ينتمى إليها ولكن إلى الناس عامة. ولابد أنها كانت فى أعماقها تكن الاستياء والغضب نحو والدها الذى ظل غائبا طوال مدة طفولتها ومراهقتها . وتبينت فورا أنها شابة نارية ثورية مثل والدتها .

وأثناء تلك الزيارة علمت من وينى بمأساة وفاة فيشر من مرض السرطان بعد الإفراج عنه من السجن بقليل. وقد تأثرت بعمق لوفاته. فرغم أن الحكومة لم تترك بصماتها على جثته فإن قسوة معاملتها التى لا هوادة فيها هى التى تسببت فى مرضه الأخير الذى أدى إلى وفاته المبكرة. وحتى بعد وفاته استمرت الحكومة فى مطاردته وصادرت رماد جثته بعد حرقها.

وكان برام مثاليا فبعد محاكمة ريفونيا قرر أنه يستطيع خدمة المعركة على الوجه الأفضل بالعمل السرى بالمعيشة كخارج على القانون. فقد كان يؤرقه أن الرجال الذين تولى الدفاع عنهم كانوا يرسلون إلى المعتقلات بينما كان يعيش هو حرا. وأثناء المحاكمة نصحته ألا يسلك ذلك الطريق مؤكدا أنه يخدم المعركة أفضل فى قاعة المحكمة حيث يستطيع الناس رؤية أفريكانى وابن رئيس قضاة يقاتل من أجل حقوق المغبونين ولكنه لم يكن ليستطيع أن يرى الآخرين يعانون بينما يظل هو حرا. وكالقائد الذى يقاتل جنبا إلى جنب مع جنوده لم يرد أن يطلب من الآخرين أن يقدموا تضحية يتورع هو عنها. والتحق برام بالعمل السرى حينما أفرج عنه بكفالة. وقبض عليه عام ١٩٦٥ وحكم عليه بالسجن مدى الحياة للتآمر على ارتكاب الأعمال التخريبية. وحاولت الكتابة إليه ولكن القوانين كانت تمنع ذلك. وعند إصابته بالسرطان قامت الصحافة بحملة للإفراج عنه على أسس إنسانية واستجابت الحكومة وبعد الإفراج عنه وبينما كان يقيم مع أخيه حيث حددت إقامته توفى.

وبطرق عديدة فإن برام فيشر حفيد رئيس وزراء مستعمرة نهر أورانج قدم أكبر التضحيات على الإطلاق. فمهما كانت معاناتى فى بحثى عن الحرية فقد كنت أستمد القوة من كونى مناضلا من أجل شعبى. أما برام فكان رجلا حرا ناضل ضد شعبه من أجل أن يضمن الحرية للآخرين.

وبعد شهر من الزيارة تلقيت رسالة من وينى تقول إن طلبها الأخير للزيارة قد رفض بحجة أنى لا أريد رؤيتها وحددت فورا موعدا مع الضابط برينس الذى كان مأمورا للسجن والذى لم يكن مهذبا. فحينما شرحت له الأمر مؤكدا أنه يجب السماح لزوجتى بزيارتى علق قائلا إن زوجتى تبحث عن الدعاية ولما أظهرت استيائى من تعليقه وصف زوجتى بأوصاف بذئية ولم أحتمل ونهضت من مقعدى وتحركت نحوه فأخذ يتقهقر ولكننى تحكمت فى نفسى وبدلا من التهجم عليه بقبضتى هاجمته بالكلمات. وختمت قائلا إنه إنسان وضيع بدون شرف وإنه إن تكرر منه ذلك فلن أمنع نفسى كما فعلت ذلك اليوم. واندفعت خارج المكتب وشعرت أنه قد تسبب فى أن أفقد السيطرة على نفسى وشعرت بالهزيمة.

وفى اليوم التالى اصطحبنى سجانان إلى مكتب المأمور وحينما وصلت أحاط بى حوالى ستة سجانين مسلحين. وكان هناك برينس وضابط الاتهام فى المعتقل وقال لى المدعى إنه يتهمنى بإهانة وتهديد مأمور السجن وناولنى أمر الاستدعاء وسألنى إن كان لدىَّ ما أقوله فأجبت بإمكانه التحدث مع محاميى.

وقررت أن أقوم بإعداد قضية مضادة أتهم فيها كل الأفراد بدءا بالمأمور وحتى وزير العدل بسوء التصرف وأقاضى نظام السجون على أساس أنه مؤسسة عنصرية تسعى إلى استمرار سيادة البيض وأجعل من القضية قضية عامة.

وطلبت من جورج بيزرس أن يمثلنى وقلت للسلطات إننى سأقوم بإعطائه تعليمات مكتوبة لأننى أعتقد بوجود أجهزة تصنت فى غرفة الاستشارة فرفض طلبى لأن السلطات كانت تخشى أن يسرب جورج بيانى المكتوب إلى الصحافة وكانت تلك هى بالفعل استراتيجيتنا، وكانوا أيضا يخشون أن أستغل جورج كقناة توصيل إلى أوليفر فى لوساكا وقد كنت قد استخدمت جورج لغرض كهذا من قبل. ولكن الوثيقة الحالية لم يكن بها شئ من هذا القبيل. وحدد موعد لعقد محكمة التأديب بالجزيرة وقبل الجلسة بيوم واحد أُبلغت أن محامىي سيصل فى اليوم التالى وأنه بإمكانى إعطاؤه البيان مكتوبا وتشاورت مع جورج قبل انعقاد الجلسة، لكن ما إن بدأت الجلسة حتى أعلن المدعى سحب القضية ضدى. وبينما نظرت وجورج باستغراب وكنت أستعد لوضع أوراقى فى الحقيبة وصل ضابط اتهام بأمر جديد وأشار إلى بيانى المكتوب وأمر أن أعطيه إياه. ولما طلبت من المدعى أن يخبره أن تلك وثائق تحميها حقوق المحامى وأن من حقى ألا أسلمها رد قائلا إن القضية الأولى قد انتهت وأن المحكمة غير منعقدة وأن ضابط الاتهام هو الشخص الوحيد فى الغرفة الذى لديه أية سلطة وكان من الواضح أن السلطات سحبت القضية للحصول على الوثيقة

التى لم يكن بها شئ ليسوا على علم به.

ورغم ما كان يبدو من استحالة الهرب فلم أستبعد الفكرة طيلة وجودى فى الجزيرة وكان ماك ماهاراب وإيدى دانيالز وكلاهما شجاع وواسع الحيلة دائمىْ التفكير ومناقشة الخطط والاحتمالات.

وكان أحد الرفاق قد تمكن من صنع مفتاح يفتح معظم غرف قسمنا حيث استعملناه لدخول بعض المخازن ولكننا لم نستعمله للخروج من القسم. فقد كان البحر هو الخندق المائى الذى لا يمكن اجتيازه.

وفى عام ١٩٧٤ عبر ماك البحر إلى كيب تاون لزيارة طبيب الأسنان وكان متعاطفا حيث إن أحد أقربائه كان مسجونا سياسيا ولذلك فقد رفض أن يعالج ماك حتى يفك قيده. وقد لاحظ ماك أن غرفة الانتظار بها نافذة قريبة من الأرض تطل على شارع جانبى وخططت أنا وماك وويلتن مكوايي وسجين رابع أن نذهب إلى طبيب الأسنان وكنا على استعداد للقيام بالمحاولة ولكن حينما اتصل ماك بالشخص الرابع رفض. وكنا نشك فى ولائه. ولما ذهبنا إلى طبيب الأسنان أخليت العيادة من المرضى الآخرين. وطلبنا فك قيودنا وقام الحراس بذلك. ولكن حينما نظرنا من النافذة لاحظنا أن الشارع وهو شارع شديد الازدحام فى العادة قد أخلى من المارة وشككنا فى أمر كمين ولم ننفذ الخطة.

-٧٨-

كان عيد ميلادى الخمسين قد مر يوم ١٨ يونيو ١٩٦٨ دون أن ألحظه

وفى عام ١٩٧٥ حينما بلغت السابعة والخمسين تقدم وولتر وكاثرادا بخطة طويلة الأجل لاحتفال يجعل عيد ميلادى الستين مناسبة تذكر.

وكانت إحدى القضايا التى تشغلنى هى إبقاء فكرة المعركة حية بين الشعب وكانت الحكومة قد أخمدت معظم الصحف الراديكالية خلال العقد الماضى وكان هناك حظر على نشر أى كلمات أو صور للسجناء.

وذات يوم كنت أتحدث مع كاثرادا و وولتر فى الفناء حينما اقترح كاثرادا أن أكتب مذكراتى ورأى أن أنسب ميعاد لنشر مثل ذلك الكتاب هو بلوغى الستين وقال وولتر إن مثل تلك القضية إذا رويت بصدق وعدل فستعمل على تذكير الناس بما قاتلنا ومازلنا نقاتل من أجله وأنها ستكون بمثابة إلهام للمقاتلين الشباب وراقت لى الفكرة ووافقت أن أبدأ وقررت أن أكتب معظم الليل وأنام معظم النهار.

وكنت كل يوم أعطى ما أكتب لكاثرادا الذى كان يراجعه ثم يقرؤه على وولتر ويكتب ملاحظاته فى الهوامش ولم يتردد الاثنان فى نقدى وكنت أهتم بنقدهما وأقوم بعمل التغييرات وبعد ذلك كان لالو تشيبا يأخذ المسودة ويحول ما كتبته إلى نسخة ميكروسكوبية مختزلة بنقل صفحات عشر من الفولسكاب إلى وريقة صغيرة ويقوم ماك بتهريبها إلى الخارج.

وبدأ الشك يساور السجانين فسألوا ماك عما أفعله طوال الليل فهز كتفيه قائلا إن ليس لديه أدنى فكرة وأخذت أكتب بسرعة عظيمة حيث انتهيت فى أربعة أشهر وغطيت الفترة من مولدى وحتى محاكمة

ريڤونيا وختمت ببعض التعليقات على جزيرة روبن.

وخبأ ماك النسخة المصغرة فى أغلفة دفاتره التى يستعملها فى الدراسة وقام بتهريبها خارج السجن حين الإفراج عنه عام ١٩٧٦. وكانت الترتيبات قد تمت على أساس أن يخبرنا ماك حينما يتم تهريب النسخة خارج البلاد وحينئذ نقوم بإعداد الأصل. وفى نفس الوقت كان علينا أن نتخلص من الخمسمائة صفحة الأصلية بدفنها فى الحديقة فى غفلة من الحراس فى ثلاث بقع مختلفة بدل حفر حفرة واحدة كبيرة وقسمنا المخطوط إلى ثلاثة أجزاء غلفناها بالبلاستيك ووضعنا كلا منها فى علبة كاكاو وطلبنا من جيف ماسيمولا أن يصنع أدوات الحفر. وذات صباح خرجت أنا وكاثرادا و وولتر وإيدى دانيالز وكأننا للتمشية والحديث السياسى فى الحديقة وتمكنا من حفر الحفر ودفنت أنا الجزء الأكبر من المخطوط فى حفرة عميقة فيها إنبوبة معدنية وثبتت المخطوط تحت الأنبوبة وانتهينا من العملية فى الوقت المحدد لذهابنا إلى المحجر وشعرت بالراحة لوجود المخطط فى مكان أمين.

وبعد أسابيع قليلة وبعد ميعاد استيقاظنا بقليل سمعت صوت دقات فئوس ومجارف. وبعد خروجنا من الزنزانات لنغتسل تمكنت من استرقاق النظر إلى الخارج وهناك، فى النهاية الجنوبية للفناء، كان فريق عمل من سجناء القسم العام يقوم بحفر فى المنطقة التى دفنا فيها المخطوط. فقد قررت السلطات بناء جدار أمام قسم الحبس الانفرادى لأنهم اكتشفوا أن السجناء هناك كان بوسعهم الاتصال بنا فى الفناء. وكان فريق العمل يحفر حفرة لوضع الأساس.

وأخبرت كاثرادا و وولتر بالأمر ونحن نغتسل واعتقد كاثرادا أن الجزء الرئيسى من المخطوط الذى كان قد تم دفنه تحت أحد الأنابيب لاخوف عليه أما الجزءان الآخران فكانا معرضين للاكتشاف. وحينما أحضر الإفطار إلى الفناء أمر السجانون المشرفون على فريق البناء رجالهم بمغادرة الفناء لكى لا يحدث اتصال بينهم وبيننا. وتشاورت مع وولتر وكاثرادا، ثم مشينا حتى وصلنا إلى نهاية الفناء الجنوبى ووجدنا أن بداية الحفر كانت قريبة جدا من مواقع العلبتين الصغريين ولحق بنا إيدى دانيالز وبدأنا فى الحفر وأنقذنا المخطوطين ولما كنا متأكدين أنهم لن ينزعوا الأنبوبة من أجل بناء حائط تركنا المخطوط الثالث مكانه.

وعندما عدت من المحجر ذلك اليوم وبدلا من الذهاب للاغتسال تمشيت إلى نهاية الفناء محاولا التظاهر باللامبالاة ولكن أزعجنى ما رأيت فلقد لاحظت أن فريق العمل قد انتزع الماسورة ولابد أن رد فعلى جذب الانتباه وكان هناك عدد من السجانين يرقبوننى وتأكدوا أننى كنت على علم بمكان المخطوط. وعدت إلى الممر لأغتسل وأخبرت وولتر وكاثرادا وكان إيدى قد تخلص من المخطوطين الآخرين.

وفى الصباح الباكر لليوم التالى استدعيت إلى المكتب لمقابلة المأمور الذى كان يقف إلى جانبه أحد مسئولى السجون الكبار وكان قد و صل توه من بريتوريا. وأخبرنى المأمور أنهم قد وجدوا المخطوط الخاص بى. وبقيت صامتا وحينما سألنى إن كان ذلك خطى لم أجب. ولما أكد أنهم يعلمون أنه لى سألته أن يأتى بالدليل.

وكان ردهم أن ما بحوزتهم هو الدليل وأضافوا أن الملاحظات الهامشية هى بخط كاثرادا ووولتر. ورغم أنهم لم يوقعوا علينا عقوبات ذلك اليوم فقد أعلمنا بعد أيام قليلة أنه قد تم حرماننا من ميزات الدراسة واستمر ذلك الحرمان أربع سنوات.

وبعد أن تم الإفراج عن ماك فى ديسمبر أرسل الدفاتر إلى إنجلترا ثم قضى سنة محددة إقامته فى منزله فى جنوب إفريقيا وعقب ذلك تسلل من البلاد وذهب إلى لوساكا لمقابلة أوليفر ثم إلى لندن حيث مكث ستة أشهر وهناك وبمساعدة كاتب آلة أعاد كتابة المخطوط وعاد إلى لوساكا وأعطى نسخة لأوليفر. ولا أعرف ماذا فعل بها أوليفر بعد ذلك ورغم أنها لم تنشر وأنا فى السجن فإن محتوياتها هى العمود الفقرى لهذه المذكرات.

-٧٩-

وفى ١٩٧٦ تلقيت زيارة غير عادية من چيمى كروجر وزير السجون وعضو بارز فى الوزارة ولم يكن كروجر فقط ذا تأثير بشأن سياسة السجون بل أيضا كان ينتقد سياسة الحكومة إزاء معركة التحرير.

وقد حدست سبب مجيئه فقد كانت الحكومة تقوم بمجهودات ضخمة لإنجاح سياستها للتنمية المنفصلة وللمناطق شبه المستقلة وكانت ترانسكى بقيادة ابن أخى وولى نعمتى فى وقت سابق ماتانزيما النموذج الذى تعرضه الحكومة فى هذا الصدد. وتذكرت ما كان المأمور قد قاله لى مؤخرا وكأنما يتفاكه من أن علىّ أن أتقاعد فى

ترانسكى وأخذ فترة راحة طويلة. وكان ذلك بالفعل ما اقترحه كروجر. وقد رأيت فى المقابلة فرصة لعرض شكاوانا وكان رده أننا جميعا شيوعيون نستعمل العنف. وكان من الواضح أنه لا يعرف شيئا عن المؤتمر. وحينما قلت له إننا أقدم من الحزب القومى، صعقته الدهشة، وكان أيضا لا يعرف شيئا عن ميثاق الحرية.

وكان من الواضح أن كروجر جاء مسلحا بعرض محدد وهو أنه فى حالة اعترافى بحكومة الحكم الذاتى فى ترانسكى فإن العقوبة ستخفف عنى بدرجة كبيرة. وأخبرته أننى أرفض سياسة البانتوستانات رفضا تاما وأننى لن أفعل شيئا لدعمها، وذكرت أيضا أننى من جوهانسبرج وأننى لو عدت فستكون عودتى لجوهانسبرج. ولم تفلح محاولاته لإقناعى وعاد مرة أخرى بعد شهر لنفس الغرض وقوبل بالرفض فقد كان عرضا لا يقبله سوى مُرتد.

-٨٠-

وفى يونيو ١٩٧٦ بدأنا نسمع تقارير غير واضحة عن انتفاضة كبيرة فى البلاد. وسمعنا أن شباب سويتو تغلبوا على العسكر وأن الجنود ألقوا بأسلحتهم وهربوا. ولم نعلم بواقع ما حدث إلا مع وصول المسجونين الشباب ممن اشتركوا فى انتفاضة ١٦ يونيو ١٩٧٦.

ففى ١٦ يونيو تجمع خمسة عشر ألفا من تلاميذ المدارس فى سويتو للاحتجاج على قرار الحكومة القاضى بأن تدرس نصف المقررات فى المدارس الثانوية الإفريقية باللغة الأفريكانية ولم يكن الطلبة يريدون أن

يتعلموا تلك اللغة ولم يكن المدرسون يريدون أن يدرسوا لغة الغاصب، ولم تجد الالتماسات التى أرسلها المدرسون والآباء، وجابهت كتيبة شرطة ذلك الجيش من الطلبة وفتحوا نيرانهم عليهم بدون مقدمات مما نتج عنه مقتل هيكتور بيترسون البالغ من العمر ثلاثة عشر عاما وآخرين كثيرين. ورد الأطفال بالحجارة والعصى وترتب على ذلك حالة من الفوضى الجماهيرية مما أدى إلى جرح مئات من الأطفال بينما قتل رجلان أبيضان بالحجارة.

وترددت أصداء الأحداث فى أرجاء المدن والمناطق الإفريقية ونتجت أعمال شغب وعنف فى جميع أنحاء البلاد ونظمت جنازات جماهيرية لضحايا عنف الدولة تحولت إلى مظاهرات. وفجأة اشتعلت أرواح شباب جنوب إفريقيا بالاحتجاج والثورة. فقاطع الطلبة المدارس فى جميع أنحاء البلاد وشارك منظمو المؤتمر الطلبة بدعم الاحتجاج وهكذا انقلب النظام التعليمى على الذين ابتدعوه لأن ذلك الشباب الغاضب الجرئ كان ثمرته.

وفى سبتمر امتلأ قسم الحبس الانفرادى بشباب تم القبض عليهم عقب الأحداث وعلمنا منهم بما حدث وارتفعت معنوياتنا فقد انفجرت روح الاحتجاج الجماهيرى التى بدأت خامدة فى الستينيات. كان كثير من هؤلاء الشباب قد ترك البلاد ليلحقوا بحركتنا العسكرية ثم تسللوا راجعين وكان قد تم تدريب الآلاف منهم فى تنزانيا وأنجولا وموزمبيق.

وكسجناء، كان هؤلاء الشباب مختلفين عن أى شئ رأيناه. فقد كانوا

شجعانا عدائيين وعدوانيين ولم يكونوا ليطيعوا أى أوامر وكان يميلون إلى المواجهة ولم تدر السلطات ماذا تفعله معهم فقد قلبوا الحياة فى الجزيرة رأسا على عقب.

وقد رأينا فيهم روح العصر الثورية الغاضبة وكنت قد عرفت من وينى ميولهم النضالية الإفريقية. وقد روع المساجين الجدد ما أسموه الظروف البربرية فى الجزيرة وبدوا متشككين فينا وتجاهلوا دعوتنا للنظام. وكان من الواضح أنهم يروننا معتدلين. وبعد سنوات طويلة من وصمى بالثورية والراديكالية لم يكن رأيهم فىَّ كمعتدل مدعاة للسرور- وفضلت أن أسمع ما يقولون.

وحينما حضر بعض هؤلاء الشباب مثل سترينى مودلى من منظمة الطلبة الأفارقة، وساثس كوبر من مؤتمر الشعب الأسود إلى قسمنا دعوتهم إلى إلقاء محاضرات عن تنظيماتهم فقد كنت أود أن أعرف ما أتى بهم إلى المعركة ودوافعهم وأفكارهم عن المستقبل.

وقد رفض هؤلاء الشباب الانصياع لتعليمات السجن كخلع القبعات فى حضور الضباط أو الوقوف إذا دخل الضابط الغرفة.

وكانت هذه أول مرة نتعرف على حركة «الوعى الأسود» فبعد حظر المؤتمر والـ PAC والحزب الشيوعى ساعدت حركة «الوعى» على ملء الفراغ بين الشباب وكان «الوعى الأسود» فلسفة أكثر منها حركة ونتجت عن فكرة وجوب تحرير السود أنفسهم من عقدة النقص التى كانت نتاج قرون من حكم البيض لكى يمكن للشعب أن يهب بثقة

ويحرر نفسه من الطغيان. وبينما كانت حركة الوعى تؤيد مجتمعاً لا عنصريا فإنهم لم يسمحوا للبيض أن يلعبوا دورا لتحقيق ذلك الهدف. وكانت تلك هى الآراء التى كنت أعتنقها حينما كونت منظمة الشباب من ربع قرن مضى. إذاً، فحركة الوعى تمثل نفس الاستجابة لنفس المشكلة التى لم تختف. وبينما شجعتنى روحهم النضالية فقد اعتقدت أن فلسفتهم بتركيزها على اللون الأسود كانت فلسفة إقصائية وتمثل وجهة نظر انتقالية لم تتضح بعد. ورأيت أن دورى كسياسى أكبر سنا هو أن أساعدهم إلى أن ينتقلوا لما هو أكثر شمولا وكنت أعلم أيضا أن هؤلاء الشباب سيحبطون لأن حركتهم لا تقدم برنامج عمل.

كنت أقوم بالاتصال ببعض هؤلاء الشباب عن طريق رسائل مهربة وتحادثت مع بعض ممن كانوا من إقليم ترانسكى وسألتهم عن موطنى. وكان بعضهم ذا شهرة نضالية وقد كنت سمعت تقارير عن باتريك ليكوتا المشهور بـ«الرعب» وكان قائد جمعية طلبة جنوب إفريقيا وأرسلت له رسالة أرحب به فى الجزيرة وكان قد اكتسب شهرته كلاعب كرة، وأيضا لمهارته فى المجادلة. وكان قد اختلف مع بعض زملائه بخصوص الإقصائية العرقية. وبذلك كان قد اقترب من أفكار المؤتمر. وحينما أتى إلى الجزيرة قرر أن يلتحق بالمؤتمر ولكننا لم نشجعه خوفا من خلق توترات فى القسم العام ولكنه غير ولاءه والتحق بالمؤتمر. وذات يوم تعرض لهجوم بمذراة فى الحديقة بواسطة أعضاء من الوعى الأسود وتم علاجه ووجه الاتهام إلى المتهجمين. ولكى لا نشتت الشمل أشرنا عليه ألا يقدم شكوى ووافق ورفض تأدية الشهادة

ضدهم وأُسقطت الدعوة. وقد كنت أريد أن يرى هؤلاء الشباب المؤتمر مظلة كبرى تظل أناسا من نزعات مختلفة وآراء متباينة. وبعد تلك الحادثة قرر العشرات من هؤلاء الالتحاق بعضوية المؤتمر بمن فيهم بعض الذين هاجموه وقد ارتقى «رعب» إلى الصفوف الأمامية للمؤتمر فى القسم العام وأصبح يقوم بتدريس سياسة المؤتمر للسجناء الآخرين. وأكدت شجاعة ورؤية رجال مثل ليكوتا أنه مازالت لآرائنا فاعليتها وأنها مازالت تمثل الأمل الأفضل لتوحيد معركة التحرير ككل.

-٨١-

ولقلق السلطات من كيفية التعامل مع تلك الأسود الصغيرة فقد تركت لنا الحبل على الغارب. وكنا حينذاك فى السنة الثانية من إضراب التباطؤ فى العمل، فقد كان مطلبنا هو حقنا فى أن يُسمح لنا بعمل شئ مفيد كالدراسة أو تعلم مهنة وأن يلغى العمل اليدوى فأوقفنا الذهاب إلى المحجر وقضينا الوقت نتحدث. وفى آخر عام ١٩٧٧ ألغت السلطات العمل اليدوى وأصبح بإمكاننا قضاء اليوم بقسمنا.

وكانت نهاية العمل اليدوى نوعا من التحرر فتفرغت لكتابة الخطابات والنقاش والقراءة وإعداد مذكرات قانونية كما أننى ركزت على هوايتين لى وهما لعب التنس والعمل بالحديقة. وقد نجحت فى زراعة حديقة بالفناء أصبحت تمد الحراس بالبصل والطماطم كما أرسلت فى طلب كتب عن فن زراعة الحدائق. وكنت أرى فى الحديقة إلى حد

ما مجازا لبعض أوجه حياتى. فعلى القائد رعاية حديقته وغرس الحبوب وزراعتها وجنى المحصول. وكالبستانى فيجب على القائد تحمل مسئولية ما يزرعه والعناية بعمله والتخلص من الأعداء والحفاظ على ما يجب الحفاظ عليه وترك ما لا يمكن إنجاحه.

وكتبت خطاباً لوينى عن نبتة طماطم احتضنتها منذ أن كانت صغيرة إلى أن أصبحت زرعة قوية وأنتجت ثمارا عميقة الاحمرار. ولكن نظرا لخطأ ما أو للتهاون فى الرعاية بدأت تذبل لم تفلح محاولاتى فى أن أعيدها قوية. وحينما ماتت اقتلعت الجذور من التربة وغسلتها ودفنتها فى ركن الحديقة. رويت تلك القصة بالتفصيل ولا أعرف ماذا استنتجت وينى من ذلك الخطاب ولكنى حينما كتبته كانت لدى مشاعر متباينة فلم أكن أريد لعلاقتنا أن تنتهى مثل تلك الزرعة ولكنى كنت أشعر أنه لم يكن بمقدورى تدعيم معظم علاقاتى المهمة. وأحيانا يقف الإنسان عاجزا حيال شئ لابد وأن يموت.

وكانت نتيجة إيقاف العمل اليدوى زيادة وزنى. وإنى أجد التمرينات الرياضية ليست أساسية فقط لصحة الجسد بل للسلام النفسى. وكنت أقوم بالتدريبات بانتظام فى الجزيرة. وكانت هيئة الصليب الأحمر، وبناء على شكاوانا قد أمدتنا بمعدات الرياضة المختلفة ككرة الفولى وتنس الطاولة. وبعد إلغاء مميزات الدراسة بدأت فى قراءة الروايات وكانت مكتبة الجزيرة تحوى عددا هائلا منها. أما الكتب السياسية فكانت من المحظورات كذلك كانت كل الكتب عن الاشتراكية والشيوعية لدرجة أن عنوان أى كتاب، حتى ولو كان رواية، إذا احتوى لفظ أحمر

أو حمراء أصبح من الممنوعات. وكنت منذ البداية أحاول قراءة كتب عن جنوب إفريقيا لكتّاب من جنوب إفريقيا فقرأت رويات نادين جورديمر غير المحظورة وتعلمت منها الكثير عن المشاعر الليبرالية البيضاء.

-٨٢-

وفى أعقاب انتفاضة طلبة سويتو علمت أن وينى وصديقى القديم الطبيب نثاثو موتلاند التحقا بجمعية الآباء السود. وفى أغسطس وبعد شهرين من ثورة الطلبة احتُجزت وينى وسجنت بقلعة جوهانسبرج بدون توجيه تهمة ولمدة خمسة أشهر وبعد الإفراج عنها كانت أكثر تصميما والتزاما بالمعركة. وكانت السلطات مستاءة من شعبية وينى وسط الراديكاليين الشباب وكانوا مصممين على الإقلال من تأثيرها وقد نفذوا ذلك بتبجح ووقاحة ففرضوا عليها النفى الداخلى حيث حضرت شاحنة وعربات شرطة فى ليلة ١٦ مايو ١٩٧٧ وحملوا الأثاث والملابس فى الشاحنة. وصدر القرار بنفى وينى إلى منطقة ليس فيها أى صداقات أو معارف ولا تعرف لغتها.

ومن خطاباتها علمت أن الحياة هناك شديدة الصعوبة فلم تكن هناك تدفئة أو مراحيض أو مياه جارية ولم تكن هناك متاجر صغيرة وكانت المتاجر الكبيرة تكن العداء للأفارقة وكان البيض هناك شديدى المحافظة وأصبحت وينى وزيندزى هناك تحت الرقابة الشديد والتهديد من الشرطة.

وفى سبتمبر وبمساعدة محامى وينى تقدمت بطلب ضد الشرطة هناك طالبا منعهم من مضايقة وينى وزينذزى وحكم القاضى لوينى وزينذزى باستقبال زائرين هناك وبما أوتيت وينى من مرونة تمكنت خلال فترة قصيرة نسبيا من اكتساب الناس هناك بما فى ذلك بعض البيض المتعاطفين وقامت بنشاطات اجتماعية لصالح الأفارقة هناك.

وفى ١٩٧٨ تزوجت ابنتى الثانية من وينى بأمير ثامبموزى نجل ملك سويوزا من سوازيلاند وكانا قد التقيا أثناء الدراسة. ولم أستطع القيام بواجبات الأب فى تلك المناسبة ووكلت مستشارى القانونى جورج بيزوس فى أن ينوب عني. وعلمت من جورج أن والد العريس قائد محلى مستنير وعضو فى المؤتمر وكان لزواج زينى من الأسرة المالكة لسوازى ميزة هائلة فقد منحت جواز سفر ديبلوماسيا وكان بإمكانها زيارتى عندما تريد. وحضرت فى الشتاء هى وزوجها ووليدتها. ولمنزلة الأمير فقد سمح بلقائنا فى غرفة الاستشارات وكان لقاء رائعا. وكان للزيارة هدف رسمي فقد كان على أن أختار اسما لحفيدتى وأسميتها زازيوى الذى يعنى أمل.

-٨٣-

وفى أثناء العامين التاليين أصابتنى حالة حنين حالمة وكانت إبانها ذاكرتى تنقلنى إلى لحظات فرح وحزن غامرين. وأصبحت أحلامى غنية وكنت أقضى ليالى بطولها أعيش الأوقات السعيدة والحزينة للماضى. وأضحى هناك كابوس يعاودنى فقد كنت أرانى وقد أطلق سراحى

ولكن من جوهانسبرج ومررت خلال أسوار المدينة ولكن لم أجد أحدا يستقبلنى هناك فقد كان المكان خاويا وكنت أسير تجاه سويتو قاصدا منزلنا وبعد عدة ساعات كنت أجد المنزل ولكن أيضا خاويا كمنزل الأشباح.

-٨٤-

وفى عام ١٩٧٨ وبعد حوالى خمسة عشر عاماً من المطالبة بحق تلقى الأنباء وصلت السلطات إلى تسوية فبدلا من أن تسمح بالصحف أو بالاستماع إلى الإذاعة قررت أن تبدأ إذاعة داخلية تذيع منها ملخصا للأنباء وكانت الفقرات التى تذاع تتكون من أنباء طيبة عن الحكومة وسيئة عن أعدائها وافتتحت أول نشرة إخبارية بنبأ وفاة سوبرت سوبوكوى وكانت هناك أنباء أخرى عن انتصارات قوات إيان سميث.

وفى تلك السنة علمنا أن پى. دبليو. بوثا خلف فورستر فى رئاسة الوزراء. وكان كل ما أعرفه هو أن بوتا كان وزير دفاع شرسا. وقد أمر بالهجوم على أنجولا عام ١٩٧٥. ثم علمنا مالم تذعه المحطة وهو نجاح حركة التحرير فى أنجولا وموزمبيق وتولى حكومات ثورية هناك.

وأدخلت السلطات أيضا إلى الجزيرة الأفلام السينمائية حيث كان يعرض فيلم كل أسبوع. وكان ضمن الأفلام التى عرضت فيلم كليوباترا وأثار الفيلم مناقشات كثيرة حيث اعترض الكثير على أن تقوم ممثلة أمريكية بدور كليوباترا.

ورأوا فى ذلك الفيلم مثلا للدعاية الغربية التى تسعى لمحو حقيقة أن

كليوباترا كانت إفريقية وذكرت لهم أنا عن التمثال الرائع الذى رأيته في مصر لكليوباترا والذى صورها ذات بشرة أبنوسية. وتأثرت تأثرا عميقا بفيلم وثائقى صور إغراق السفينة الملكية البريطانية على أيدى اليابانيين وكان أكثر ما أثر فى هو رؤية تشرشل يبكى عقب فقدان السفينة. وقد بقيت الصورة فى ذاكرتى مدة طويلة وحدث بعد مشاهدتنا فيلما عن مجموعة ملائكة جهنم الأمريكية -التى كانت ضد السلطة- بدأنا على الفور فى نقاش معناه، وانتقد معظم الرجال أساليب جماعة ملائكة جهنم الخارجة على القانون ولكن أحد أعضاء جمعية الوعى الأسود ويدعى سترينى هاجمنا وقال إننا مجموعة من مثقفى الطبقة الوسطى وعلى ذلك توحدنا من السلطات اليمينية. وما أثار قلقى هو مدى صحة اتهام سترينى فلقد كان قد مر وقت طويل على دخولنا السجن وكان الخطر هو أن تكون أفكارنا قد تجمدت مع الوقت فالسجن نقطة ثابتة فى عالم متحرك ومن السهل أن يبقى الانسانَ فى مكانه بينما العالم يتغير.

وفى عام ١٩٧٩ أعلنت السلطات تعديل نظام التغذية وتوحيده بين جميع السجناء من جميع الأعراق وعمدت السلطات فى السجن إلى الإقلال من نصيب الرجل الملون من السكر بدلا من زيادة نصيب الإفريقى.

-٨٥-

وفى الثمانينات منحنا حق شراء الصحف وكان ذلك الحق مقصورا

على مصنفى «أ» وكانت كل مجموعة منهم لها الحق فى شراء صحيفة واحدة إنجليزية وأخرى أفريكانية. ولكن إذا تبادلوها مع المجموعات الأخرى يسقط هذا الحق عنهم. ورغم أن الصحف التى كنا نشتريها كانت محافظة فقد كانت تخضع لرقابة السجن التى تتولى قص الفقرات التى تراها ضارة.

وأمكننى فى مارس ١٩٨٠ قراءة فقرة صحفية فى جريدة جوهانسبرج صانداى وكان العنوان «أطلقوا سراح مانديللا» أما فى داخل الصحيفة فقد كان هناك التماس يمكن للناس التوقيع عليه للمطالبة بإطلاق سراحى وزملائى.

وكانت الفكرة قد بدأها أوليڤر والمؤتمر فى لوساكا وكانت الحملة حجر زاوية فى استراتيجية تضع قضيتنا فى بؤرة تفكير الناس وقام المؤتمر بتركيز الحملة على شخص واحد يريد أن يعطيها أبعادا شخصية. ومما لا شك فيه أن الملايين الذين أيدوا الحملة لم تكن لهم أدنى فكرة عمن يكون نيلسون مانديللا. وقد علمت أنه حينما ظهرت ملصقات Free Mendela فى لندن اعتقد معظم الشباب هناك أن اسمى الأول هو Free.

وكنت قبل ذلك بعام قد منحت جائزة جواهر لال نهرو لحقوق الإنسان فى الهند وكان ذلك دليلا على انبعاث المقاومة من جديد وبالطبع منعت أنا وويني من حضور الاحتفال وحضر أوليڤر نيابة عنى. وتجدد أيضا نشاط الـMK حيث كانت تقوم بإحداث تفجيرات أسبوعيا فى مواقع

استراتيجية. واستحدث وزير الدفاع مالان -يؤيده بوتا- نظام «عسكرة» البلد لمواجهة معركة التحرير.

-٨٦-

وفى أحد أيام ١٩٨٠ علمت أن ملك ترانسكى ساباتا داليند ييبو الذى كان من المقرر أن أكون مستشارا له قد خلعه ابن أخى ماتانزيما رئيس وزراء ترانسكى. قد سبب ذلك استيائى الشديد. وطلب عدد من رؤساء قبائل الثمبو المحليين زيارتى وتمت الموافقة عليها من قبل السلطات لاعتقادهم أن انشغالى بالشئون القبلية قد يقلل من تورطى فى المعركة. وقد كانت الحكومة تدعم سلطة رجال القبائل للتقليل من أثر المؤتمر. وبينما رأى الكثير من زملائى أن أرفض رؤية هؤلاء الرؤساء رأيت من الواجب أن أحاول الوصول إليهم فلم أكن أرى تعارضا بين كون الإنسان قائدا قبليا وعضوا فى المؤتمر بل كنت أعتقد أن إسهامنا فى التنظيمات المحلية سيكون مصدر قوة لنا.

والتقيت بالرؤساء الذين كانوا يؤيدون ساباتا ويخافون ماتانزيما وأشرت عليهم بالوقوف إلى جانب ساباتا وأن يبلغوه تأييدى ومعارضتى لماتانزيما.

كما طلب ماتانزيما مقابلتى بحجة مناقشة أمور عائلية ورغم رغبتى فى رؤيته لاعتقادى بإمكانية التأثير عليه فقد اعترض كثير من رفاقى فى القسم لأنهم رأوا أن ماتانزيما سيستغلها للدعاية السياسية ولإيهام الناس أننا راضون عن سياسته وانحنيت أمام آرائهم.

وفي مارس ١٩٨٢ علمت بإصابة ويني في حادث سيارة وبعد ذلك جاءني محاميها ليطمئنني عليها وكانت الزيارة قصيرة. وعند عودتي إلى زنزانتي زارني هناك مأمور القسم وكان ذلك أمرا غير معتاد. وأخبرني المأمور أن عليّ أن أجمع حاجياتي لأن الأوامر قد صدرت بنقلي ولم يفصح لي عن الجهة التي سأنقل إليها. وعلمت أن وولتر وريموند مهلابا وأندرو مالا نجيني قد صدرت إليهم نفس الأوامر.

وتساءلت: لقد مر على ثمانية عشر عاما في الجزيرة. فلماذا هذا القرار المفاجئ؟ وحدثت حالة اهتياج في الممر عندما علم الآخرون أننا سنرحل ولكن لم نمنح الوقت لوداع رفاق السنوات الطويلة.

ونظرت من العبارة تجاه الجزيرة فقد اعتدت عليها. لقد عشت هناك قرابة عقدين من الزمان ورغم أنها لم تكن أبدا لي موطنا فلقد كانت مكانا شعرت فيه بالراحة فإنني لا أشعر بالراحة مع التغيير ولم تكن الجزيرة استثناء لذلك.

وفي كيب تاون دفع بنا إلى شاحنة بدون نوافذ مضت بنا لمدة بدت أكثر كثيراً من ساعة. ثم وقفت وأُمرنا بالسير في الظلام وتسلقنا درجات إسمنتية ودخلنا من أبواب معدنية إلى منطقة أخرى. وحينما سألت الحارس عن المكان الجديد أجاب أنه سجن بولسمور.■

10

الجزء العاشر

التحادث مع العدو

-٨٧-

يقع سجن بولسمور للحالات الأمنية القصوى على حافة ضاحية بيضاء غنية تدعى توكاى إلى الجنوب الشرقى من كيب تاون. وتحيط بالسجن مناظر الكيب الخلابة. ولكن ذلك الجمال تحجبه عن السجناء أسوار إسمنتية. وفى بولسمور فهمت مقولة أوسكار وايلد عن الخيمة الزرقاء التى يسمى بها السجناء السماء.

وتم فصلنا هناك عن سجناء القسم العام. ولم يكن هناك سجناء سياسيون غيرنا. وكانت معاملتنا مختلفة. فمنح أربعتنا ملحقا للسجن عبارة عن غرفة متسعة على السطح فى الطابق الثالث وكنا السجناء الوحيدين فى ذلك الطابق. وكانت الغرفة نظيفة وحديثة وكان بها ملحقاتها من الحمامات والمراحيض. وكان بالغرفة أربعة أسرّة وضعت عليها ملاءات ومناشف وكان ذلك رفاهية لرجال قضوا الثمانية عشر عاما السابقة ينامون على الأرض. وكانت هناك شرفة ذات مساحة ضخمة سمح لنا بالخروج إليها أثناء النهار. ولم يكن بإمكاننا رؤية أى شئ سوى السماء نظرا لأسوارها العالية. ورغم وجودنا فى قلب القارة فقد شعرنا بالعزلة لأن الجزيرة بالنسبة لنا كانت مركز المعركة.

وكان النقل على ما يبدو استراتيجيا فقد أرادت السلطات قطع رأس المؤتمر على الجزيرة بنقل قادته لكى تحرم الجزيرة من أهميتها الرمزية بعد أن أصبحت أسطورة تدعم المقاومة. وكنت أنا و وولتر وريموند أعضاء فى القيادة العليا على الجزيرة لكن لم نجد سببا لوجود ملانچينى وكان هذا يعنى أن استخباراتهم عن التنظيم لم تكُن صحيحة. وتأكد حدسنا بعد أن لحق بنا كاثرادا بعد شهور قليلة. ثم لحق بنا شخص لم نكن نعرفه يدعى باتريك مافابيللا وكان محاميا شابا من المؤتمر من شرق الكيب تاون ومحكوما عليه بالسجن عشرين سنة وقد نقل من سجنه لنشاطه فى عمل تنظيمات سرية.

ورغم أننا كنا نعيش فى عالم من الإسمنت فقد كانت ميزات المكان الجديد أفضل فقد كان الطعام أحسن وكان بإمكاننا قراءة العديد من الصحف والمجلات التى كانت ممنوعة مثل التايم والجارديان من لندن وكان لدينا مذياع يتلقى المحطات المحلية فقط. وكانت الغرفة الرئيسية لها ملحق صغير استعمل كغرفة دراسة وبه مكتب وأرفف كتب. وكنت أقوم بممارسة الرياضة فى الغرفة الواسعة.

وحضرت وينى لزيارتى عقب نقلى وكانت مساحة الزيارة أفضل بكثير

منها فى الجزيرة والرقابة أخف.

وكان مأمور السجن البريجادير مونرو شخصا بذل جهده لنحصل على ما كنا نطلبه. ورغم ذلك حدثت مشاكل ضُخِّمت أضعاف حجمها. فقد شكوت مرة لوينى أن الحذاء الذى تسلمته أصغر من حجم قدمى وسمعت بعد ذلك أن التقارير الصحفية قالت إنه ستجرى لى عملية لبتر إصبع قدمى وجاءت هيلين سوزمان لزيارتى فى السجن وأريتها إصبعى سليما معافا. وحدث أن شكونا من رطوبة الغرفة ونشرت الصحف أن زنزانتنا قد أغرقتها المياه.

وفى مايو ١٩٨٤ حدث تغيير سبب لى الكثير من الارتياح فقد سمح لنا بالالتقاء المباشر مع الزائرين وحدث ذلك عند زيارة وينى وزينى وابنتها الصغرى حيث سمح لنا بالتواجد فى نفس الغرفة وعانقت زوجتى وابنتى لأول مرة منذ واحد وعشرين عاما.

-٨٨-

وفى بولسمور كنا على اتصال بالأحداث الخارجية وكنا نعلم أن المقاومة تتصاعد وكذلك مجهودات العدو. ففى عام ١٩٨١ قامت القوات الجوية لجنوب إفريقيا بالهجوم على مكاتب المؤتمر فى موزمبيق حيث قتل ثلاثة عشر من رجالنا، وفى ديسمبر ١٩٨٢ فجر رجال الـMK محطة طاقة نووية لم تكتمل خارج كيب تاون وزرعوا قنابل فى مواقع عسكرية وأهداف للأبارتايد. وفى نفس الشهر هاجمت قوات جنوب إفريقيا مواقع للمؤتمر فى لوسوتو وقتلت اثنين وأربعين شخصا بينهم نساء وأطفال

وفى ١٩٨٢ كانت المناضلة روث فيرست تفض خطابا لها حينما انفجرت فيها متفجرات كانت داخل الخطاب. وكانت وقت ذلك تعيش فى مايوتو فى المنفى وكانت زوجة جو سلوفو. وعاشت مناضلة مناهضة للآبارتايد وقضت شهورا عدة بالسجن وكانت ذات شخصية قوية جذابة وكنت قد التقيت بها أول مرة فى جامعة Wits.

واستعملت MK قنابل السيارات لأول مرة فى مايو ١٩٨٣ وكان ذلك ضد قوة دفاع جوى ومكتب عسكرى فى قلب بريتوريا انتقاما للهجوم على المؤتمر فى الخارج وتصعيدا للعمليات العسكرية وقتل تسعة عشر شخصا وجرح مايربو على المائتين. وعبر أوليڤر عن الموقف فى ذلك الوقت قائلا إن المعركة العسكرية قد فرضت علينا بواسطة عنف نظام الأبارتايد.

وكانت الحكومة والمؤتمر فى ذلك الوقت يعملان فى اتجاهين: الاتجاه العسكرى والاتجاه السياسى. فعلى الصعيد السياسى كانت الحكومة تتبع سياسة فرق تسد لتفصل بين الهنود والملونين والأفارقة. فحاول بوثا أن يعطى الهنود والملونين امتيازات انتخابية ولكن ذلك لم يخدع الناس إذ قاطع ثمانون فى المائة منهم الانتخابات.

وتكونت حركات قاعدية سياسية جديدة فى داخل البلاد ذات صلات وثيقة بالمؤتمر مثل حركة الجهة الديمقراطية المتحدة التى نصبونى راعيا لها وضمت أكثر من ستمائة منظمة مناهضة للأبارتايد وكان لها نشاطات سياسية واسعة. وكان المؤتمر يشهد ميلادا وشعبية جديدين.

وأثبتت استطلاعات الرأى أن المؤتمر يتصدر قائمة المنظمات الأخرى بين الأفارقة رغم حظره لربع قرن ويتفوق عليها بكثير. وكانت حركة الأبارتايد ككل قد حازت اهتمام العالم وفى عام ١٩٨٢ منح الأسقف توتو جائزة نوبل للسلام. وأصبحت السلطة تحت ضغط دولى متنام حيث أخذت الدول في جميع أنحاء الأرض في فرض الحظر الاقتصادى على بريتوريا.

وعلى مر السنوات كانت الحكومة ترسل لى مستطلعين بدءا بمجهودات الوزير كروجر لإقناعى بالانتقال إلى ترانسكى. ولم تكن تلك محاولات للتفاوض بل وسائل لعزلى عن منظمتى ورغم عدم استجابتى لتلك المحاولات فقد كان بالإمكان رؤية محاولاتهم للتفاوض بدلا من الهجوم مقدمة لتفاوضات حقيقية.

وأخذت الحكومة تختبر الموقف فخلال عامى ١٩٨٤، ١٩٨٥ تلقيت زيارتين من رجلى دولة مهمين أولهما اللورد نيكولاس بثل عضو مجلس اللوردات البريطانى والبرلمان الأوروبى وثانيهما صامويل داش أستاذ القانون بجامعة جورج تاون والمستشار السابق للجنة مجلس الشيوخ بشأن ووترجيت.

وكانت كلتا الزيارتين قد صرح بهما وزير العدل الجديد كوبى كوتسى الذى كان نوعا جديدا من القادة الأفريكان وتحدثت عن الأوضاع فى السجون مع لورد بثل وعن بولسمور والمقاومة المسلحة وأخبرته أنه بإمكان الحكومة إنهاء أعمال العنف وقلت له إننا نستهدف المنشآت

العسكرية وليس الأفراد. وفى لقائى مع البروفسور داش عرضت تصورى للحد الأدنى لجنوب إفريقيا لاعرقية تكون دولة موحدة دون مواطن للأعراق المختلفة وتجرى فيها انتخابات لبرلمان مركزى حيث يكون لكل فرد صوت انتخابى وأكدت أن ما نريده هو المساواة السياسية وقلت له بصراحة إننا فى الواقع لا نستطيع هزيمة الحكومة عسكريا ولكن بوسعنا جعل حكمها صعبا. وزارنى رئيس تحرير الواشنطون بوست المحافظة التى كان هدفها ليس هو الاستماع لما أقول بقدر إثبات أننى شيوعى إرهابى وأننى لست مسيحيا لأن القس مارتن لوثر كينج لم يلجأ إلى العنف. فبينت له أن جنوب إفريقيا ليست دولة ديمقراطية مثل أمريكا بل دولة دستورية يتوج دستورها عدم المساواة ويرد جيشها على عدم استعمال العنف بالقوة.

وفى مواجهة الاضطرابات فى الداخل والضغوط من الخارج اتخذ بوتا خطوة فاترة مترددة. فقد أعلن فى البرلمان أنه مستعد لإطلاق سراحى إذا أنكرتُ العنف كأداة سياسية وقال إن ذلك ينطبق على جميع السجناء السياسيين الآخرين. وكان ذلك سادس عرض مشروط من الحكومة خلال عشر سنوات. وبعد الاستماع إلى الخطاب طلبت السماح لزوجتى ومحاميى إسماعيل أيوب بالزيارة لإملاء الرد ولم يُسمح لها بالزيارة إلا بعد أسبوع كنت فى خلاله قد كتبت الرد إلى وزير الخارجية بيك بوتا رفضتُ فيه أى اشتراطات لإطلاق سراحى وأعددت إعلانا عاما حرصت فيه على ذكر عدة أشياء لأن هدف بوتا كان التفريق بينى وبين زملائى وقد أردت أن أؤكد للمؤتمر عامة

وأوليفر خاصة ولائى الخالص للمنظمة وكنت أيضا أود إفهام الحكومة أنه رغم رفضى العرض فإنى أعتقد أن المفاوضات وليست الحرب هى السبيل للحل. وكنت أيضا أوضح أننى إذا خرجت من السجن فى نفس الظروف الذى اعتقلت فيها فإننى سأقوم بنفس الممارسات التى أدت إلى سجنى.

وقابلت وينى وإسماعيل يوم الجمعة وكان يوم الأحد قد حُدد لمظاهرة فى استاد سويتو يعلن فيها ردى. وأعطيت وينى وإسماعيل الكلمة التى أعددتها وكنت أيضا أود أن أوجه شكرى إلى الجبهة الديمقراطية المتحدة على أعمالها الرائعة وأهنئ الأسقف توتو على الجائزة. ويوم الأحد ١٠ فبراير ١٩٨٥ قرأت ابنتى زيندزى ردى على الجماهير المهللة التى لم يكن بإمكانها سماع أى كلمة منى فى أى مكان من جنوب إفريقيا لمدة تربو على العشرين عاما.

وكانت زيندزى متحدثة ديناميكية مثل والدتها. وقالت إن والدها كان يجب أن يكون فى الاستاد ليتكلم بنفسه. وجاء فى كلمتى أننى عضو بالمؤتمر وسأظل عضوا فيه إلى وفاتى وأن أوليفر تامبو أكثر من شقيق لى وأعلم أنه من الممكن أن يضحى بحياته ليرانى حرا. وأضفت أن الشروط التى تريد الحكومة فرضها تسبب لى الدهشة لأننا لم نسلك طريق العنف إلا بعد أن سدت أمامنا جميع طرق المقاومة. وأن على بوثا أن يبرهن أنه مختلف عمن سبقوه ويترك العنف ويلغى الأبارتايد ويطلق سراح السجناء والمنفيين لمعارضتهم للأبارتايد ويضمن حرية النشاط السياسى ليتمكن الشعب من تقرير من يحكمه. وقلت: إننى

أحرص على حريتى لكنى أحرص بالتأكيد على حريتكم ولست أقل حبا منكم للحياة ولكنى غير مستعد لبيع حق مولدى أو حق مولد شعب لأحصل على حريتى. فماذا تعنى تلك الحرية بينما تحظر المنظمة التى أنتمى إليها. أو بينما يمكن أن يلقى القبض علىّ لعدم حملى تصريحا للمرور. أو بينما زوجتى منفية فى براندفورت أو بينما يجب أن أطلب تصريحا لأسكن فى منطقة مدنية أو بينما لا تحترم مواطنتى فى جنوب إفريقيا. إن الأحرار هم الذين يستطيعون التفاوض ولا يمكن للسجناء الدخول فى اتفاقات. فأنا لا أستطيع ولن أتعهد بشئ فى وقت أنا وأنتم لسنا أحرارا فلا يمكن الفصل بين حريتكم وحريتى.

وسأعود.

-٨٩-

تقرر دخولى المستشفى فى عام ١٩٨٥ فى كيب تاون لإجراء عملية البروستاتا تحت حراسة مشددة. طارت وينى لرؤيتى قبل إجراء العملية. ولكنى تلقيت زيارة أخرى أدهشتنى فقد حضر كوبى كوتسى وزير العدل بحجة زيارة صديق له فى المستشفى. ولقد كنت قد كتبت إليه خطابا دعوته للقاء لمناقشة إجراء محادثة بين المؤتمر والحكومة. فقد كانت الحكومة قد تبينت أنها لابد وأن تصل إلى اتفاق مع المؤتمر وكانت زيارته هى غصن الزيتون.

وبعد شفائى حضر المأمور لاصطحابى وكان ذلك أمرا غير عادى. وأخبرنى أننى لن أذهب إلى رفاقى بل سأقيم بمفردى. وعند وصولى

إلى السجن ساقوني إلى زنزانة في قسم مختلف تماما. فقد كانت عبارة عن جناح من ثلاث غرف وحمام ولم أستطع في البداية استيعاب سبب التغيير. لكن في الأسابيع التي تلت تفهمت وضعي الجديد الذي قررت أنا أن أستغله لبدء محادثات مع الحكومة فقد رأيت أن الوقت قد حان لدفع عجلة النضال من خلال المفاوضات مستغلا فرصة وحدتي.

فقد كان قد مر علينا خمسة وسبعون عاما من النضال ضد حكم الأقلية البيضاء. كما كان قد مر ما يربو على عقدين على بدء القتال المسلح. وقد مات أناس كثيرون من الجانبين. أما العدو فكان قويا وعنيداً. لكن رغم عنادهم فلابد وأنهم قد أدركوا أنهم على الجانب الخطأ في التاريخ ورغم أن الحق كان معنا لم نكن نملك القوة بعد وكان من الواضح أن النصر العسكري بعيد إن لم يكن مستحيلا. ولم يكن من الحكمة للجانبين أن يفقدوا الآلاف إن لم يكن الملايين في معركة غير ضرورية. ولابد أنهم أدركوا ذلك. وقد حان الوقت للحديث وكان كل من الجانبين ينظر للنقاش على أنه نوع من الضعف وكانت الحكومة قد أعلنت مرارا أن المنظمة إرهابية شيوعية ولا يمكن التحادث معها وكان المؤتمر قد أكد مراراً أن الحكومة فاشية عنصرية وأنه لا يوجد موضوع نقاش حتى يرفع الحظر عن المؤتمر ويطلق سراح جميع المسجونين السياسيين بدون شرط وتنسحب القوات من المناطق الإفريقية.

وكان يجب أن يتخذ القرار في لوساكا ولكني شعرت أن العملية يجب أن تبدأ وأنه ليس هناك وقت أو وسيلة للاتصال بأوليفر. وكان عزلي

الجديد يوفر لى الحرية أن أتحرك تحت ستار من الجدية.

وقررت ألا أنبئ أحداً بما أنا فاعله حتى زملائى فى نفس السجن الذين كنت أعرف أنهم سيستنكرون اقتراحى ويحكمون على المبادرة بالإعدام قبل أن تولد. وأن هناك أوقاتا يجب على القائد أن يستبق الرعية ويسير فى اتجاه جديد وهو واثق أنه يقود السفينة فى طريق النجاة.

وكان عزلى أيضا يمكن منظمتى من التماس العذر فى حالة فشل المساعى بأن يقال إن الرجل العجوز كان منعزلا واتخذ خطواته بصفة شخصية وليس كممثل للمؤتمر.

-٩٠-

وفى خلال أسابيع أرسلت لكوتسى اقتراحا بأن نتحادث بشأن بدء مفاوضات وكالمرة السابقة لم أتلق ردا. وكتبت مرة أخرى دون استجابة. وقررت أن أتحين فرصة أخرى وقد واتتنى في بدء ١٩٨٦.

ففى اجتماع الكومنولث فى أكتوبر ١٩٨٥ لم يستطع قادته التوصل إلى قرار بشأن فرض العقوبات على جنوب إفريقيا لمعارضة مارجريت ثاتشر الشديدة لذلك. وللخروج من المأزق تقرر إرسال وفد على مستوى عال لزيارة جنوب إفريقيا لتقرير ما إن كانت العقوبات أداة صحيحة لإنهاء الأبارتايد. فى بداية ١٩٨٦ وصلت مجموعة السبعة أشخاص بقيادة الجنرال أوسانجو وهو قائد حربى سابق لنيجيريا، ورئيس استراليا السابق مالكولم فريزر إلى جنوب إفريقيا لتقصى

الحقائق.

وفى فبراير زارنى أوسانجو لبحث طبيعة تقرير الوفد وكان حريصا على أن يسجل لقائى بالمجموعة كلها وأدرجت المقابلة فى مايو بموافقة الحكومة. وبعد ذلك كان مقررا للمجموعة أن تتحدث إلى مجلس الوزراء ووجدت ذلك فرصة لاقتراح المفاوضات.

وقد رأت الحكومة أن اجتماعى مع المجموعة مناسبة غير عادية فزارنى البريجادير مونرو وبرفقته حائك لأخذ مقاساتى قبل الاجتماع بيومين. وقال إنهم يريدون لى أن أقابل هؤلاء الناس على وجه المساواة ولا يريدون لى أن أقابلهم بثياب السجن. وبعد يومين أحضر الحائك حلة أنيقة كما منحت قميصا وربطة عنق وزوجا من الجوارب وملابس داخلية. وقال المأمور يومها إننى أبدو رئيسا للوزراء وليس سجينا.

ولحق بنا مراقبان فى لقائى مع المجموعة هما كوتسى وويلمس رئيس السجون. ولكن الأمر الغريب هو أنهما انصرفا عقب بداية الاجتماع وحاولت معهما أن يبقيا فرفضا وقلت لهما إن الوقت قد حان للتفاوض بدلا من الاقتتال وإن المؤتمر والحكومة يجب أن يجلسا للتحادث.

وجاءت المجموعة بأسئلة كثيرة تتصل بقضايا العنف والمفاوضات والعقوبات الدولية. وفى البداية أرسيت قواعد للمناقشة قائلا إننى لست رئيس الحركة وإن الرئيس هو أوليفر تامبو فى لوساكا ولابد لهم من اللقاء به وأن آرائى شخصية وإنى لا أمثل حتى آراء زملائى فى السجن وبعد كل شئ فأنا أفضل أن يبدأ المؤتمر محادثات مع

الحكومة.

وكان بعض أعضاء المجموعة قلقا بشأن أيديولوجيتى السياسية وماذا ستكون عليه جنوب إفريقيا تحت قيادة المؤتمر وشرحت لهم انتمائى القومى الإفريقى وأننى غير شيوعى وأن القومية الإفريقية تضم تحت لوائها أشخاصا من مختلف الأعراق والنحل وعن إيمانى بميثاق الحرية الذى يجسد مبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان وذكرت اهتمامى بأن تشعر الأقلية البيضاء بالأمان فى جنوب إفريقيا وإيمانى أن المشاكل القائمة يمكن حلها عن طريق المفاوضات. وبينما لم أستنكر العنف فقد قلت لهم إن العنف لن يوجد الحل النهائى للوضع فى جنوب إفريقيا واقترحت أن تسحب الحكومة الجيش والشرطة من المناطق الإفريقية.

وفى تلك الحالة يمكن للمؤتمر الموافقة على تعليق المعركة العسكرية تمهيدا للمفاوضات.

وكانت خطة المجموعة بعد ذلك أن تقابل أوليڤر فى لوساكا ومسئولى الحكومة فى بريتوريا وكانت ملاحظاتى قد احتوت على رسائل للطرفين. ثم تجتمع اللجنة بى مرة أخرى فى مايو وكنت متفائلا بعد أن زارت اللجنة لوساكا وبريتوريا من بدء المفاوضات. ولكن فى اليوم السابق للاجتماع بأعضاء مجلس الوزراء، وبناء على أوامر الرئيس بونا أغارت قوات دفاع جنوب إفريقيا وقوات فدائييها على قواعد المؤتمر فى بوتسوانا وزامبيا وزيمبابوى مما سمم جو المحادثات.

دعا أوليڤر تامبو ورجال المؤتمر شعب جنوب إفريقيا أن يجعلوا البلد مكانا لا يمكن السيطرة عليه وأطاع الناس الدعوة ووصلت حال القلق والعنف أقصاها واشتعلت الفوضى فى الأماكن الإفريقية وكان الضغط الدولى يقوى كل يوم. وفى يونيو ١٩٨٦ فرضت الدولة حال الطوارئ كمحاولة للتحكم فى الاحتجاج وبدأت الظواهر تنبئ عن استحالة التفاوض. ولكن غالبا ما تكون اللحظات الأكثر إحباطاً هى ذاتها المناسبة للمبادرات. وكتبت خطابا إلى ويلمس رئيس السجون لمقابلته وحينما التقينا قلت له إننى أرغب فى مقابلة وزير العدل لأبحث إمكانية التعاون فى كيب تاون وقال إنه سيدرس الإمكانية وبعد مكالمة هاتفية مع الوزير أخبرنى أنه طلب منه أن يحضرنى إليه.

وقضيت مع الوزير ثلاث ساعات فى قصره وبدا مرحبا ودودا منصتا. وكانت أسئلته تبين مدى إلمامه بالقضايا التى تفصل بين الحكومة والمؤتمر وسألنى عن الظروف التى نتطلبها لإيقاف المعركة العسكرية وإن كنت أتحدث نيابة عن المؤتمر وإن كنت قد كونت تصورا عن الضمانات الدستورية للأقليات فى جنوب إفريقيا الجديدة. وسألنى عن الخطوة التالية فقلت له إننى أريد أن ألتقى برئيس الجمهورية ووزير خارجيته بيك بوتا فقال إنه سيرسل طلبى عن طريق القنوات الصحيحة وصافحنى وعدت إلى زنزانتى.

لم أبلغ أى أحد فقد أردت للأمور أن تبدأ قبل إخبار الآخرين، فأحيانا يكون من الضرورى أن يعرض المرء على زملائه خطة سياسية كأمر

واقع وكنت أعرف أن زملائى فى بولسمور ولوساكا سيوافقوننى بعد دراسة الموقف لكن بعد تلك البداية المبشرة مرت شهور دون أن يأتينى رد من كوتسى وكتبت له مرة أخرى.

-٩١-

رغم أننى لم أتلق ردا من كوتسى فقد كانت هناك مؤشرات أخرى إلى أن الحكومة كانت تستعد لوجود مختلف. ففى اليوم السابق لكريسماس دخل نائب مأمور سجن بولسمور إلى زنزانتى بعد الإفطار وعرض أن يصطحبنى لنزهة فى المدينة ورغم عدم فهمى قبلت عرضه. وسرت أنا وهو خلال الخمس عشرة بوابة التى تفصل زنزانتى عن المدخل حيث كانت سيارته فى انتظارنا وأخذ يتجول بى فى المدينة وشعرت كأنى سائح متشوق فى بلاد غريبة مميزة. وسألنى إن كنت أريد شرابا باردا ولما أومأت اختفى فى محل وجلست بالسيارة متفردا لأول مرة منذ عشرين عاما بدون حراسة وراودتنى فكرة الهرب خاصة وأننى لاحظت منطقة غابات قرب المكان الذى توقفنا به ولكننى رأيت أن مثل ذلك الفعل غير حكيم ولا مسئول بجانب خطورته. وشعرت بالراحة حينما عاد بعلبتين من شراب الكوكاكولا.

كانت تلك أول رحلة. وخلال الأشهر التى تلت ذهبت مع نائب المأمور إلى المدينة مرارا وإلى أماكن سياحية خارج المدينة وإلى الشواطئ والجبال وبعد ذلك أخذ يسمح لضباط أقل رتبة بمرافقتى وأخذنا نرتاد المقاهى وكنت حينئذ أحاول أن أرى إذا ما كان بالإمكان لأحد أن

يتعرف على ولكن لم يحدث ذلك فلم يحدث أن نشرت لى صورة منذ عام ١٩٦٢.

وكان لتلك الرحلات أثرها التثقيفى فقد رأيت الحياة وقد تغيرت ونظرا لأننا كنا نذهب إلى مناطق البيض فقد رأيت الثراء غير العادل والرفاهية التى يتمتعون بها. ورغم الاضطرابات التى كانت تعم البلاد ورغم أن مناطق السود كانت على حافة الحرب المعلنة فلم تتأثر حياة البيض وسارت فى سلاسة واطمئنان.

وكنت أعلم أن السلطات لها دوافع غير تسليتى. فقد أحسست أنهم أرادوا لى أن أتأقلم على الحياة فى جنوب إفريقيا وفى نفس الوقت أعتاد على المتعة التى يوفرها لى ذلك القدر الضئيل من الحرية وأصبح مستعدا لتقديم التنازلات فى سبيل الحصول على حريتى كاملة.

-٩٢-

أعدت الاتصال بكوتسى عام ١٩٨٧ وعقدنا عدة لقاءات سرية فى قصره. وفى الجزء الأخير من ذلك العام تقدمت الحكومة بأول مقترحات ملموسة لها.. فقال كوتسى إن الحكومة تود أن تعين لجنة من كبار المسئولين لإجراء محادثات سرية معى وأن ذلك سيكون بعلم من رئيس الجمهورية وسيكون كوتسى رئيسا لتلك اللجنة وستضم ويلمس مدير السجون ود. نيل بارنارد وهو أكاديمى سابق وكان يعمل رئيسا لجهاز المخابرات القومى. وبما أن هؤلاء على علاقة بنظام السجون فلو حدث وتعثرت المفاوضات أو تسربت أنباؤها إلى الصحافة

يصبح بالإمكان تغطية الأمر بالقول إننا كنا نبحث أحوال السجون.

وكان وجود بارنارد من دواعي قلقي فقد كان على صلة بالمخابرات العسكرية وكان من الممكن تبرير مناقشاتي مع الآخرين لمنظمتي لكن وجوده كان سيجلب المشاكل ويتطلب برنامج عمل أكثر اتساعا وأخبرت كوتسي أنني سأفكر في الاقتراح تلك الليلة. ودرست تشعبات الموقف جميعها فقد كنت أعلم أن بوثا قد أوجد نظاما يدعى مجلس أمن الدولة وهو سكرتارية مبهمة مشبوهة مكونة من خبراء أمنيين وبعض مسئولي المخابرات. وكان قد فعل ذلك، كما قالت الصحف، ليتحاشى سلطة مجلس الوزراء وليزيد من قوته. وكان د. بارنارد الشخص الأساسي في ذلك التنظيم. وفكرت أنني إذا رفضت بارنارد فسأنفر بوثا وإذا لم ينضم رئيس الجمهورية للمباحثات فإن شيئا لن يحدث. وفي الصباح أخبرت كوتسي أنني قبلت اقتراحه.

وكان أمامي أمور حرجة ثلاثة عليَّ معالجتها: أولا استطلاع رأي زملائي في الدور الثالث قبل بداية المحادثات وثانيها وكان أساسيا هو الاتصال بأوليفر في لوساكا بشأن ما يحدث ثم كتابة مذكرة لبوثا عن آرائي وآراء المؤتمر بشأن القضايا الحيوية التي تواجه البلاد تكون بمثابة نقاط محادثات لدى حدوث مناقشات مستقبلية.

وطلبت مقابلة زملائي ودهشت لرفض السلطات ورفعت الأمر إلى مسئولين كبار وحصلت على الموافقة.

وعند لقائى بهم فى قسم الزيارات لم أذكر تفاصيل كثيرة وقررت أن أستشيرهم فقط بشأن عقد مباحثات مع الحكومة دون ذكر أن هناك لجنة قد شكلت بالفعل. وكان رد وولتر فاترا وعلق أنه يود لو أن المبادرة جاءت منهم بدلا من جانبنا وحاولت إقناعه ورأى أننى مصمم فقال إنه لن يقف فى طريقى ولكنه يرجو أن أعرف ما أنا بصدده. أما مهلابا فقد تساءل لماذا انتظرت طوال ذلك الوقت وكذلك كان رد ملانجين. أما كاثرادا فقد وقف ضد الاقتراح وقال إننا بتقديم المبادرة نبدو كأننا نُذعن وكان أكثر تصميما من وولتر واختتم قائلا إننى اتخذت الطريق الخطأ لكنه لن يقف فى سبيلى.

وبعد ذلك بقليل تلقيت رسالة مهربة من أوليفر تامبو قال فيها إنه قد سمع تقارير عن وجود مناقشات سرية بينى وبين الحكومة وإنه قلق ويعلم أننى قد ظللت وحيدا بعيدا عن زملائى لفترة من الوقت. وكانت مذكرته مقتضبة وفى لب الموضوع وكان يود أن يعرف ما أتباحث بشأنه ولم ترد احتمالية الشك فى خيانتى لكن لهجته كانت تدل على اعتقاده أننى أخطأت الحكم.

وأرسلت إليه خطابا مختصرا جدا أخبرته فيه أننى كنت أتباحث مع الحكومة حول نقطة واحدة فقط وهى عقد لقاء بين اللجنة المركزية للمؤتمر وحكومة جنوب إفريقيا ولم أخبره بالتفاصيل حيث إننى لم أكن أثق فى سرية المراسلات. وببساطة أخبرته أن الوقت قد حان للتفاوض وأننى لن أورط المؤتمر بأية طريقة.

-٩٣-

وعقد أول لقاء رسمى فى نادى الضباط الفخم الملحق ببولسمور فى مايو ١٩٨٨ ولم أكن قد رأيت ڤان ديرميروى أو بارنارد من قبل. وكان الأول هادئا متزنا لا يتكلم إلا عندما يكون لديه ما يقوله أما بارنارد فكان فى منتصف الثلاثينات وكان شديد الذكاء والتحكم فى النفس. واستمرت اللقاءات تعقد كل أسبوع لعدة أشهر وبعد ذلك كانت تعقد على فترات غير محددة وكانت تقل أحيانا وتزيد أحيانا أخرى وكانت الحكومة هى التى تنظم الاجتماعات ولكنى كنت أحيانا أطالب بعقد جلسة، واكتشفت أنه خلافا لبارنارد لم يكن أحد من أعضاء اللجنة يعلم الكثير عن المؤتمر وكان جميعهم أفريكان منفتحى الأفق لكنهم كانوا ضحية الدعايات لذا كان من الضرورى تصحيح بعض النقاط.

وشرحت لهم تاريخ المؤتمر ومواقفنا من القضايا الرئيسية الأمر الذى يجعلنا نختلف مع الحكومة وبعد ذلك بحثنا الكفاح المسلح والتحالف مع الشيوعيين وهدف حكم الأغلبية وفكرة التآلف العرقى.

واستغرقنا شهورا فى مناقشة الكفاح المسلح حيث أصروا على أن يتخلى المؤتمر عن العنف قبل أن توافق الحكومة على المفاوضات وقبل أن ألتقى بالرئيس بوثا وأجبتهم بأن الدولة مسئولة عن العنف لأنها تستعمله وفى حالتنا فهو دفاع مشروع عن النفس وقلت إن الدولة إذا لجأت إلى طرق سلمية فسنستخدم طرقا سلمية. ورغم أنهم بدأوا يتفهمون تلك النقطة فقد بدأت أيضا العقبات العملية

للموقف. فقد كان حزب القوميين قد أعلن أنه لن يتفاوض مع منظمة تستخدم العنف فإن بدأوا مثل تلك المفاوضات فقدوا مصداقيتهم وقالوا إنه لكى نصل إلى نقطة بدء فعلى المؤتمر أن يقدم تنازلات لتستطيع الحكومة مواجهة شعبها. ورغم تفهمى لموقفهم فلم أقدم لهم الحل قائلا بأن مهمتى ليست حل مشاكلهم فإن عليهم أن يخبروا مواطنيهم أنه لن يكون هناك سلام بدون مفاوضات مع المؤتمر. أما بشأن تحالفنا مع الشيوعيين فقد بينت لهم أن المؤتمر والحزب منظمتان مختلفتان مستقلتان رغم اشتراكهما فى الأهداف القريبة المدى ولكن أهدافنا البعيدة المدى مختلفة. واستمرت المناقشة حول تلك النقطة أشهراً وذلك لأنهم كانوا يعتقدون أنه بما أن معظم الشيوعيين بيض أو هنود فإنهم بالتالى يتحكمون فى أعضاء المؤتمر السود وحاولت دحض هذا الادعاد بالبراهين لكنهم لم يقتنعوا وأخيرا انفجرت قائلا إنه برغم كونهم أربعة بيض وأنهم ينظرون لأنفسهم على أنهم أذكياء فقد مضت أشهر دون أن يفلحوا فى تغيير رأيى.

وكانوا أيضا قلقين بشأن قضية التأميمات التى وردت فى ميثاق الحرية، فذكرت لهم إننا نهدف إلى توزيع أكثر عدالة لعائد بعض الصناعات التى هى فى الواقع احتكارات، وأن التأميمات ستنتصر على ذلك فقط. وذكرتهم بما كتبته فى صحيفة ليبراشن من أن الميثاق ليس إعلان مبادئ للاشتراكية لكن لرأسمالية إفريقية وأننى لم أغير رأيى منذ ذلك الوقت.

وتناقشنا حول الأقليات تحت حكم الأغلبية وكيف للمؤتمر أن يضمن حقوقها فذكرت لهم أن المؤتمر هو المنظمة الوحيدة فى جنوب إفريقيا التى تسعى إلى توحيد كل الأعراق وأنها تعتبر البيض إفريقيين ولا تريد أن تلقيهم فى البحر.

-٩٤-

وكانت النتيجة الإيجابية للمحادثاتِ أننى علمت فى صيف ١٩٨٨ أن رئيس الجمهورية يخطط لزيارتى قبل نهاية أغسطس. وكانت البلاد فى حالة من الاضطرابات وأعادت الحكومة فرض قانون الطوارئ فى ١٩٨٧، ١٩٨٨ وكان الضغط الدولى يتعاظم وترك عدد أكبر من الشركات جنوب إفريقيا وأقر الكونجرس الأمريكى قانون مقاطعة شاملة.

وفى عام ١٩٨٧ احتفل المؤتمر بعيد ميلاده السابع والخمسين فى تنزانيا وحضره مندوبون عن أكثر من خمسين أمة وأعلن أوليڤر أن المقاومة ستتعاظم حتى تعلن الحكومة استعدادها للمفاوضة لإلغاء الأبارتايد.

كان قد تم قبل عامين الاحتفال بمرور ثلاثين عاما على الميثاق تم أثناءها انتخاب أعضاء من أعراق مختلفة للجنة المركزية ووعدت اللجنة ألا تتم أى مناقشات مع الحكومة حتى يفرج عن قادة المؤتمر.

وعلى الجانب الآخر زادت قوة الحزب القومى وكسب أغلبية ساحقة فى انتخابات ١٩٨٧ واحتل المحافظون بدل الحزب التقدمى مقاعد

المعارضة وكانوا يتهمون القوميين بالتراخي مع المعارضة السوداء.

ورغم تفاؤلي بشأن المحادثات السرية فقد كانت الأوقات صعبة وزارتنيويني وأخبرتني أن بيتنا في أورلاندو قد أُحرق وقد خسرنا بعض وثائق الأسرة القيمة. ومرضتُ بعد ذلك وقرر الطبيب نقلي إلى مستشفى تايجربيرج الجامعي في كيب تاون وسط حراسة مشددة. وبعد إخلاء المدخل تماما رافقوني إلى طابق كان قد أخلي أيضا ووضع به عدد كبير من الحرس خوفا من تعاطف الطلبة معي وأخبرني الطبيب أن إصابتي خفيفة وأنني يمكنني مغادرة المستشفى في اليوم التالي.

وفي الصباح حضر طبيب آخر وفحصني وقال إنه توجد مياه برئتي ثم نقلت إلى غرفة العمليات حيث تم تخديري وسحب ٢ لتر من المياه من صدري وبعد فحص السائل اُكْتُشفت به جرثومة سل، ولكن مرضي كان مايزال في المرحلة الأولى وقال الطبيب إنه لن يلزمني أكثر من شهرين للشفاء ثم نقلت بعد أسبوعين إلى عيادة فخمة قرب بولسمور لم يدخلها أسود من قبل. وفي صباح يوم لي هناك تلقيت زيارة مبكرة من كوتسي برفقته الميجور ماريس الذي كان مسئولا عن حراستي.

وبعد استقراري في المستشفى بدأت الاجتماعات مرة أخرى بيني وبين كوتسي وأعضاء اللجنة. وأثناء وجودي هناك صرح كوتسي بأنه يريد أن يضعني في موقف أكون فيه في منتصف الطريق بين حالة التحفظ

والحرية. وشعرت أن ذلك يعنى خطوة على سبيل الحرية.

وكان المستشفى مريحا. واستمتعت لأول مرة بفترة نقاهتى. وكانت الممرضات البيض والملونات يفرطن فى تدليلى وكن يأتين لزيارتى حتى فى أوقات راحتهن. وحدث أن أخبرتنى إحدى الممرضات أنهن سيقمن حفلة ولابد أن أحضرها لكن سلطات الأمن منعت ذلك. فأقامت الممرضات الحفلة فى غرفتى.

-٩٥-

وفى بداية ديسمبر ١٩٨٨ شُددت الحراسة على جناحى فى المستشفى وفى مساء ٦ديسمبر أخبرنى رئيس الحرس أن أجهز نفسى للرحيل ولما سألته إلى أين أجاب أنه لا يعرف.

وغادرت المستشفى على عجل وبعد ساعة فى الطريق أُخذت إلى سجن فيكتور فيرستر فى الكيب القديمة التى تبعد حوالى خمسة وثلاثين ميلا إلى الشمال الشرقى من كيب تاون. وكان سجنا نموذجيا ودخلناه بالسيارة حتى وصلنا إلى كوخ من طابق واحد يقع خلف جدار إسمنتى وتظلله أشجار التنوب الطويلة. وبالداخل كان هناك غرفة جلوس متسعة ومطبخ كبير وغرفة نوم أكثر اتساعا فى الجزء الخلفى. كما كان هناك حوض للسباحة فى الفناء الخلفى وغرفتا نوم صغيرتان إضافيتان. أما الشئ الوحيد الذى أفسد تلك الرعاية فكان الجدار الذى تعلوه الأسلاك الشائكة.

وبعد الظهر زارنى كوتسى وأحضر معه هدية بمناسبة انتقالى للمنزل

الجديد وتفقد المنزل وقال إن الجدار يجب أن يرتفع أكثر لضمان عزلتى وقال إن سبب نقلى هو إيجاد مكان لإجراء مباحثات فى جو من السرية والراحة.

وكان المكان يوهم الفرد بالحرية فقد كان بإمكانى أن أنام أو أستيقظ حسب ما أريد، وأن أسبح، وآكل حينما أشعر بالجوع وكانت تلك مشاعر لذيذة. فقد كان من البهجة أن يتمكن المرء من الخروج أثناء النهار للنزهة حينما يريد. ولم يكن هناك قضبان أو مفاتيح تصلصل أو أبواب توصد وتفتح. ولكنى لم أنس قط أنه قفص ذهبى.

وأمدتنى السلطات بطاه وكان يعمل سابقا فى جزيرة روبن. وكان ماهرا ويعد ولائم فخمة لمن يزوروني وكان عددهم قد بدأ فى التزايد.

-٩٦-

واستمرت الاجتماعات مع اللجنة وتعثرنا بسبب نفس القضايا التى كانت قد منعت تقدمنا وهى المعركة المسلحة والحزب الشيوعى وحكم الأغلبية. وأخذت أحث كوتسى على ترتيب اجتماعى بالرئيس بوثا وكانت السلطات قد سمحت لى بإجراء اتصالات أولية مع زملائى فى بولسمور وجزيرة روبن والمؤتمر فى لوساكا فلم أكن أريد أن أتقدم على الطريق بمفردى.

وفى يناير ١٩٨٩ زارنى رفاقى الأربعة من بولسمور وناقشنا المذكرة التى كنت على وشك إرسالها لرئيس الجمهورية، وكانت ترديدا للنقاط التى ناقشتها مع اللجنة ولكنى كنت أريد التأكد من أن رئيس

الجمهورية قد سمعها منى مباشرة. اقترحت فيها معالجة مطالب الحكومة الثلاثة من المؤتمر كشرط لبدء المفاوضات وذكرت أن وقف أعمال العنف من قبل المؤتمر ليس هو المشكلة ولكن المشكلة هى أن الحكومة غير مستعدة بعد لمشاركة السود فى القوة السياسية وشرحت أسباب عدم رغبتنا فى الانفصال عن الحزب الشيوعى ذاكرا أننا لسنا تحت سيطرتهم ثم ذكرت أنه ليس هناك شخص شريف يتخلى عن صديق حياته نتيجة لإصرار عدو مشترك ويبقى على مصداقيته مع الشعب. وأضفت أن رفض حكم الأغلبية من قبل الحكومة هو محاولة للإبقاء على السلطة. واقترحت عليه أن يواجه الواقع ذاكرا أن حكومة الأغلبية والسلام هما وجهان لعملة واحدة وعلى جنوب إفريقيا البيضاء أن تقبل ذلك وفى النهاية تقدمت بإطار مبدئى للمفاوضات وهو معالجة قضيتين أساسيتين وهما مطلب حكومة الأغلبية والثانى قلق جنوب إفريقيا البيضاء من هذا المطلب بالإضافة إلى إصرار البيض على ضمانات بنيوية لضمان ألا تسود الأغلبية السوداء الأقلية البيضاء. وأضفت أن المهام الحرجة التى ستواجه الحكومة والمؤتمر هى محاولة التوفيق بين الموقفين. ثم اقترحت أن يتم ذلك على مرحلتين أولهما إجراء مناقشات لخلق ظروف مناسبة للمفاوضات وثانيهما إجراء المفاوضات ذاتها.

وكان أن حدث تأخير فقد أصيب الرئيس بوثا فى يناير بجلطة وهى إن كانت لم تعجزه فقد أضعفته. أصبح طبقا لوزرائه شخصا سريع الغضب ثم فجأة استقال كرئيس لحزب القوميين فى شهر فبراير وكان

ذلك موقفاً لم يحدث مثيله فى تاريخ جنوب إفريقيا حيث يصبح رئيس الأغلبية فى البرلمان رئيسا للجمهورية.

واستمرت أعمال العنف السياسية والضغط الدولى فى التعاظم. قام المسجونون السياسيون فى جميع أنحاء البلاد بإضراب عن الطعام - نتج عنه الإفراج عن تسعمائة منهم. وفى ١٩٨٩ كونت الجبهة الديمقراطية المتحدة تحالفا مع مجلس الاتحادات التجارية لجنوب إفريقيا وكونا الحركة الديمقراطية الجماهيرية MDM التى بدأت فى تنظيم حملة تحد وعصيان فى جميع أنحاء البلاد لتحدى قوانين الأبارتايد. وعلى الجانب الدولى أجرى أوليفر تامبو مباحثات فى بريطانيا والاتحاد السوفييتى وفى يناير ١٩٨٧ التقى بوزير الدولة الأمريكى جورج شولتز فى واشنطون واعترف الأمريكيون بالمؤتمر عنصرا لا يمكن الاستغناء عنه فى أى حل فى جنوب إفريقيا وتزايدت العقوبات ضد جنوب إفريقيا.

وكان للعنف السياسى جانبه المأساوى فبازدياد أعمال العنف فى سويتو سمحت زوجتى لمجموعة من الشباب أن يكونو حراسا خاصا لها أثناء تحركاتها فى المنطقة وكان أولئك الشباب غير مدربين وغير منظمين وتورطوا فى نشاطات غير لائقة بحركة التحرر. ونتيجة لذلك تورطت وينى من الناحية القانونية فى محاكمة أحد حراسها الذى اتهم بقتل زميله. وقد تسبب ذلك الموقف فى إرباكى الشديد حيث إن فضيحة كتلك عملت على تفريق الحركة وقد كانت الوحدة شيئا أساسيا. وقد أيدت زوجتى تأييدا تاما وأكدت أنها رغم عدم حكمها

السليم فإنها بريئة من أية تهمة خطيرة.

وفى يوليو، وفى عيد ميلادى الحادى والسبعين زارنى جميع أفراد أسرتى فى السجن وكانت تلك أول مرة أجتمع فيها بزوجتى وأبنائى وأحفادى فى مكان واحد وكانت مناسبة عظيمة. وأعد الطباخ وليمة فخمة وكان ذلك مصدر سعادة عميقة لى رغم ألمى لأننى لم أنعم أبدا بمثل تلك المناسبات لسنوات طويلة.

-٩٧-

وفى ١٤ يوليو زارنى جنرال ويلمس وأخبرنى أننى سأذهب لمقابلة رئيس الجمهورية فى اليوم التالى ووصف الزيارة بأنها للمجاملة. وطلبت حلة وربطة عنق من أجل المناسبة حيث إن الحلة الأخرى كانت قد اختفت. وأعددت نفسى بكل ما أملك وراجعت مذكرتى والملاحظات المطلوبة التى ألحقتها بها وقرأت صحفا كثيرة ومطبوعات للتأكد أننى على علم بما استجد. فقد حدث بعد استقالة الرئيس من رئاسة الحزب القومى أن أُنتخب دى كلارك مكانه وكان هناك حديث عن مناورات كثيرة بين الاثنين. وأخذت أتدرب على المحاورات التى قد يأتى بها رئيس الدولة وعلى ردودى عليها. فعند لقاء خصم فعلى المرء أن يتأكد أنه ترك الأثر الذى يبغيه.

وكان بوثا يُعرف بالتمساح الكبير وتخيلته نموذجا للأفريكانى المتكبر المتحجر الذى لا يناقش الأمور مع قادة أفارقة بل يملى عليهم ما يريد.

وفى الخامسة والنصف صباحا حضر مأمور القسم إلى غرفة الجلوس

حيث وقفت أمامه فى حلتى الجديدة للفحص وسار حولى ثم اعترض على الطريقة التي ربطت بها رباط عنقي حيث قد نسيت كيف أعالجها نظرا لطول إقامتى فى السجن. وقام المأمور بحلها وإعادة ربطها.

وذهبنا بالسيارة إلى منزل جنرال ويلمس في بولسمور حيث قدمت زوجته لنا طعام الإفطار ثم ذهبنا إلى المكتب الرسمى لرئيس الجمهورية حيث أوقفوا السيارة فى الجراچ تحت الأرض لكيلا يرانا أحد وقاموا بتهريبى إلى جناح رئيس الجمهورية وهناك قابلنا كوتسى وبارنارد ومجموعة من مسئولي السجون وكان كوتسى وبارنارد فى محادثات سابقة قد نصحانى أن أتحاشى القضايا الجدلية مع الرئيس. وبينما ننتظر نظر بارنارد إلى أسفل ولاحظ أن ربطة حذائى لم تكن كما يجب فركع على الأرض وقام بربطها وفتح الباب ودخلت وأنا أتوقع الأسوأ.

وفى الاتجاه المقابل فى مكتبه الفخم سار بوثا نحوى وكان قد خطط لسيره جيدا حيث التقينا فى منتصف الغرفة تماما. ومد إلىّ يده مبتسما وفى الحقيقة فقد سرنى منذ اللحظة الأولى فقد كان مجاملا مبجلا وودودا.

وبسرعة وقفنا لالتقاط صورة لنا نحن الاثنين ونحن نتصافح وبعد ذلك لحق بنا كوتسى وويلمس وبارنارد على المائدة المستطيلة وبدأنا الحديث، وبدونا كما لو كنا فى حلقة دراسية ولسنا فى مناقشة سياسية مربكة ولم نناقش القضية الجوهرية بقدر حديثنا عن تاريخ

وحضارة جنوب إفريقيا وذكرت أننى قد قرأت مؤخرا مقالا فى مجلة أفريكانية عن ثورة الأفريكان عام ١٩١٤ وعن احتلالهم لمدن فى الولاية الحرة وذكرت لهم أننى أرى فى حركتنا توازيا مع تلك الحركة. وكانت وجهة نظرهم أن عصيانهم كان شجارا بين أخوين أما معركتنا فهى ثورية فقلت إنه يمكن النظر إليها على أنها معركة بين أخوين من لونين مختلفين ولم يستمر الاجتماع أكثر من نصف ساعة وكان مليئا بالود واللطف حتى النهاية. وهنا أثرت قضية الإفراج عن جميع السجناء السياسيين وكانت تلك هى لحظة الارتباك الوحيدة فى الاجتماع وأجاب بوثا أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك.

ثم ناقشنا بإيجاز ما يجب قوله إذا تسربت أنباء الاجتماع وقمنا بكتابة بيان موجز قلنا فيه إننا تقابلنا لتناول الشاى فى محاولة لنشر السلام فى البلاد. وبعد ذلك صافحنى بوتا وشكرته وذهبت بالطريقة التى أتيت بها. وشعرت أنه رغم عدم تقدم المباحثات فلا مجال للعودة للوراء.

وبعد أكثر من شهر بقليل ذهب بوتا إلى التليفزيون القومى ليعلن استقالته من منصب رئيس الجمهورية واتهم فى خطابه الوداعى أعضاء وزارته بأنهم يتيحون الفرص لأعضاء المؤتمر. وفى اليوم التالى حلف دى كلارك اليمين كقائم بأعمال رئيس الجمهورية وأكد التزامه بالإصلاح والتغيير.

وبالنسبة لنا فلم يكن دى كلارك يعنى شيئا ولم يكن هناك فى تاريخه ما يشير إلى روح الإصلاح. وكوزير للتعليم فقد حاول منع الأفارقة من الالتحاق بجامعات البيض. ومن خطاباته وكلماته بعد توليه رئاسة الحزب القومي تبينت أنه ليس شخصا أيديولوجيا بل شخصا براجاماتيا، رجلاً رأى أن التغيير ضرورى لا محالة.

وفى اليوم الذى حلف فيه اليمين كتبت له خطابا أطلب مقابلته. وكان قد قال فى خطابه الأول إن حكومته ملتزمة بالسلام ومستعدة للتفاوض مع أى مجموعة تلتزم بالسلام. ولكن برهن على التزامه بنظام جديد حينما نظمت مسيرة بعد تنصيبه للاحتجاج على وحشية الشرطة بقيادة الأسقف توتو والمبجل آلان بوساك وكانت مثل تلك المسيرة لابد وأن تُمْنَع تحت حكم بوثا وكان المشتركون لابد وأن يتحدوا المنع مما كان سيؤدى إلى أعمال عنف. لكن الرئيس الجديد نفذ ما وعد به وسمح للمسيرة أن تحدث فقط طلب من المشتركين أن تظل المسيرة سلمية.

-٩٨-

وبعد تولى دى كلارك الرئاسة استمرت الاجتماعات بينى وبين اللجنة ولحق بنا جيريت فيلجون وزير التطورات الدستورية وكان رجلا نابها ويحمل الدكتوراه فى الكلاسيكيات وكان دوره أن يؤطر مناقشاتنا فى إطار دستورى.

وأعدت مطلبى بشأن إطلاق سراح المسجونين السياسيين فى

بولسمور وجزيرة روبن بدون شروط ذاكرا أن للحكومة أن تتوقع منهم تصرفات نظامية بعد إطلاق سراحهم كما أثبت ذلك جوفان مبيكى وكان قد أطلق سراحه فى نهاية ١٩٨٧.

وفى أكتوبر ١٩٨٩ أعلن دى كلارك إطلاق سراح ريموند مهلابا وأحمد كاثرادا وأندرو ملانجيين وإلياس موتسوليدى وجيف ماسيمولا وولتن مكوايى وأوسكار مبيثا. وفى ذلك الصباح زارنى وولتر وكاثرادا وريموند وأندرو وكانت لحظة مشحونة بالعواطف. ولكنى كنت أعرف أن دورى قد اقترب.

وكان الإفراج عنهم مقرونا بعدم الحظر أى أنه كان بإمكانهم التحدث باسم المؤتمر مما كان يعنى رفع الحظر عن المنظمة نفسها.

وبدأ دى كلارك يهدم قوالب بناء الأبارتايد ففتح شواطئ جنوب إفريقيا للمواطنين من جميع الألوان ووعد بإلغاء القانون الذى لا يسمح بالاختلاط فى الحدائق والمسارح والمطاعم والحافلات والمكتبات والمراحيض وغيرها من المنشآت العامة وفى نوفمبر أعلن حل إدارة الأمن القومى السرية التى كان قد أنشأها بوثا لمجابهة قوى المعارضة للأبارتايد.

وفى أوائل ديسمبر أُبلغت بأننى سأقابل دى كلارك فى الثانى عشر من ذلك الشهر وأنه يمكننى فى تلك الأثناء التشاور مع زملائى القدامى والجدد وعقدت اجتماعات معهم ومع قادة المنظمات الأخرى الموالية للمؤتمر ومع رجال المؤتمر من جميع الأقاليم. ومن بين من

قابلتهم كان سيرل رامفانوسا السكرتير العام للاتحاد القومى لعمال المناجم وأحد أقدر قيادات الجيل الجديد كما زارنى زملاء من جزيرة روبن ومن بين هؤلاء «رعب» ليكوتا وطوكيو سيكسويل.

وبإرشاد عدد من الزملاء كتبت خطابا إلى كلارك يماثل ذلك الذى كتبته لبوثا عن المباحثات بين الحكومة والمؤتمر وذكرت عدم قبولنا اشتراطات مسبقة للمفاوضات وخاصة وقف الكفاح المسلح. وذكرت أن أول خطوة للتوافق هى هدم الأبارتايد وجميع ما يدعمه. ثم أضفت أنه لم يتخذ خطوات لدعم الأمل الذى أحياه خطابه الافتتاحى ولكن بدلا من ذلك فإن الحكومة تعقد المحادثات مع القيادات السوداء للبانتوستانات الإفريقية. تلك القيادات الظالمة التى ترفضها جماهير جنوب إفريقيا السوداء. ورددت اقتراحى بشأن مرحلتى المحادثات وقلت إننى أؤيد الخطوط التى تبناها المؤتمر فى إعلان هرارى لسنة ١٩٨٩ الذى حمل الحكومة مسئولية إزالة العقبات التى أوجدتها الدولة من طريق المحادثات وأن تلك المطالب تتضمن الإفراج عن المسجونين السياسيين ورفع الحظر عن المنظمات والأشخاص وإنهاء حالة الطوارئ ونقل القوات من المناطق الإفريقية وقلت إن اتفاقا لوقف إطلاق النار من الجانبين يجب أن يكون أول خطوة فى العمل. وسلم الخطاب إلى دى كلارك قبل اجتماعنا بيوم.

من البداية لاحظت أن دى كلارك كان ينصت لما أقول. وأكدت فى حديثى معه على خطة الخمس سنوات لحزب القوميين الخاصة بحقوق المجموعات والتى ترتكز حول فكرة عدم أحقية أى مجموعة عرقية فى

التفوق على أى مجموعة أخرى.

ورغم تعريف الخطة «لحقوق المجموعات» على أنها وسيلة لحماية حقوق الأقليات فى جنوب إفريقيا الجديدة فإن الهدف الحقيقى منها كان الحفاظ على سيادة البيض. وأخبرت دى كلارك أن ذلك أمر لا يقبله المؤتمر وأضفت أن ذلك يعطى انطباعا أنه يريد تحديث الأبارتايد دون التخلى عنه، وأن النظام الظالم لا يمكن إصلاحه ولكن يجب التخلى عنه. وأضفت أن المؤتمر لم يقاوم الأبارتايد لمدة خمسة وسبعين عاما لكى يخضع لشكل مستتر منه.

وكانت من مميزات دى كلارك أنه أنصت لما قلت دون أن يناقش ثم قال لى إن هدفه لا يختلف عن هدفي وذكر أن مذكرتى إلى بوثا ذكرت أن علينا معالجة مخاوف البيض من سيادة السود وأن قانون حقوق المجموعات هى طريقته لمعالجة تلك المشكلة. ولكنى قلت إن الفكرة تزيد من مخاوف السود أكثر من إزالتها لمخاوف البيض فرد قائلا إن عليه إذن تغيير القانون.

ثم ناقشت بعد ذلك موضوع حريتي وقلت له إن كان يتوقع أن أذهب إلى المراعى بعد الإفراج عنى فهو مخطئ ذاكرا أنه إذا تم الإفراج عنى تحت نفس الظروف التى دخلت فيها السجن فإننى سأفعل ما فعلت وأدى بى إلى السجن.

وقلت له إن أفضل ما يمكن عمله هو رفع الحظر عن المؤتمر والمنظمات الأخرى ورفع حالة الطوارئ والإفراج عن السجناء والسماح للمنفيين

بالعودة فإنه إن لم ترفع الحكومة الحظر عن المؤتمر فإننى سأعمل لمنظمة محظورة بعد الإفراج عنى.

ورد قائلا إنه سيتدارس الأمر لكنه لايستطيع الوعد بشئ. وكانت المقابلة استطلاعية حيث كنت أعرف أنه لن يتخذ قرارا ذلك اليوم. وكتبت إلى زملائى فى لوساكا قائلا إن دى كلارك يمثل تغييرا عمن سبقوه فى قيادة الحزب القومى ثم اقتطفت ما قالته تاتشر عن جورباتشوف من أنه رجل يمكن العمل معه.

-٩٩-

فى ٢ فبراير ١٩٩٠ وقف دى كلارك ليلقى خطاب الافتتاح أمام البرلمان وفعل حينئذ ما لم يفعله أى رئيس لجنوب إفريقيا من قبل فقد بدأ فى هدم نظام الأبارتايد ووضع أسس جنوب إفريقيا الديمقراطية. فقد أعلن بطريقة درامية رفع الحظر عن المؤتمر والـPAC والحزب الشيوعى الإفريقى وإحدى وثلاثين منظمة أخرى قانونية والإفراج عن السجناء السياسيين المحجوزين بسبب نشاطات غير أعمال العنف وتعليق عقوبة الإعدام ورفع كافة القيود المفروضة بسبب حالة الطوارئ ثم قال إن الوقت قد حان للتفاوض. وبذلك، وبخطوة شاملة واحدة طبع دى كلارك الوضع فى جنوب إفريقيا وتغيرت الحياة فى ليلة واحدة.

واستحسن العالم خطوات دى كلارك الجريئة. لكن وسط تلك الأنباء الطيبة احتج المؤتمر على عدم رفع حالة الطوارئ رفعا تاما وعلى عدم سحب القوات من المناطق الإفريقية.

وفي يوم ٩ فبراير أُبلغت أني سأقابل دى كلارك ووجدته مبتسما فى مكتبه وتصافحنا وأبلغنى أنه سيفرج عنى فى اليوم التالى. فأجبته قائلا إنه بالرغم من أننى قد أبدوا ناكرا للجميل فإننى أفضل أن أبقى فى السجن أسبوعا آخر حتى تستعد أسرتى ومنظمتى لإطلاق سراحى لأن إطلاق سراحى بتلك الطريقة قد ينجم عنه حالة من الفوضى. وأدهشت إجابتى دى كلارك ولكنه استمر فى تفاصيل خطة الإفراج عنى وقال إن الحكومة ستنقلنى بالطائرة إلى جوهانسبرج وسيتم الإفراج عنى رسميا هناك. ولكنى عارضت ذلك فقد كنت أريد أن أخرج من بوابة سجنى الحالى لأتمكن من شكر هؤلاء الذين رعونى هناك وأحيى أهل كيب تاون فرغم أننى من جوهانسبرج فقد كانت كيب تاون موطنا لى لما يقرب من ثلاثة عقود وكنت أريد أن أجد طريقى إلى جوهانسبرج حينما أريد وليس فى الوقت الذى تريده الحكومة. فقلت له إننى أعرف كيف أرعى نفسى حينما يطلق سراحى مما أصابه بالدهشة مرة أخرى فترك مكتبه للتشاور مع الآخرين وعاد قائلا إن الوقت قد تأخر بالنسبة لتغيير الخطة فرددت مطالبى وكانت لحظة حرجة ولم يتمكن أحد منا وقتها أن يرى المفارقة الناتجة عن طلب السجين عدم الإفراج عنه بينما يحاول السجان تنفيذ الإفراج. وخرج من الغرفة مرة أخرى وعاد بعد عشر دقائق ليقول إنه بالرغم من إمكانية الإفراج عنى من سجنى الحالى فإن عملية الإفراج لن تتأجل فقد تم إبلاغ الصحافة الأجنبية بموعد الإفراج. وقبلت.

ولم أعد إلى كوخى إلا قبيل منتصف الليل حيث أبلغت زملائى فى كيب تاون نبأ الإفراج عنى وبعثت رسالة إلى وينى وتحدثت هاتفيا مع وولتر فى جوهانسبرج وفى ذلك المساء حضر أعضاء ما عرف بلجنة الاستقبال القومية من المؤتمر إلى الكوخ لكتابة البيان الذى سألقيه صباح اليوم التالى وذهبوا فى ساعات الصباح الأولى.■

11

الجزء الحادي عشر

الحرية

-١٠٠-

استيقظت يوم إطلاق سراحى بعد نوم استمر سويعات قليلة. وكان يوم ١١ فبراير يوما مشرقا من أيام نهاية الصيف فى كيب تاون. وقمت بعمل تدريباتى الرياضية، واغتسلت وأفطرت ثم تكلمت بالهاتف مع عدد من أعضاء المؤتمر والجبهة الديمقراطية فى كيب تاون أدعوهم للحضور ليعدوا للإفراج عنى ويراجعوا كلمتى. وحضر طبيب السجن لفحصى. وكانت هناك أمور عديدة يجب مناقشتها وتقرير أمرها فى ذلك الوقت القصير. وكان عدد من أعضاء لجنة الاستقبال من بينهم سيرل رفاموسا وتريفور مانويل قد وصلوا. وكان أول شئ يجب تقريره هو أين أقضى أول ليلة بعد الإفراج عنى. وكان بودى قضاؤها فى منطقة الملونين والسود فى كيب تاون لإظهار تضامنى معهم ولكن زوجتى وأعضاء اللجنة رأوا أن أقضى الليلة فى منزل الأسقف توتو الفخم فى ضاحية بيضاء غنية لم يكن ليسمح لى بالعيش فيها قبل ذهابى إلى السجن ورأيت أن ذلك قد يكون مؤشرا خاطئا ولكن أعضاء اللجنة قالوا إن المنطقة فى وجود الأسقف أصبحت متعددة الأعراق ورمزا للانفتاح اللاعرقى.

وكان موعد الإفراج عني قد حدد له الساعة الثالثة لكن وولتر ووينى وآخرين الذين كان مقررا وصولهم على طائرة مؤجرة من جوهانسبرج لم يصلوا حتى ما بعد الثانية. كان هناك عشرات في المنزل وأخذ الجمع مظهر الاحتفال وأعد الطاهي وجبة نهائية لي وشكرته ليس فقط على الطعام بل على رفقته لي لمدة عامين وحضر حارسي جيمس جريجورى وعانقته بحرارة فقد كان قد رعاني منذ بولسمور وحتى سجني الحالي ولم يحدث أن تناقشنا قط في السياسة لكن الرابطة بيننا كانت بلا كلمات.

وكان رجال كهؤلاء قد دعموا إيماني بجوهر الإنسان حتى بالنسبة لهؤلاء الذين أبقوني خلف الجدران لسبعة وعشرين عاما.

كانت الخطة أن أخرج أنا ووينى من البوابة الأمامية بالسيارة وكنت قد أخبرت السلطات أني أود وداع الحراس والسجانين الذين رعوني وقد طلبت أن يتواجدوا هم وأسرهم عند البوابة لأتمكن من شكرهم بنفسي.

وبعد الثالثة بدقائق اتصل بي مسئول معروف من إذاعة جنوب إفريقيا

وطلب أن أنزل من السيارة بعيدا عن البوابة كى يمكنهم التقاط فيلم لى وأنا أسير نحو الحرية ووافقت.

وبدأت أقلق فى الثالثة والنصف حيث إننا كنا قد تأخرنا. وقبل الرابعة تحركت السيارات فى موكب صغير وقبيل البوابة بما يقرب من ربع ميل ترجلت ووينى لنسير فى اتجاه البوابة.

وفى البداية لم أتبين ما كان يحدث أمامنا ولكن حين اقتربت رأيت اضطرابا هائلا وجموعا غفيرة. فقد كان هناك مئات المصورين وكاميرات تليفزيونية ورجال صحافة وعدة آلاف من المؤيدين. وتملكنى الذهول والانزعاج فلم أكن أتوقع ذلك.

فقد ظننت أنه سيكون هناك بضع عشرات بما فيهم السجانون وأسرهم. ولكن فقد كانت تلك فقط البداية ولم نكن أعددنا لما كان على وشك أن يحدث.

وأخذت الكاميرات تحدث أصواتها المعدنية وأخذ المراسلون يتصايحون بأسئلتهم كما بدأت فرق التليفزيون فى التزاحم وكان مؤيدى المؤتمر يتصايحون ويهتفون.

كانت حال من الفوضى السعيدة. وحينما دفع إلى فريق تليفزيونى بشئ غامق فروى الملمس تراجعت قليلا ظنا منى أن ذلك سلاح تم اختراعه أثناء تواجدى فى السجن فأخبرتنى وينى أنه مكبر للصوت.

وحينما توسطت الجمع رفعت قبضتى اليمنى وحدث صخب هائل فلم

أكن قد تمكنت من فعل ذلك منذ سبعة وعشرين عاما وأمدنى ذلك بفيض من القوة والبهجة ومكثنا قليلا وسط الجموع قبل أن نسرع إلى سيارتنا مرة أخرى لنذهب باتجاه كيب تاون وبعد عبور البوابة ركبنا عربة أخرى خارجها. وشعرت وكنت فى الحادية والسبعين أن حياتى تبدأ من جديد. فقد انتهت الأيام العشرة آلاف لسجنى.

وكانت كيب تاون تقع على بعد خمسة وثلاثين ميلا إلى الجنوب الشرقى. لكن ما أدهشنى كان هو رؤية العديد من الأسر البيضاء تقف على جانب الطريق للقائى وقد سمعوا فى الإذاعة أننا قد غيرنا مسارنا، ورفع قليل منهم قبضاتهم بتحية المؤتمر وأمدنى هؤلاء الشجعان الذين ينتمون لأسر محافظة فى منطقة ريفية والذين عبروا عن تضامنهم أمدنى هؤلاء بإحساس هائل بالشجاعة. وعند نقطة معينة أوقفت السيارة وخرجت وحييت شاكرا أسرة من هؤلاء وأخبرتهم أن مؤازرتهم قد أمدتنى بالإلهام. وجعلنى ذلك أرى أن جنوب إفريقيا التى أنا عائد إليها تختلف تماما عن تلك التى تركتها.

وعند حدود المدينة كان بإمكانى رؤية الناس وهم يتدفقون نحو الوسط. فقد نظمت لجنة الاستقبال حشدا فى الميدان الرئيسى وسط كيب تاون وكان مقررا أن أخطب فيهم من شرفة بلدية المدينة التى كانت تطل على كل المنطقة وكنا قد سمعنا أن جموعا غفيرة كانت تنتظر هناك منذ الصباح.

وحينما اقتربنا من الميدان كان بإمكاننا رؤية الحشود الهائلة وكان من

المفروض أن يدور السائق حول المبنى ولكن بدلا من ذلك اخترق الجموع وفى الحال اندفعت الحشود وأحاطت بالعربة. وحاولنا السير لمدة دقيقة أو اثنتين لكننا أجبرنا على الوقوف بقوة ضغط الأجساد. وبدأ الناس يضغطون على السيارة ثم بدأوا فى انفعالهم يقفزون عليها ثم أخذ البعض يهزونها حتى انتابنى للحظة شعور بالقلق وشعرت أن من الممكن لحب الناس أن يقتلنا. وحاول البعض فتح طريق وإزاحة الجموع عن السيارة لكن لم ينجحوا. ولمدة تربو على الساعة بقينا داخل السيارة حيث سجننا مؤيدونا وكنا قد تجاوزنا منذ فترة ميعاد إلقاء الخطاب.

وفى النهاية حضر عشرات من رجال الشرطة لإنقاذنا ونجحوا أن يخلوا طريقا للسيارة وسار السائق بسرعة كبيرة فى اتجاه مخالف للمبنى وسألته إلى أين نحن ذاهبون فأجاب أنه لا يعرف فلم يكن قد خبر شيئا مثل ذلك من قبل.

وحينما هدأنا وصفت له منزل صديقى ومحاميى دولله عمر الذى كان يسكن فى القسم الهندى من المدينة ولحسن الحظ كان متواجدا هو وعائلته وبدل أن يحيونا سألونا بقلق عن سبب عدم تواجدنا فى الميدان الكبير.

ولم يمض علينا هناك دقائق حتى اتصل الأسقف توتو تليفونيا وكان حزينا وقال إن علىَّ أن أحضر إلى الميدان فى الحال لأن الناس أصابهم القلق وقال إنه لا يضمن ما يمكن أن يحدث من اضطرابات

إن لم أعد فوعدته بالعودة. وبعد جهد أقنعنا السائق بالعودة. ولم يكن الازدحام شديدا عند المدخل الخلفى للمبنى. وصعدت وخرجت إلى الشرفة ورأيت جموعا لا متناهية من الجماهير المحتفية المهللة التى كانت ترفع الأعلام والشعارات وتهتف وتصفق وتضحك.

ورفعت قبضتى للجمهور وردت الجموع بهتاف هائل وتبادلنا الهتافات لإفريقيا واشتعلت روح المقاومة داخلى. وبعد أن هدأت الجموع قرأت خطابى الذى حييت فيه الشعب باسم السلام والديمقراطية والحرية للجميع وذكرت أننى لا أقف بينهم كنبى ولكن كخادم متواضع لهم أضع السنوات الباقية من حياتى بين أيديهم.

كنت أتحدث من القلب وأردت إبلاغ الناس أننى لست مسيحا ولكن رجلا عاديا أصبح قائدا بسبب الظروف غير العادية. وأردت فى الحال أن أشكر جميع الناس فى أنحاء العالم الذين ضغطوا من أجل الإفراج عنى وشكرت شعب كيب تاون وحييت أوليفر تامبو والمؤتمر و MK والحزب الشيوعى والجبهة الديمقراطية ومجلس شباب جنوب إفريقيا والاتحادات التجارية والحركة الجماهيرية واتحاد طلبة جنوب إفريقيا والحركة النسائية وأعلنت عرفانى بالجميل لزوجتى وأسرتى. وقلت لهم إنه لا مستقبل للأبارتايد فى جنوب إفريقيا وأن عليهم ألا يتركوا عبء العمل الجماهيرى. ثم أكدت أننى لم يحدث أن تحدثت مع الحكومة بشأن مستقبل البلاد إلا لأصر على اجتماع بين المؤتمر والحكومة. ثم أشرت إلى شروطى لبدء المفاوضات الحقة. وأخبرتهم أن دى كلارك اتخذ خطوة أكثر من أى قائد قومى آخر لتطبيع الموقف ثم

أضفت أن دى كلارك رجل يلتزم بقوله. وقد أرقتنى هذه العبارة فيما بعد و ووجهت بها حينما لم يحافظ دى كلارك على وعده.

وقد كان من الأمور الحيوية لى أن أبرهن للشعب والحكومة أننى لم يفت عضدى ولم تنحن هامتى وأن المعركة لم تنته ولكنها بدأت من جديد بشكل مختلف وأكدت كونى عضوا وفيا مطيعا للمؤتمر وشجعت الناس على العودة وراء المتاريس وتصعيد المعركة وقلت لهم إننا سنسير الميل الأخير معا.

وعند عودتى شاهدت مئات من الوجوه السوداء تنتظر لتحيينى وتعانقت بحرارة من الأسقف توتو فقد كان رجلا ألهم أمة بأكملها بكلماته وشجاعته فى ظروف حالكة.

وفى المنزل كان ينتظرنى جمع من الأصدقاء والأهل، لكن اللحظة الرائعة كانت عندما اخبرت أن هناك مكالمة لى من استوكهولم وكان صوت أوليفر ضعيفا وملأتنى الفرحة لسماعه بعد كل تلك السنوات وكان أوليفر فى السويد يستشفى بعد جلطة أصابته فى أغسطس ١٩٨٩ . واتفقنا على أن نلتقى فى أسرع وقت.

-١٠١-

وكان المؤتمر قد خطط لعقد مؤتمر صحفى لى عصر اليوم بعد الإفراج. والتقيت فى الصباح بعدد من زملائى للتباحث بشأن الاستراتيجية. وكان قد وصل تل صغير من برقيات ورسائل التهنئة من أنحاء العالم من رؤساء وزارات لكنى أتذكر بالذات برقية من رب منزل

فى كيب تاون قال فيها: «إنى مسرور جدا لأنك الآن حر بين أصدقائك وعائلتك. لكن خطابك أمس كان مملا».

وبعد ظهر ذلك اليوم كان هناك عدد كبير من الصحفيين من بلاد مختلفة حتى أننى لم أكن أعلم مع من أتكلم. وسرنى أن أرى نسبة الصحفيين السود. وفى المؤتمر الصحفى عملت على تأكيد كونى عضوا فى المؤتمر وكنت أعرف أن قيادات المؤتمر فى الخارج ستشاهد وقائع الإفراج عنى وستحاول تقدير ولائى وكنت أيضا أعلم أنهم سمعوا شائعات عن تحولى وعن تنازلات قدمتها وودت أن أطمئنهم وحينما سئلت عن الدور الذى سأقوم به فى المؤتمر أجبت أننى سأقوم بأى دور تحدده المنظمة وقلت إنه ليس هناك أى تعارض لتأييدى الكفاح المسلح وتمسكى بالمفاوضات فإن الكفاح المسلح هو الذى أتى بالحكومة إلى حافة المفاوضات وحينما سئلت عن العقوبات أجبت أن الظروف التى أوجبت العقوبات مازالت قائمة وهى غياب الحرية السياسية للسود ورغم أنه قد أطلق سراحى فإنى لست حرا.

وسئلت عن مخاوف البيض وكنت أعلم أن الناس يتوقعون أن أكون غاضبا من البيض ولكن سنوات سجنى خففت مدى غضبى على البيض رغم أن كراهيتى للنظام تنامت وكنت أود لجنوب إفريقيا أن ترى أننى أحب حتى أعدائى رغم كراهيتى للنظام. وأردت أيضا أن يفهم الصحفيون أهمية البيض فى أى نظام جديد فلم نكن نود تدمير البلاد قبل أن نحررها وكانت مغادرة البيض تعنى خراب البلاد، فقلت إن هناك نقط تلاق بين البيض والسود وإن المؤتمر سيوجدها وإن

البيض مواطنون جنوب أفارقة وأودهم أن يشعروا بالاطمئنان وأن يعرفوا أننا نقدر مساهمتهم فى تقدم البلاد وأن جنوب إفريقيا اللاعرقية ستكون وطنا للجميع.

وبعد المؤتمر تلقيت مكالمة من زوجة الأسقف توتو فى جوهانسبرج قائلة إن علىّ الحضور إلى هناك فورا نظرا لأن الناس بدأوا يقلقون وكان الخوف أن تحدث اضطرابات إذا لم أعد فورا. وذهبنا إلى هناك ولكنى أُبلغت أن هناك ألوفا تحاصر منزلى فى أورلاندو وقضيت الليلة مع وينى فى منزل أحد الأصدقاء فى شمال جوهانسبرج.

وفى الصباح ذهبنا بطائرة عمودية إلى استاد البنك الأهلى فى سويتو وكان بإمكانى من الطائرة أن أرى الفقر المدقع الذى تعيشه غالبية الجماهير السوداء التى تقطن المنطقة وكانت مظاهر الفقر قد اشتدت عما كانت عليه قبل ذهابى إلى السجن.

وهبطنا وسط الاستاد بالطائرة الذى كان قد ازدحم فيه ما يقرب من ١٢٠,٠٠٠ شخص وخاطبتهم قائلا إننى مبتهج بعودتى إلى سويتو ولكن أيضا يغمرنى الحزن لما يعانونه تحت نظام لا إنسانى من نقص المساكن وأزمة المدارس وبطالة ومعدل مرتفع للجريمة. وأكدت على هدف المؤتمر فى إقامة مجتمع لا عرقى.

وعدت تلك الليلة إلى منزلى فى أورلاندو وتحققت أن ما تشوقت إليه دائما وهو الحياة العادية فى منزلى لن يمكن تحقيقه. فإنه فى تلك الليلة ولمدة أسابيع وشهور ظل المنزل محاصرا بمئات المهنئين الذين

أخذوا فى الغناء والرقص والتهليل ولم أجد مفرا من مشاركتهم وكان ذلك على حساب أسرتى مرة أخرى.

-١٠٢-

وكانت مسئوليتى الأولى هى الذهاب إلى قيادة المؤتمر فى لوساكا. وذهبت هناك فى ٢٧ فبراير لحضور اجتماع اللجنة المركزية وكان لقاء رائعا مع رفاق لم أرهم لعقود من الزمن وكان هناك عدد من رؤساء الدول الإفريقية. وتحدثت مع الرئيس موجابى رئيس زيمبابوى وكينث كاوندا رئيس زامبيا وجوسين ادواردو دموس سيمانتوكا رئيس أنجولا وكوين ماسير رئيس بوتشوانا وجاكيم شسانو رئيس موزمبيق ويويرى موساڤينى رئيس أوغندا. وكانت التساؤلات تبدو فى عيون أعضاء اللجنة عما إذا كان مانديللا مازال نفس الشخص الذى عرفوه من قبل. وشرحت لهم بدقة طبيعية محادثاتى مع الحكومة ومطالبى منها والتقدم الذى تم إحرازه وقد كنت سمعت عن الوشايات التى نقلها بعض من تم الإفراج عنهم وسعيت إلى دحضها عن طريق المصارحة بكل شئ فعلته. وفى تلك الجلسة تم انتخابى نائبا لرئيس المنظمة بينما انتخب الفريد نزو رئيسا بالنيابة حتى يتم شفاء أوليڤر. وفى مؤتمر صحفى أعلنت أننى أرى أن الوقت لم يحن بعد لتعليق الكفاح المسلح لأننا لم نصل إلى الهدف الذى بدأنا من أجله فإن إسكات مؤيدى دى كلارك اليمينيين ليس مهمة المؤتمر.

وبدأتُ رحلة فى إفريقيا شملت عدة دول وفى كل مكان ذهبت إليه كنت

أقابل بالجماهير المتحمسة التى بلغ عددها نصف مليون فى دار السلام. وفى القاهرة، وفى اليوم التالى للقاء خاص مع رئيس الجمهورية حسنى مبارك. كان من المقرر أن أخطب فى حشد كبير فى قاعة محلية. ولما وصلت بدت الجموع تفيض من القاعة ولم تكن هناك احتياطات أمنية كافية فذكرت لرجل الشرطة أنه يجب دعم القوة ولكنه هز كتفيه. وانتظرت ووينى فى غرفة خلف المبنى وفى الساعة المحددة أشار إلى رجل الشرطة أن أدخل وطلبت منه أن يرافق بقية الوفد أولا خوفا من حدوث جلبة بعد دخولى ولا يتمكنوا هم من اللحاق بى. لكن رجل الشرطة حثنى على الدخول أولا، وفعلا، وبمجرد دخولى القاعة تزاحمت الجماهير مندفعة إلى الأمام وتغلبت على كوردون الشرطة، وفى حماسهم دفعوا بى، اهتز توازنى وفقدت فردة حذائى فى تلك الفوضى. وبعد أن بدأت الأمور تهدأ وبعد عدة دقائق ولم أعثر على حذائى أو على زوجتى. وفى النهاية، وبعد حوالى نصف ساعة أحضروا وينى معى على المسرح، وكانت غاضبة لما حدث. ولم أستطع مخاطبة الجمهور لأنهم ظلوا يهتفون «مانديلا، مانديلا» بصخب لدرجة لم يستطع معها أحد سماع صوتى وغادرت المكان فى النهاية بدون حذائى وكانت زوجتى صامتة على غير العادة.

وأثناء وجودى فى القاهرة عقدت مؤتمرا صحفيا قلت فيه إن المؤتمر على استعداد لدراسة وقف أعمال العنف وكان ذلك مؤشرا للحكومة فقد كان كل من المؤتمر والحكومة يحاولان خلق مناخ لبدء المفاوضات وبينما كان المؤتمر يطلب من الحكومة تطبيع الموقف بإنهاء حالة

الطوارئ والإفراج عن المعتقلين وإلغاء قوانين الأبارتايد كانت الحكومة مصرة على أن يعلق المؤتمر الكفاح المسلح وكنا نود أن نمنح دى كلارك فرصة ليواصل استراتيجيته الإصلاحية وكنا نعرف أننا لابد وأن نعلق الكفاح المسلح لتسهيل المفاوضات الجدية ولتمكين دى كلارك من أن يبرهن لناخبيه على نجاح سياسته.

وبعد ذلك ذهبت إلى ستوكهولم لزيارة أوليڤر ولم يكن بصحة جيدة. وحين التقينا كنا كصبيين صغيرين يستمدان الحب من أحدهما الآخر. وكان أول شئ قاله لى أوليڤر بعد أن انفردنا أنه علىّ أن أتولى رئاسة المؤتمر لأنه كان يحتفظ بها لى. وكان ردى أنه قد تم انتخابه وعلينا الانتظار حتى تحين الانتخابات ولم أحد على موقفى.

وفى إبريل ١٩٩٠ ذهبت إلى لندن لحضور حفل موسيقى أقيم على شرفى واشترك فيه فنانون دوليون كان معظمهم غير معروف لى وأذيع الحفل بالتليفزيون فى جميع أنحاء العالم وانتهزت الفرصة لشكر القوى المعارضة للأبارتايد فى العالم التى أوجبت العقوبات وطالبتْ بالإفراج عنى وعن زملائى وعلى التأييد والتضامن مع الشعب المقهور فى بلدى.

-١٠٣-

حينما خرجت من السجن كان الرئيس مانجستو بوتيليزى زعيم حزب إنكاثا للحرية ورئيس وزراء كوا زولو أحد الشخصيات السياسية على

المسرح السياسى لجنوب إفريقيا ولكنه لم يكن يتمتع بشعبية فى دوائر المؤتمر. وكان أحد أحفاد ملك الزولو سيتيوايو الذى كان قد هزم البريطانيين سنة ١٨٧٩. وكان وهو شاب طالبا فى فورت هير وبعد ذلك التحق بتنظيم شباب المؤتمر وكنت أتوسم فيه صفات الشخصية القيادية للمستقبل. وكان قد أصبح رئيسا لوزراء كوازولو بمؤازرة المؤتمر. وحتى حينما أنشأ الإنكاثا كمنظمة حضارية للزولو لم يعارضه المؤتمر. ولكن بمرور السنوات تباعد الرئيس بوتيليزى عن المؤتمر. ورغم أنه كان يعارض الأبارتايد بشدة ورفض جعل الكوازولو موطنا مستقلا كما أرادت الحكومة فقد كان شوكة فى جنب الحركة الديمقراطية إذ كان يعارض المقاومة المسلحة وانتقد انتفاضة سويتو عام ١٩٧٦ وقاد حملة ضد العقوبات الدولية وكان يتحدى فكرة جنوب إفريقيا موحدة. ورغم ذلك كان الرئيس بوتيليزى يدعو بانتظام للإفراج عنى ورفض التفاوض مع الحكومة حتى يتم الإفراج عن المعتقلين السياسيين. وكان أول من تحدثت معهم على الهاتف لأشكره على مساندته طويلة الأجل. وكان رجائى هو أن ألتقى به سريعا لأحسم خلافاتنا. واقترحت تلك المقابلة فى لوساكا لكن لم يتم الموافقة عليها. وحينما كنت فى السجن دعا ملك الزولو جودويل زويليثينى وولتر لزيارة أولندى عاصمة الكوازولو وشجعته على قبول الدعوة ظنا منى أنها مناسبة ممتازة للتأثير فى رئيس إحدى أكثر الأسر المالكة احتراما ووقارا فى البلاد. ووافق المؤتمر مبدئيا على أن يذهب وولتر إلى قصر الملك فى نونجوما لاعتقادهم أن ذهابه إلى أولندى هو اعتراف بسلطة

المواطن المستقلة أو البانتوستانات.

وبعد عودتي من لوساكا حادثت رئيس الوزراء والملك هاتفيا وقلت إن وولتر يستعد للقاء الملك في نجوما وليس في أولندى ورد الملك أنه لن يقبل أن يزوره وولتر في أي مكان آخر سوى العاصمة وأضاف أنه قد دعاه لزيارته في أولندي وليس من حقه تحديد مكان الزيارة. قلتُ إننا نواجه معارضة من أعضاء المنظمة الذين لا يرغبون في ذهاب وولتر إلى كوازولو كلية. ورفض الملك أن يقابل وولتر.

ساءت العلاقات بعد ذلك وفي مايو أقنعت المؤتمر بالحاجة لأن أزور الملك ويوتيليزى ووافق الملك ولكن قبل الزيارة بأسبوع تلقيت خطابا منه يقول فيه إن عليّ أن آتي منفردا وكانت تلك آخر قشة ورفضت اللجنة المركزية. وقلت للملك إنني لا أستطيع القدوم إلا في رفقة زملائي واعتبرها إهانة وألغى الزيارة. وكان هدفي تكوين علاقة مستقلة لأن الملك كان القائد التقليدى للزولو الذين كانوا يحبونه ويحترمونه وكان الإخلاص للملك في كوازولو أكثر انتشارا من الولاء لإنكاثا.

وفي تلك الأثناء كانت ناتال قد أصبحت منطقة اقتتال. فقد أعلن مؤيدو إنكاثا المسلحون الحرب على معاقل المؤتمر في منطقة وسط ناتال وحول بيترماريتزبرج وتم إحراق قرى بأكملها وقتل العشرات وجرح المئات وأصبح اللاجئون يعدون بالآلاف. وفي ناتال كان الزولو يقتلون زولو آخرين لأن أعضاء المؤتمر هناك من الزولو. وبعد الإفراج عني بأسبوعين ذهبت إلى دربان وخطبت في جمع يربو على المائة ألف

شخص كانوا كلهم تقريبا من الزولو وطلبت منهم إلقاء السلاح والتوافق. لكن دعوتى لم تلق استجابة. وأصبحت قلقا لدرجة أننى كنت على استعداد لاتخاذ الخطوات اللازمة لزيارة الرئيس بوتيليزى. وفى مارس وبعد نوبة شديدة من أعمال العنف أعلنت بصفتى الشخصية أننى سوف أزوره فى قرية خارج بيترماريتزبرج ولكن قيادة المؤتمر فى ناتال عارضت الزيارة معارضة شديدة ورفضتها.

-١٠٤-

وفى مارس وبعد مفاوضات كثيرة مع أحزابنا رتبنا للاجتماع وجها لوجه مع دى كلارك وحكومته لإجراء محادثات بشأن المفاوضات فى اجتماعات تبدأ فى إبريل. ولكن فى ٢٦ مارس وفى منطقة إفريقية فى جنوب جوهانسبرج فتحت الشرطة النيران بدون تحذير على متظاهرين من المؤتمر وقتلت اثنى عشر وأصابت المئات الذين جرح معظمهم فى ظهورهم وهم يقومون بالفرار. وبما أن حق التجمع والتظاهر لتأييد مطالبنا العادلة ليس منحة تسبغها علينا الحكومة وقت ما تريد فقد أغضبنى ذلك التصرف وقلت للحكومة إن كل شرطى أبيض يرى فى كل شخص أسود هدفا له. وبعد استشارة المؤتمر أعلنت تأجيل المحادثات.

ولكن رغم التأجيل وبموافقة القيادات تقابلت سرا مع دى كلارك فى كيب تاون لدفع عملية المحادثات وركزنا على تحديد ميعاد آخر. ولم تكن الحكومة فى عجلة من أمرها فقد كانوا يريدون للوقت أن يمر لكى

أفشل وأبرهن للناس أن السجين السابق الذى ظنه الناس مخلصا هو إنسان لا يعلم شيئا عن الوضع الحالى. أما دى كلارك، فرغم خطواته التقدمية فهو لم يكن محررًا فقد كان يتحرك ببطء. وكان أيضا براجماتيا ليس فى نيته التخلى عن مركزه بل على العكس كان قد اتخذ تلك الخطوات لضمان قوة الأفريكان فى ظروف جديدة ولم يكن مستعدا للتفاوض لإنهاء الحكم الأبيض.

وكان هدفه خلق نظام لاقتسام القوة مبنى على حقوق المجموعات الذى يحافظ على سلطة الأقلية البيضاء. ورغم أنه كان على استعداد أن يسمح للأغلبية السوداء بالإدلاء بالأصوات ويعمل التشريعات لكنه أراد أن يبقى على حق الفيتو للأقلية. وعارضت الخطة منذ البداية ووصفتها بأنها أبارتايد مستتر.

وكانت استراتيجية القوميين للتغلب هى التحالف ضدنا مع إنكاثا واجتذاب الملونين الناطقين بالأفركانية فى الكيب لعضوية حزب قومى جديد وحاولوا نشر الرعب بين الملونين بترويج شائعة عداء المؤتمر للملونين. وأيدوا خطة بوتيليزى للحفاظ على قوة الزولو وهويتهم فى جنوب إفريقيا الجديدة بأن أقنعوه بمبدأ حقوق الجماعات والفدرالية.

وبدأت الجولة الأولى للمفاوضات فى مايو وكان وفدنا يتكون من وولترسيسولو وجوسلوفو والفريد نزو وثابو مبيكى وأحمد كاثرادا وجو موديسى وروث ممباتى وآرشى جوميد والمبجل بيرسى نودى وتشريل كارلوس وأنا وعُقدت الاجتماعات فى قصر قديم بالكيب.

وكانت المحادثات فى حد ذاتها علامة مميزة فى تاريخ بلدنا، فلم يكن الاجتماع يمثل فقط ما أراده المؤتمر كل تلك السنوات، ولكنه كان يمثل نهاية علاقة السيد بالخادم التى كانت هى علاقة الرجل الأبيض بالأسود فى جنوب إفريقيا. ولم نأت الاجتماعات كمتسولين بل كمواطنين لنا الحق فى مكان متساو على المائدة.

وكان الاجتماع الأول درسا فى تاريخ المؤتمر. أما دى كلارك فقد قال إن نظام التنمية المستقلة كان قد تولد عن نوايا طيبة ولكنه لم ينجح على أرض الواقع. وكانت أول قضية نوقشت هى تعريف المعتقلين والمنفيين السياسيين وكانت الحكومة تريد تعريفا فى حدود ضيقة ولكننا أردنا تعريفا شاملا ينطوى تحته كل من أدين فى تهمة كان دافعها سياسيا وبذلك ينطبق عليه العفو. ولم نتوصل إلى اتفاق. وفى نهاية الأيام الثلاثة توصلنا إلى خطة يتفق على أساسها الطرفان بأن يلتزما بعملية التفاوض السلمى وتلتزم الحكومة برفع حالة الطوارئ وقد نفذت ذلك واستثنى إقليم ناتال نظرا لأعمال العنف السائدة هناك وبخصوص القضايا الدستورية فقد أبلغنا الحكومة أننا نطلب مجلسا منتخبا لصياغة دستور جديد. ولكن قبل انتخاب المجلس رأينا أن تشكل حكومة جديدة انتقالية تشرف على عملية الانتقال حتى تنتخب الحكومة الجديدة وتبنينا فكرة إيجاد مؤتمر تفاوضى من كل الأحزاب يشكل الحكومة الانتقالية. كما اتفقنا على تكوين فريق عمل مشترك للتغلب على الصعوبات.

-١٠٥-

لم أتمكن من الذهاب إلى قونو بعد الإفراج عنى حتى شهر إبريل. وبعد اتخاذ احتياطات الأمن وإعداد الكلمات التى سألقيها ذهبت إلى هناك حيث زرت قبر أمى المتواضع. وحين ذهبت إلى قريتى راعنى ما رأيت من التغيير وعدم التغيير. فخلافا عمّا خبرته عندما كنت صغيرا من تقبل الأهل للحياة كما هى وعدم وجود دراية سياسية سمعت أطفال المدارس ينشدون أغنيات عن أوليڤر وتامبو وMK وأقلقنى فقر القرويين المدقع، فقد بدوا أكثر فقرا مما كانوا عليه فى الماضى. كانوا مازالوا يعيشون فى الأكواخ البسيطة ذات الأرضية الترابية حيث لا توجد كهرباء ولا مياه جارية. فحينما كنت صغيرا كانت القرية مرتبة والمياه صافية والعشب أخضر لكن الآن بدت القرية غير نظيفة والمياه ملوثة.

وفى ذلك الشهر زرت جزيرة روبن لإقناع خمسة وعشرين من رجال MK بأن يقبلوا عفوا من الحكومة ويتركوا الجزيرة. لكنهم قالوا إنهم سيقبلون العفو فقط فى حالة الانتصار فى المعركة الحربية وليس على مائدة المفاوضات. وكانت معارضتهم شديدة لأن الحكومة طلبت منهم الاعتراف بجرائمهم قبل العفو. وبعد مناقشات قبلوا عرض الحكومة.

وفى يونيو كان مقررا لى أن أذهب فى جولة فى أوروبا وأمريكا لمدة ستة أسابيع. وحاول دى كلارك إقناعى بإسكات الدعوة لمد العقوبات المفروضة على النظام العنصرى لكننى قلت له إننا لن نفعل ذلك حتى

ينتهى الأبارتايد وتكوين حكومة انتقالية وكنت أعلم أن الاتحاد الأوروبى كان راغبا فى تخفيف العقوبات. وبينما أنا فى فرنسا ألغت الحكومة حالة الطوارئ وسررت رغم علمى أن الخطوة كانت قد اتخذت لتقويض دعوتى لمد العقوبات، ذهبت إلى سويسرا وإيطاليا وهولندا وإنجلترا حيث زرت أوليفر وزوجته. وكانت أمريكا هى وجهتى بعد ذلك لأننى كنت سأتوقف فى إنجلترا مرة أخرى فى طريق عودتى للاجتماع بثاتشر.

وفى نيويورك ازدحم حوالى مليون شخص لمشاهدة موكبنا. وقد أشعرتنى مظاهر التأييد والحماس للمعركة ضد الأبارتايد بالتواضع الجم. وفى اليوم التالى ذهبت إلى هارلم وكما قالت زوجتى إن هارلم هى سويتو أمريكا وتحدثت إلى حشد كبير فى استاد اليانكى وأخبرتهم أننا جميعا أطفال إفريقيا وذكرت لهم كيف ألهمنى هؤلاء الذين دافعوا عن حقوق السود فى أمريكا. ثم ذهبت إلى ممفيس وبوسطون وبعد ذلك إلى واشنطون لإلقاء خطاب فى الكونجرس والاجتماع بالرئيس بوش وفى حديثى أمام الكونجرس ذكرت العقوبات ودعوت الكونجرس إلى عدم تخفيفها لعلمى أن بوش كان يريد ذلك.

وحتى قبل التقائى ببوش كنت قد كونت انطباعا إيجابيا عنه فقد كان أول قائد يحادثنى تليفونيا بعد مغادرتى السجن كما أنى كنت ضمن قائمته القصيرة من زعماء العالم الذين يخبرهم بالقضايا الهامة. وكان أثناء لقائى معه ودودا رغم اختلافنا تماما بشأن قضايا الكفاح المسلح والعقوبات.

-١٠٦-

عدت إلى جنوب إفريقيا بعد توقف فى أوغندا وكينيا وموزمبيق وطلبت لقاء مع دى كلارك وكانت أعمال العنف فى البلاد قد ساءت وبلغ عدد القتلى سنة ١٩٩٠، ١٥٠٠ فرد، وبعد تشاورات مع زملائى قررنا الإسراع بعملية السلام.

وكانت قوات الحكومة قد اعتقلت أربعين من المؤتمر بدعوى أنهم ضمن أعضاء مؤامرة للحزب الشيوعى للإطاحة بالحكومة. ودعانى دى كلارك إلى اجتماع عاجل وقرأ علىَّ من وثائق ادعى أنها صودرت أثناء الغارة. واتصلت بجو سلوفو الذى قال لى إن ما قرأه دى كلارك كان مقتطعا من السياق وأن العملية التى يتحدثون عنها هى عملية قديمة وأن هدف الحكومة هو فصل الحزب الشيوعى عن المؤتمر وإبعاد جو سلوفو عن المفاوضات. وعدت إلى دى كلارك وأخبرته أن شرطته قد خدعته وأننا لا ننوى التخلى عن الحزب الشيوعى وأن سلوفو سيشارك فى المفاوضات. وفى منتصف يوليو وقبل اجتماع لجنة المؤتمر المركزية عرض على سلوفو إيقاف العمليات العسكرية لتهيئة الجو للمفاوضات ولمنح دى كلارك فرصة ليثبت لناخبيه أن سياسته قد نجحت. وعارضت الأمر فى البداية لكنى بعد تفكير رأيت أن علينا أن نأخذ المبادرة وأن تلك هى أفضل وسيلة. وبعد مناقشة المسألة عدة ساعات فى اللجنة المركزية تمت الموافقة عليها.

وفى ٦ أغسطس وقّع المؤتمر والحكومة فى بريتوريا ما عرف فيما بعد

باسم مذكرة بريتوريا التى اتفقنا فيها على إيقاف العمليات العسكرية ولكننا لم ننه المعركة المسلحة. وحددت المذكرة مواعيد الإفراج عن المعتقلين السياسيين وإصدار أنواع معينة من العفو وإتمام عملية العفو في مايو ١٩٩١. ووافقت الحكومة أيضا على إعادة النظر فى قانون الأمن الداخلى.

وكانت أكثر العوامل المعرقلة هى تصاعد أعمال العنف. وكانت الشرطة وقوات الأمن لا تلقى القبض إلا على القليل من مرتكبى تلك الأعمال وكان سكان المناطق الإفريقية يتهمون الشرطة بمساعدة وإثارة العنف وأصبح من الواضح أن هناك تواطؤاً من جانب الشرطة وقوات الأمن.

وقال لى سكان مناطق الأفارقة إن الشرطة تقوم بمصادرة الأسلحة من جهة ثم تقوم الإنكاثا بالهجوم عليهم بنفس الأسلحة المصادرة. وفى سبتمبر ألقيت خطابا قلت فيه إن هناك يدا خفية ثالثة وراء أعمال العنف تستهدف المؤتمر ومعركة التحرير.

وكنت قد وصلت إلى تلك النتيجة بعد أن خبرت شخصيا حادثين متماثلين. ففى مايو ١٩٩٠ تلقى المؤتمر معلومات أن ساكنى أحد بيوت الشباب المملوكة للإنكاثا كانوا يخططون لهجمة كبيرة على أعضاء من المؤتمر فى منطقة إفريقية يوم ٢٢ يوليو وقمنا بإبلاغ وزير العدل ومدير الشرطة وقائد الشرطة المحلى عن طريق محامينا طالبين اتخاذ الإجراءات وطلبنا من الشرطة أن تمنع أعضاء الإنكاثا من دخول المنطقة لحضور تجمع لهم. وفى ٢٢ يوليو دخلت المنطقة حافلات محملة

برجال الإنكاثا المسلحين ترافقهم عربات شرطة في وضح النهار. وبعد التجمع ذهب الرجال المسلحون في حالة هرج وقتلوا ما يقرب من ثلاثين شخصا في هجوم رهيب وقد قمت بزيارة المنطقة في اليوم التالي ورأيت مناظر لم أرها من قبل ولا أتمنى أن أراها بعد ذلك فقد رأيت جثثا قطعت إربا حتى مات أصحابها وكانت هناك امرأة قد قطع ثدياها بمدية.

وطلبت لقاء مع دى كلارك في اليوم التالي وسألته غاضبا إيضاحا. ولم يجب ولم يقدم تفسيرا.

وكان الحادث الثاني مماثلا إلا أنه بالإضافة إلى القتل قام الإنكاثا بطرد أفراد المؤتمر من معسكر مقام على قطعة أرض في إحدى مناطق الزولو واحتلوا أكواخهم واستولوا على ممتلكاتهم وقرر سكان المنطقة أن قوات الشرطة كانت ترافق الإنكاثا.

وفي خلال تلك الفترة قامت الحكومة بفعل أشعل الوضع فقد أقرت حمل الزولو لما يسمى بأسلحتهم التقليدية وهي عبارة عن الرماح والعصي ذات الرءوس الغليظة التي كانوا يقتلون بها رجال المؤتمر.

وقد استفاد من تيارات العنف تلك هؤلاء الذين كانوا يعارضون التفاوضات وعملوا على إشعال حرب بين المؤتمر والإنكاثا. وعمد رجال الحكومة ومن بينهم دى كلارك إلى تجاهل الوضع ولم يكن هناك شك أن مسئولي الشرطة على أعلى مستوى كانوا يساعدون تلك القوة الثالثة وتأكدت الشكوك حينما ظهرت تقارير صحفية كشفت أن شرطة

جنوب إفريقيا كانت تمد الإنكاثا بالدعم المادى.

وتصاعد العنف. وبدأت أراجع قرار تعليق الكفاح المسلح. وتململ الكثيرون من أعضاء المؤتمر.

-١٠٧-

وفى ديسمبر ١٩٩٠ عاد أوليڤر إلى جنوب إفريقيا بعد ثلاثة عقود فى المنفى. وذهب لحضور اجتماع استشارى للمؤتمر فى جوهانسبرج حضره أكثر من ألف وخمسمائة مندوب من جميع المناطق فى الداخل والخارج.

وتكلمت مادحا أوليڤر رجلا قاد المؤتمر إبان ساعاته الحالكة ولم يترك الشعلة تخبو وقادنا إلى مستقبل يبدو مضيئا ومليئا بالأمل. وكان هو الذى أنقذ المؤتمر خلال الأعوام السبعة والعشرين التى قضيتها فى السجن، وأنشأ منظمة دولية ذات قوة وتأثير فقد كان جنديا ودبلوماسيا ورجل دولة.

وأحدث خطاب أوليڤر عاصفة فقد دعا إلى إعادة تقييم العقوبات الدولية وقال إن المؤتمر يواجه تهديدا بالتهميش الدولى إذا لم يأخذ المبادرة لتخفيف العقوبات وأن منظمة الوحدة الأوروبية قد بدأت فعلا فى تخفيف العقوبات وأن دول الغرب خاصة بريطانيا وأمريكا تريد مكافأة دى كلارك على إصلاحاته. ورغم أننا شعرنا بخطأ تلك الاستراتيجية فقد كان علينا الاعتراف بالواقع الدولى.

ورغم أن خطاب أوليـفـر نوقش و ووفق عليـه من قـبل المؤتمر إلا أن اقـتـراحـه قـوبل بالغـضب من مناضلى المؤتمر الذين أصـروا على أن تبـقى العـقـوبات كما هى. واتـهمنـى هؤلاء واتـهـموا المفـاوضـين بعـدم التلاحم مع القاعدة وبأننا نقضى وقتا مع قادة الحزب القومى أطول من ذاك الذى نقـضيه مع شـعبنا. كما وُجِه إلى النقد فى الاجتماع للدخول فى ديبلوماسية شـخـصـية وعدم إبلاغى جمـيع الأعضـاء بما يحـدث. وتقـبلت ذلك النقـد مـبديا موافـقـتى عليـه ولكنى كنت أعلم حساسية المحادثات وأن أى اتصـالات نصل إليها تعتمد جزئيا على سريتها. لكنى عرفت أن علىَّ أن أخبر عددا أكبر من الأشخاص بما يحدث.

وكانت الصحف تمتلئ كل يوم بتقارير جديدة عن أعمال العنف الدموية فى مناطق الأفارقة. وفى أماكن عدة جعل خليط من الجريمة والتنافس السياسى ووحشية الشرطة وفرق الموت الحياة قاسية لا تحتمل.

ولمواجـهة ذلك اتصلت بالرئيس بوتيليزى والتـقـينا فى دربان فى يناير وتحدث بوتيليزى إلى المندوبين المجتمعين وإلى الصحـافة وفتح جروحا قديمة وذكر قائمة بالهجوم اللفظى للمؤتمر عليه وانتقد مطالب المؤتمر فى المفاوضـات. وحينما تكلمت شكرته على مجـهوداته طوال السنين للإفراج عنى وذكرت أموراً توحد منظماتنا بدلا من أن تفرقها.

وحدث تقدم أثناء محـادثاتنا الفردية ووقعنا اتفاق قواعد للسلوك لكل من المنظمتين وكان اتفاقا عادلا كان من الممكن أن يوقف نزيف الدم

لو نفذ. ولكن إنكاثا لم تحاول تنفيذ الاتفاق. واستمر العنف بين المنظمتين ولم تفعل الحكومة شيئا للقبض على المعتدين. والتقيت مرة أخرى فى أبريل بوتيليزى وأصدرنا بيانات ووقعنا اتفاقية أخرى أغرقت هى الأخرى فى الدماء. وكنت مقتنعا أن الحكومة وراء كثير من أعمال العنف.

وفى إبريل وفى اجتماع اللجنة المركزية الذى استمر يومين ناقشت شكوكى بشأن دى كلارك. وفى خطاب مفتوح إلى الحكومة دعونا إلى فصل ماجناس مالان وزير الدفاع وأدريان ثلوك وزير العدل والنظام وإلى منع حمل الأسلحة التقليدية وغير ذلك من الاقتراحات بما فيها تكوين لجنة مستقلة لبحث شكاوى سوء التصرف لقوات الأمن. وأعطينا الحكومة مهلة إلى مايو لإجابة مطالبنا ورد دى كلارك بالدعوة إلى مؤتمر لجميع الأحزاب يعقد فى مايو لمناقشة العنف. ولكننى رددت بأن ذلك عديم الجدوى لأن الحكومة تعرف تماما ما عليها فعله لإنهاء العنف. وفى مايو أعلنا تعليق المحادثات مع الحكومة.

وفى يوليو ١٩٩١ عقد حزب المؤتمر مؤتمره السنوى داخل جنوب إفريقيا لأول مرة منذ ثلاثين عاما. وحضر الموتمر ٢٢٤٤ مندوبا لهم حق التصويت تم انتخابهم بطريقة ديموقراطية فى أفرع المؤتمر فى الداخل والخارج وتم انتخابى رئيسا للمؤتمر وانتخب سيرل رامفوسا سكرتيرا عاماً وكان ذلك دليلا على أن الشعلة بدأ تمريرها إلى القيادات الشابة.

وفى خطابى ذكرت أن النقطة التى يجب فهمها بوضوح هى أن المعركة لم تنته وأن المفاوضات نفسها مسرح للمعركة.

وكان لابد أن نبدأ المفاوضات فلم يكن فى مصلحتنا تمديد عذاب الأبارتايد فقلت إن من الضرورى تكوين حكومة انتقالية فى أسرع وقت.

وفى المؤتمر تم تحديد أكثر المهام أهمية وصعوبة وهى تحويل حركة التحرير السرية غير القانونية إلى حزب سياسى جماهيرى وكان علينا إعادة هيكلة منظمة بكاملها من أصغر فرع محلى إلى اللجنة القومية المركزية فى خلال شهور.

وعاد جزء كبير من قيادات المؤتمر والحزب الشيوعى من المنفى لحضور المؤتمر ولم يكونوا يعرفون جنوب إفريقيا الجديدة فقد كانت أرضا تم اكتشافها حديثاً بالنسبة لى ولهم وكان هناك حصاد من القيادات الشابة من الجبهة الديموقراطية والاتحادات التجارية الذين بقوا داخل البلاد وكانوا على إلمام بالوضع السياسى بطريقة لا نعرفها نحن. وكانت تلك المنظمات بديلة للمؤتمر فى الثمانينيات وكان على المؤتمر دمج هؤلاء النساء والرجال فى المنظمة.

وكانت هناك المشاكل الفلسفية أيضا فإنه بالإمكان توحيد الحركة أثناء حرب مع العدو المشترك لكن إيجاد سياسة على مائدة المفاوضات أمر مختلف فإنه كان علينا ليس فقط أن ندمج مجموعات عديدة فى المؤتمر ولكن أيضا كان علينا دمج آراء مختلفة.

وخلال السبعة عشر شهرا الأولى من النشاط القانونى أمكن للمؤتمر ضم ٧٠٠,٠٠٠ عضو وكان ذلك عددا لا بأس به، لكن نسبة الأعضاء من المناطق الريفية، تلك المناطق التى ظل المؤتمر فيها ضعيفا، كانت قليلة، وفى نفس الوقت فتح حزب القوميين أبوابه لغير البيض محاولا استقطاب الهنود والملونين.

ومنذ الإفراج عنى استمرت حملة الدولة لتشويه سمعة زوجتى. فبعد حادث اختطاف الشباب الأربعة المزعوم ووفاة أحدهم تم تشويه سمعتها بحملة شائعات وبعد ذلك وجهت إليها أربعة اتهامات خطف وتهمة اعتداء. وبلغ التشهير بها درجة أصبحنا فيها ننتظر يوم محاكمتها لتظهر براءتها.

وبدأت محاكمة زوجتى فى فبراير فى محكمة راند العليا فى جوهانسبرج. وحضرت المحاكمة فى يومها الأول وكذلك حضرها عدد من كبار أعضاء المؤتمر وتوالى حضورى كلما استطعت وفعلت ذلك لمؤازرتها لإظهار إيمانى ببراءتها. وتولى جورج بيزوس الدفاع عنها باقتدار. وحاول إثبات أن وينى لم تتورط فى عملية الخطف أو الضرب. وبعد ثلاثة أشهر ونصف حكم القاضى بإدانتها فى اتهامات الخطف وتحريضها على الاعتداء وحكم عليها بالسجن ست سنوات لكن أفرج عنها بكفالة انتظارا لاستئنافها. أما بالنسبة لى فلم تكن براءتها أبدا موضع شك.

-١٠٨-

وفى ديسمبر ١٩٩١ بدأت المفاوضات الحقيقية فى جوهانسبرج فى مركز التجارة الدولية وعُقد «المؤتمر من أجل جنوب إفريقيا ديموقراطية» وسمى CODESA، أول اجتماع للمفاوضات الرسمية بين حزب المؤتمر وأحزاب جنوب إفريقية أخرى والحكومة وكان الاجتماع يضم ثمانية عشر وفدا تمثل جميع الاتجاهات السياسية فى جنوب إفريقيا بالإضافة إلى مراقبين من الأمم المتحدة والكومنولث والمجموعة الأوروبية ومنظمة الوحدة الإفريقية. وكان غالبية الممثلين من السود.

وكان وفْد الإعداد برئاسة سيريل رامافوسا وعضوية جو سلوڤو وڤالى موسى قد عقد اجتماعات أسبوعية مع الحكومة حول قضايا الانتخابات والدستور والمجلس التأسيسى والحكومة الانتقالية. وكانت وفود عشرين حزبا مختلفا بما فيهم حكومات المواطن قد اتفقوا على أسس المؤتمر.

وقاطعت الـPAC الاجتماعات متهمة حزب القوميين والمؤتمر بالتآمر لإقامة حكومة متعددة الأعراق كما قاطع الرئيس بوتيليزى المحادثات بحجة أنه لم يسمح له بإرسال ثلاثة وفود.

ولم يَسُد المركز التجارى الدولى إحساس بالتاريخ فقط بل أيضا إحساس بالاعتماد على الذات. فخلافا لمفاوضات فى دول إفريقية أخرى استلزمت وجود وسطاء خارجيين كنا فى جنوب إفريقيا نسوى

خلافاتنا بأنفسنا. وتحدث دى كلارك عن الحاجة إلى حكومة انتقالية تتقاسم فيها السلطة على أساس ديموقراطى.

وفى ملاحظاتى الافتتاحية ذكرت أنه مع فجر CODESA فإن التقدم فى جنوب إفريقيا أصبح لا رجعة عنه. فقد اجتمعنا لإيجاد سلطة شرعية وأضفتُ أن CODESA علامة على بداية الطريق إلى مجلس منتخب يكتب دستورا جديدا. وأننى لا أرى سببا لعدم حدوث مثل تلك الانتخابات للمجلس التشريعى عام ١٩٩٢. ثم أهبت بالحكومة أن تشكل حكومة وحدة وطنية انتقالية للإشراف على الانتخابات ومراقبة إعلام الدولة والجيش والإشراف بعامة على الانتقال إلى جنوب إفريقيا ديموقراطية لا عنصرية.

وفى اليوم الأول تم الاتفاق على إعلان نوايا تلتزم فيه جميع الأطراف بتأييد جنوب إفريقيا غير مقسمة، قانونها الأعلى دستور يضمن سلامته نظام قضائى مستقل. وأن يضمن النظام القانونى للبلاد المساواة أمام القانون وأن يوضع ميثاق لحماية الحقوق والحريات المدنية. والخلاصة أن تكون هناك ديموقراطية تعددية.

وأوجد المؤتمر خمسة فرق عمل تجتمع فى أوائل ١٩٩٢ لتمهيد الطريق لجولة أخرى من CODESA فى مايو ١٩٩٢ وكان على المجموعات بحث مسألة خلق مناخ حرية سياسية، ومستقبل المواطن، وبحث مبادئ دستورية مختلفة كالفدرالية وإعادة تشكيل هيئة إذاعة جنوب إفريقيا وتشكيل حكومة انتقالية ووافقت الأحزاب على أن تتخذ القرارات بناء

على الإجماع الكافى.

وكان دى كلارك قد طلب منى أن تكون له الكلمة الختامية التى كان من المفروض أن ألقيها أنا فى نهاية اليوم. وأقنعت اللجنة المركزية بذلك رغم معارضتها. وفى كلمته بدأ دى كلارك الهجوم على حزب المؤتمر لعدم محافظته على الاتفاقات التى عقدها مع الحكومة ووبخه على عدم الكشف عن مخابئ الأسلحة وعلى الإبقاء على جيش خاص وعلى الـMK. وبلهجة شديدة أبدى تشككه فيما إذا كان لدى المؤتمر من الشرف ما يجعله يلتزم بأى اتفاق يوقعه.

وقررت ألا تكون كلمته هى الأخيرة. فسرت إلى المنصة وفى صوت نم عن غضبى قلت إننى منزعج من تصرف دى كلارك فإنه لم يكن أمينا فى هجومه. فحتى رئيس لنظام سيئ السمعة وغير شرعى كنظامه لابد وأن يلتزم بمعايير أخلاقية. فإن رجلا يأتى إلى اجتماع من هذا النوع ويمارس تلك الألاعيب السياسية لا يود أن يتعامل معه إلا القليلون جدا. وأضفت أن أعضاء الحكومة أقنعونا أن تكون لهم الكلمة الختامية واتضح الآن لماذا أرادوا ذلك فقد أساء دى كلارك استعمال مركزه لأنه كان يأمل ألا أجيب ولكنه أخطأ. ثم مضيت أعدد خرق الحكومة جميع الاتفاقيات كما سبق ذكره. وأضفت أننى قد أخبرته أننا سنسلم أسلحتنا فقط حينما نصبح جزءا من الحكومة التى تتولى جمع تلك الأسلحة. وأضفت أن للحكومة جدولين مختلفين للأعمال فهى لا تستعمل المفاوضات لإقرار السلام ولكن لتحقيق أهدافها السياسية التافهة. فقد كانت أثناء المحادثات تمول منظمات ارتكبت أعمال عنف

ضدنا، وذكرت ما كان قد تكشف حديثا عن دفع مليون راند لإنكاثا الأمر الذى ادعى دى كلارك أنه لا يعرف شيئا عنه وإن كان ذلك صحيحا فإنه غير أهل ليكون فى منصبه. واختتمت قائلا إننى على استعداد للعمل معه رغم أخطائه. وفى الجلسة النهائية فى اليوم حاول كلانا التظاهر أن ما حدث ليس شيئا لا يمكن تقويمه وتصافحنا فى بداية الجلسة لكن كثيرا من الثقة كانت قد فُقدت وسادت المحادثات حالة من الفوضى.

وبعد ستة أسابيع من افتتاح CODESA خسر القوميون مقعدا فى دائرة محافظة كانت تعتبر إحدى معاقلهم لصالح حزب المحافظين الذى كان يعارض سياسة التفاوض مع المؤتمر. وبدت نتيجة الانتخابات وكأنها تلقى بظلال الشك على سياسة دى كلارك الإصلاحية والتفاوضية.

وقرر دى كلارك أن يغامر فأعلن أنه سيدعو إلى استفتاء يوم ١٧ مارس لكل البيض فى أنحاء الأمة للتصويت على سياسته. وقرر أنه إذا هزم فسيستقيل من منصبه. وفى نهاية الحملة صوت ٦٩٪ من البيض لصالح المفاوضات. ومع شعوره بقوة مركزه تشدد الحزب القومى فى مركزه التفاوضى.

-١٠٩-

فى ١٣ إبريل وفى مؤتمر صحفى جلس فيه أوليفر ووولتر إلى جانبى أعلنت انفصالى عن زوجتى فقد أصبح الموقف من الصعوبة لدرجة

أننى شعرت أنه لمصلحة كل الأطراف: المؤتمر وويني والأسرة أن نفترق. ورغم أننى ناقشت الموضوع مع المؤتمر فقد كان الانفصال لأسباب شخصية. وبعد أن استعرضت فى بيانى تاريخ علاقتنا والتضحيات التى تحملتها وشجاعتها وإخلاصها وأضفت أنه نظرا للتوترات التى نشأت فى علاقتنا فى الشهور الأخيرة بشأن خلافنا على عدد من القضايا فقد اتفقنا على الانفصال وأن خطوتى تلك لم يدفعنى إليها الاتهامات ضدها فى وسائل الإعلام؛ لأنها كانت ومازالت تثق فى تأييدى الذى لم يتزعزع خلال تلك اللحظات الصعبة فى حياتها.

وأضفت أننى ربما كنت قد عميت عن أشياء بعينها بسبب الألم الذى كنت أشعر به لعدم قدرتى على القيام بدور الزوج والأب. ولكنى مقتنع أن حياة زوجتى أثناء وجودى فى السجن كانت أصعب من حياتى وكانت عودتى أكثر صعوبة بالنسبة لها. فقد تزوجت رجلا سرعان ما تركها وصار ذلك الرجل أسطورة وعند عودة الأسطورة إلى المنزل ظهر أنه مجرد رجل.

-١١٠-

وفى مايو ١٩٩٢ عقد المجلس المتعدد الأطراف دورته الثانية فى المركز التجارى الدولى وكان قد تم الإعداد لـCODESA عن طريق اجتماعات سرية بين المتفاوضين.

وكانت الحكومة قد تعرضت لفضيحتين قبل يومين من بداية

CODESA. كانت الأولى تتضمن كشف فساد هائل ورشوة فى مصلحة مساعدة التنمية المسئولة عن تحسين حياة السود فى المواطن والثانية كانت تخص تورط مسئولى أمن كبار فى مقتل أربعة من مناضلى الجبهة الديموقراطية المتحدة عام ١٩٨٥، وأشهرهم ماثيو جونيوى هذا بالإضافة إلى دلائل تورط الشرطة فى أعمال القتل فى ناتال والشكوك حول قيام المخابرات العسكرية بتدبير عمليات سرية ضد المؤتمر وبينما قوضت هاتان الفضيحتان مصداقية الحكومة فإنهما أدتا إلى تقوية مركزنا.

وبعد مناورات مع الحكومة توصلت فرق الحكومة والمؤتمر إلى اتفاق مبدئى يتعلق بفترة انتقال من مرحلتين تقود إلى جنوب إفريقيا ديموقراطية تماماً.

فى المرحلة الأولى يعين مجلس تنفيذى متعدد الأحزاب من قِبل CODESA تكون وظيفته إنشاء حكومة مؤقتة ليمهد المجال لجميع الأحزاب ويأتى بدستور انتقالى. وفى المرحلة الثانية تجرى انتخابات لمجلس تأسيسى وتشريعى حيث تشترك جميع الأحزاب التى تحصل على ٥٪ من الأصوات فأكثر فى مجلس للوزراء ويتم انتخاب نصف المجلس على أساس قومى ونصفه الآخر على أساس إقليمى، ويعطى المجلس سلطة صياغة دستور جديد وإجازة التشريعات.

وكانت هناك نقاط خلاف عديدة بين المؤتمر والحكومة وأعاقت تلك النقاط CODESA وفى نهاية اليوم الأول وصل الاجتماع إلى طريق

مسدود وشهد اليوم الثانى نفس النهاية رغم المحاولات وكان ذلك فى رأيى لعدم رغبة حزب القوميين أن يُخضعوا قدرهم لإرادة الأغلبية.

وفى النهاية انهار، CODESA بسبب أربع نقاط رئيسية وهى إصرار الحكومة على نسبة كبيرة غير مقبولة من الأصوات فى المجلس للموافقة على الدستور، ووجود قوى إقليمية راسخة سيكون لها قولها فى الدستور، وقيام مجلس شيوخ غير ديموقراطى وغير منتخب يتمتع بقوة الفيتو على تشريعات المجلس الأساسى، والتصميم على جعل الدستور الانتقالى دستورا دائما.

ورغم ذلك وافقت الحكومة والمؤتمر على مواصلة المحادثات الثنائية لكن أمورا تدخلت لجعل ذلك مستحيلا.

وبتوقف المحادثات اتفق المؤتمر وحلفاؤه على عمل جماهيرى يبرهن للحكومة مدى مؤازرة الجماهير لنا وعلى أن شعب جنوب إفريقيا غير مستعد للانتظار إلى الأبد ليحصل على حريته. وكانت تلك الأعمال تتكون من إضرابات ومظاهرات ومقاطعات. واختير يوم ٢٦ يونيو ١٩٩٢ لبدء الأعمال الجماهيرية، وهو يوم ذكرى ثورة سويتو وتقرر أن تصل الحملة ذروتها بإضراب عام يومى ٣ . ٤ أغسطس.

ولكن وقعت حادثة قبل ذلك سببت شقاقا أكبر بين الحكومة والمؤتمر. ففى ليلة ١٧ يونيو ١٩٩٢ أغارت قوة مسلحة من الإنكاثا سرا على منطقة للأفارقة فى المؤتمر وقتلت ٤٦ شخصاً معظمهم من الأطفال والنساء ولم تفعل الحكومة شيئا لمنع الجريمة أو للقبض على مرتكبيها.

ووجدت أن تلك هى القشة الأخيرة.

وتحدثت إلى جمهور من عشرين ألفا من مؤيدى المؤتمر الغاضبين بعد الجريمة بأربعة أيام وقلت لهم إننى أصدرت الأوامر إلى سيريل رامافوسا السكرتير العام للمؤتمر بإيقاف أى تعاملات مع الحكومة وأعلنت عن اجتماع عاجل للجنة التنفيذية وحذرت دى كلارك أنه إن حاول فرض إجراءات جديدة لتقييد المظاهرات أو التعبير الحر فإن المؤتمر سيبدأ حملة تحد على مستوى الأمة أكون أنا فيها أول المتطوعين.

وكانت اللافتات التى حملها المتجمهرون تنادى باستعمال السلاح والتخلى عن المحادثات. وتفهمتُ عواطف الجماهير التى كانت تريد إسقاط الأبارتايد وكانت قد سئمت المفاوضات. وكان العمل الجماهيرى فى تلك اللحظة طريقا وسطا بين المفاوضات والكفاح المسلح.

وأبلغنا الحكومة أننا قد أوقفنا المحادثات وأرسلنا إلى دى كلارك مذكرة بأسبابنا وبالإضافة إلى طلبنا حل القضايا الدستورية التى أعاقت CODESA طالبنا بتتبع المسئولين عن العنف ومحاكمتهم. ورد دى كلارك بطلب اجتماع معى فرفضت.

وبلغت الحملة الجماهيرية ذروتها يوم ٣، ٤ أغسطس بالإضراب مساندة لمطالب المؤتمر فى المفاوضات واحتجاجا على أعمال العنف التى تساندها الدولة وامتنع أربعة ملايين عامل عن الذهاب إلى

أعمالهم وكان ذلك أكبر إضراب فى تاريخ جنوب إفريقيا ثم نظمنا مسيرة من مائة ألف فرد إلى مقر الحكومة فى بريتوريا حيث عقدنا تجمعا هائلا خارج المبنى قلت فيه للجماهير إننا سنحتل يوما تلك المبانى كأول حكومة ديمقراطية منتخبة فى تاريخ جنوب إفريقيا .

وهدد دى كلارك باتخاذ خطوات مضادة فحذرته أن أى عمل غير ديموقراطى سيكون له عواقب خطيرة. وأضفت أنه بسبب مثل تلك التهديدات يجب إقامة حكومة انتقالية.

وبعد حدوث مذبحة أخرى فى بيشو بين المتظاهرين من أنصار المؤتمر من قبل رجال حكومة إحدى البانتوستانات اجتمعت ودى كلارك لمحاولة إيجاد أرضية مشتركة لتحاشى تكرار مثل تلك المأساة.

وبدأ المتفاوضون فى الاجتماع بانتظام. وفى ٢٦ سبتمبر اجتمعت أنا ودى كلارك فى قمة رسمية وفى ذلك اليوم وقعنا اتفاقا كان بمثابة قالب لكل المفاوضات التى تلته واتفقنا على ما طالب به المؤتمر لمنع أعمال العنف ولكن الأهمية الحقيقية لتلك الاتفاقية هى أنها فتحت الطريق المسدود الذى وصلت إليه CODESA ووافقت الحكومة على مطالبنا الدستورية ولم يبق سوى تحديد يوم الانتخابات للمجلس التأسيسى ونسبة الأغلبيات اللازمة لاتخاذ قراراته. وقد حفزت الاتفاقية الإنكاثا على الانسحاب من المفاوضات وقطع الرئيس بوتيليزى علاقته بالقوميين وكون تحالفا مع مجموعة من قادة البانتوستانات المشبوهين ومع أحزاب يمينيه بيضاء كان هدفه إقامة

مواطن للأفريكان.

وتقدم چو سلوڤو بمبادرة لتكوين حكومة وحدة وطنية. وكان قد نشر بحثا فى أكتوبر قال فيه إن المفاوضات مع الحكومة ليست مفاوضات وقف قتال نُملى فيه شروطنا على عدو تم قهره. فإن المؤتمر قد يحتاج إلى سنوات للإمساك بجميع نواصى أمور الحكومة فى جنوب إفريقيا حتى بعد إجراء انتخابات، وأن حكومة من المؤتمر ستحتاج كثيرا من الموظفين المدنيين الحاليين لتسيير أمور البلاد. واقترح چو إضافة فقرة تسمح بإقامة حكومة وحدة وطنية تتضمن تقاسم السلطة مع حزب القوميين لفترة ينص عليها، مع عفو عام عن ضباط الأمن واحترام لعقود الموظفين المدنيين. وكان تعبير تقاسم السلطة فى ذلك السياق يعنى فقط أن القوميين سيشاركون فى أية حكومة منتخبة طالما حصلوا على أصوات كافية.

وبعد مناقشات عديدة أيدت اقتراح چو ووافقت عليه اللجنة المركزية فى ١٨ نوفمبر على شرط عدم السماح بالڤيتو لأحزاب الأقلية. وبدأنا محادثات ثنائية مدتها خمسة أيام وكانت حرجة لأنها سارت على الأسس التى أقرتها الاتفاقية المبدئية. واتفقنا مبدئيا على حكومة وحدة وطنية مدتها خمس سنوات تشترك فيها كل الأحزاب التى تحصل على أكثر من خمسة فى المائة من الأصوات بنسبة تمثيل فى مجلس الوزراء. وبعد السنوات الخمس تصبح الحكومة حكومة أغلبية عادية. وفى فبراير أعلن المؤتمر والحكومة اتفاقهما على مبدأ حكومة الوحدة الوطنية لخمس سنوات وعلى مجلس وزراء متعدد الأحزاب وعلى إيجاد

مجلس تنفيذى انتقالى وإجراء الانتخابات بنهاية ١٩٩٣.

-١١١-

وكنت قد قررت بناء منزل لى فى قونو وتم البناء فى فبراير ١٩٩٣ وذهبت هناك فى إبريل لإجازة قصيرة. وفى صباح ١٠ أبريل تلقيت مكالمة هاتفية عاجلة وعلمت أن كريس هانى أحد أعضاء MK السابقين البارزين وأحد أعضاء المؤتمر ذوى الشعبية الكبيرة قد توفى إثر إطلاق الرصاص عليه فى جوهانسبرج. كان موته لطمة لى وللمؤتمر فقد كان جنديا للمهام الصعبة وكان بطلا لشباب جنوب إفريقيا يتحدث لغتهم وينصتون إليه. وكان هناك خوف من ثورة شباب انتقامية فأسرعت أولا بالذهاب لتعزية والده فى ترانسكى وعند عودتى علمت أن الشرطة قد ألقت القبض على أفريكانى من المهاجرين البولنديين بعد أن أبلغت امرأة أفريكانية شجاعة عن رقم سيارته. وكان المقصود من الاغتيال تعطيل المحادثات. وحاول المؤتمر تهدئة الموقف فطلب منى أن أتحدث إلى الأمة. وفى حديثى ذكرت أن القاتل رجل أبيض ملئ بالكراهية جاء إلى بلادنا وارتكب عملا قبيحا شريرا وأن امرأة بيضاء جازفت بحياتها ليلقى القاتل جزاءه وأن الوقت قد حان لجميع مواطنى جنوب إفريقيا أن يتحدوا لتحقيق ما بذل كريس هانى حياته من أجله وهو الحرية لنا جميعا.

وكان اغتيال كريس محاولة من جماعات سيادة البيض لوقف ما لا مفر من حدوثه فقد كانوا يفضلون أن تعانى البلاد حربا أهلية من أن

تحكم الأغلبية عن طريق الوسائل السلمية. ولنمنع انفجار أعمال العنف نظم المؤتمر تجمعات وتظاهرات فى كل أنحاء البلاد ليعبر من خلالها الناس عن إحباطاتهم وعلمنا بعد أيام أن أحد أعضاء حزب المحافظين قد ألقى القبض عليه لعلاقته بالجريمة وكان ذلك تأكيدا لوجود قوة ثالثة. وبعد أسبوعين حدث أمر هزنى شخصيا فقد توفى أوليفر بجلطة مفاجئة.

يصنف أفلاطون الناس إلى ثلاث مجموعات من الذهب والفضة والرصاص. وكان أوليفر ذهبا خالصا سواء فيما يختص بتألقه الفكرى أو دفئه أو آدميته أو تسامحه وكرمه أو فى ولائه وتضحيته. وكنت أحبه كرجل بالقدر الذى كنت أحترمه كقائد وشعرت بالحرمان لفقده. ورغم أننا لم نكن فى السلطة فقد أردت لأوليفر جنازة رسمية. ونظم المؤتمر الجنازة ونظم أيضا تجمعا فى استاد سويتو حضره العديدون من الشخصيات الأجنبية الذين جاءوا ليقدموا الواجبات الأخيرة للرجل الذى أبقى المؤتمر حيا أثناء سنوات نفيه.

-١١٢-

وفى يوم ٢٧ إبريل عام ١٩٩٤ وفى مؤتمر متعدد الأحزاب فى المركز التجارى حدد موعد أول انتخابات وطنية لاعنصرية قائمة على أساس صوت لكل فرد. وكان قد تم الاتفاق على انتخاب أربعمائة من الممثلين لمجلس تأسيسى يقوم بوضع الدستور ويكوّن برلمانا ويكون أول عمل له انتخاب رئيس للجمهورية. وكان قد اشترك فى الاجتماع ستة وعشرون

حزبا من ضمنها إنكاثا وPAC والمحافظين. وكان الرئيس بوتيليزى يطالب بسلطة أقوى للأقاليم بينما كان الحزب المحافظ يرى أن قراراتنا السابقة تعادى مصالح الأفريكان. وتكوّنت ما عرف بالجبهة الشعبية للأفريكان لمطالبة بوطن للبيض. وفى ١٨ نوفمبر تم الاتفاق على دستور انتقالى وأصبحنا على أعتاب مرحلة جديدة.

ولم أكن أبدا أهتم بالجوائز الشخصية فإنه لا يليق بالمقاتل من أجل الحرية أن يأمل فى كسب جوائز ولكن حينما أُخبرت أنى نلت جائزة نوبل للسلام بالاشتراك مع دى كلارك تأثرت كثيرا لأن للجائزة معنى خاصا فى جنوب إفريقيا حيث كانت قد منحت للرئيس لوثولى عام ١٩٦٠. كما منحت للأسقف توتو الذى حارب شرور العرقيه إبان الأيام الرهيبة للأبارتايد.

وكنت أكن احتراما كبيرا لشعبى النرويج والسويد، فأثناء الخمسينيات والستينيات رفضت جميع الدول الغربية مساعدتنا ومنحنا إعانات. ولكننا لقينا ترحيبا حارا فى السويد والنرويج ومُنحنا مساعدات ومِنحاً دراسية وأموالا للدفاع القانونى ومعونات إنسانية للمسجونين السياسيين.

وبدأنا حملتنا الانتخابية بعد إقرار الدستور الجديد. ولم يمنحنا ذلك فرصة كبيرة لأن القوميين كانوا قد بدأوا حملتهم فى اليوم الذى تم فيه الإفراج عنى. ورغم أن استطلاعات الرأى أثبتت تفوق المؤتمر فلم ننظر للنصر على أنه أمر مسلم به وكنت أنصح الجميع بعدم التفاؤل

الزائد. فقد كنا في مواجهة حزب منظم وممول جيدا.

وقاد حملتنا الانتخابية بوبو موليف و«رعب» ليكوتا وكيتسو جوردهان وكلهم من مناضلى الجبهة الديموقراطية السابقين وكانوا خبراء فى تعبئة الجماهير. وكانت المهمة صعبة. فقد قدرنا عدد الناخبين بعشرين مليونا كان معظمهم يدلى بصوته لأول مرة وكان الكثير من أصحاب الأصوات لدينا أميين وكان من الممكن أن يصيبهم الخوف من مجرد فكرة التصويت. وقررنا أن ندرب أكثر من مائة ألف شخص للمساعدة فى تثقيف الناخبين.

وكانت المرحلة الأولى تعرف باسم مؤتمرات الشعب حيث يسافر مرشحو المؤتمر فى جميع أنحاء البلاد ليعقدوا اجتماعات فى المدن والقرى لكى يستمعوا الآمال ومخاوف وشكاوى شعبنا. وكنت أحضر ثلاثة أو أربع مؤتمرات يوميا. وكان الناس أنفسهم يستمتعون بها. فلم يحدث أن ذهب أحد إليهم ليسألهم عما يجب فعله فى بلدهم. وبعد جمع الاقتراحات كنا نسافر لننقل للناس رسالتنا وكنا قد قررنا أن نقدم لهم تصورنا عن جنوب إفريقيا التى نودها بدلا من أن نطالبهم أن ينتخبونا على أساس أننا حررناهم فقد كنت أشعر أن حملتنا يجب أن تكون عن المستقبل وليس عن الماضى.

صاغ المؤتمر وثيقة من مائة وخمسين صفحة عرفت باسم برنامج إعادة البناء والتنمية الذى لخص خطتنا فى خلق وظائف عن طريق الأشغال العامة وبناء مليون منزل جديد مزودة بالكهرباء والصرف

الصحى وتوسيع مدى الرعاية وعشر سنوات من التعليم المجانى لجميع مواطنى جنوب إفريقيا وإعادة توزيع الأرض عن طريق محكمة استحقاقات للأرض وإلغاء الضرائب على المواد الغذائية الأولية. وقد أعيد ترجمة تلك الوثيقة بطريقة مبسطة على هيئة مانيسفتو سمى «حياة أفضل للجميع» وأصبح ذلك شعار حملة المؤتمر.

وشعرت أيضا أننا يجب أن نخبر الشعب بما لن نستطيع عمله. فقد كان الجميع يشعرون أن الحياة يمكن أن تتغير فى أعقاب انتخابات ديموقراطية حرة. ولذلك كنت أُخبر الجماهير أنهم يجب ألا يتوقعوا أن يتملكوا سيارة مرسيدس ويكون لديهم حوض سباحتهم الخاص بعد الانتخابات. وكنت أقول لهم إنه لن يكون هناك تغيير مفاجئ سوى احترامهم لأنفسهم كمواطنين فى أرضهم وأنهم قد ينتظرون خمس سنوات لتؤتى الخطة ثمارها كما كنت أقول لهم إن عليهم أن يعملوا بجد إن أرادوا حياة أفضل «فلن نفعل ذلك لكم ولكنكم أنتم الذين ستحققونه بأنفسكم».

أما الجمهور الأبيض فكنت أقول لهم إننا نحتاجهم ولا نريدهم أن يغادروا البلاد لأنهم جنوب إفريقيين مثلنا وهذه أرضهم ولم أوفر الكلمات بشأن أهوال الأبارتايد لكنى كنت أردد أن علينا نسيان الماضى والتركيز على بناء مستقبل أفضل.

-١١٣-

لم يكن الطريق إلى الحرية أبدا سلسا. فقد انسحبت بعض الأحزاب

من المجلس التنفيذى الانتقالى ورفضت إنكاثا المشاركة فى الانتخابات وقررت تبنى سياسة المقاومة ودعا الملك كويليثينى بمؤازرة الرئيس بوثيليزى إلى وجود استقلالى لكوازولو وحاول إثناء أهل إقليمه عن التصويت. وسمى اليمين الأبيض الانتخابات خيانة وطالب بوطن مستقل للبيض.

وكان ١٢ فبراير ١٩٩٤ اليوم الأخير للتسجيل فى الانتخابات بالنسبة للأحزاب. ولم يسجل الإنكاثا والمحافظون والجبهة الشعبية الأفريكانية كما رفضت حكومة موطن بوفوثا تسوانا الاشتراك وقاومت دمجها فى جنوب إفريقيا موحدة. وكمحاولة للتسوية أدخلنا تعديلات تضمن سلطات أكبر للأقاليم. وإعادة تسمية إقليم ناتال بإقليم كوازولو ناتال مع التأكيد على أن مبدأ تقرير المصير سيتضمنه الدستور للمجموعات التى لها حضارة ولغة مشتركة.

واستعددت للقاء الرئيس بوثيليزى فى دربان فى ١ مارس وقلت إننى مستعد للركوع والتوسل إلى أولئك الذين يودون جر البلاد إلى نزيف الدم ووافق الرئيس على تسجيل مشروط فى الانتخابات مع وعد بإحالة خلافاتنا الدستورية إلى الوساطة الدولية ووافقت. وقبل انتهاء موعد التسجيل سجل الجنرال فيلجون قائد جبهة الأفريكان تحت اسم جديد وهو جبهة الحرية.

وبالرغم من أن لوكاسى مانجوبى رئيس بوفوثاتسوانا قرر أن يبقى موطنه خارج الانتخابات فقد ثارت الجماهير ضده وعم الإضراب

والفوضى واشتعلت المعارك فى الشوارع بين الشرطة الإقليمية والطلبة والعمال. وبعد ذلك تخلت عنه قواته وبعد أسابيع تم عزله وطلب الزعيم الجديد من جنوب إفريقيا تسلم موطنه. أما العنف فى ناتال فقد زاد وعمل مؤيدو إنكاثا على وقف مجهودات حملتنا فى ناتال وتم قتل وتقطيع خمسة عشر من فريق العمل الانتخابى. ولكى نبرهن على قوتنا فى ناتال قام المؤتمر بتنظيم مسيرة جماهيرية وسط دربان وحاولت إنكاثا القيام بنفس العمل فى جوهانسبرج مما كان له عواقب وخيمه. فقد نظمت إنكاثا مسيرة من أعضائها وهم يلوحون بحرابهم وعصيهم وساروا فى قلب جوهانسبرج إلى مركز للتجمع وفى نفس الوقت حاولت مجموعة منهم اقتحام مبنى شل وهو مقر المؤتمر فمنعهم الحراس. وأطلقت النيران ونجم عن ذلك مقتل ثلاثة وخمسين شخصا وأضحت البلاد على شفا حرب أهلية. وكانت إنكاثا تحاول تأجيل الانتخابات ولكن دى كلارك لم يتزحزح فقد كان الموعد مقدسا.

ووافقت على وساطة دولية برئاسة اللورد كارينجتون وكيسنجر ولكن حينما علمت إنكاثا بعدم تغيير ميعاد الانتخابات لم يقابل أحد منهم الوفود التى عادت أدراجها. وعند ذلك قبل بوتيليزى الدعوة إلى دور دستورى لملكة الزولو ووافق على الاشتراك.

وقبل التصويت بعشرة أيام تقرر عقد مناظرة تليفزيونية بينى وبين دى كلارك وأجرينا فى المؤتمر تجربة لها حيث قام الصحفى اليستر سباركس بدور كلارك.

وفى المناظرة الحقيقية هاجمت حزب القوميين ذاكرا أنهم ينشرون الكراهية العرقية بين الملونين والأفارقة فى الكيب بتوزيع كتاب مثير جعلوا فيه شعار المؤتمر «اقتل ملونا.. اقتل مزارعا» وحينما انتقد دى كلارك خطة المؤتمر لإنفاق بلايين الدولارات على الإسكان والبرامج الاجتماعية نهرته قائلا إنه يخشى أن نكرس كثيرا من ثرواتنا للسود. وفى النهاية شعرت أننى كنت عنيفا مع الرجل الذى سيكون شريكى فى حكومة وحدة وطنية فقلت إن هناك حقيقة هامة وهى أنى أعتقد أن دى كلارك وأنا مثال ساطع لأناس من أعراق مختلفة لهم ولاء واحد وحب مشترك لبلدهم رغم انتقاداتى له. ومددت إليه يدى مصافحا وأنا أقول له إننى أفخر بأن أمسك بيده لنسير إلى الأمام معاً. وبدا دى كلارك مندهشا لكنه كان مسرورا.

-١١٤-

وأدليت بصوتى يوم ٢٧ إبريل فى إقليم ناتال لأبرهن للناس هناك أنه ليس هناك خطر من الذهاب إلى صناديق الانتخاب. وبينما كنت أسير إلى مركز التصويت أخذت أفكر فى الأبطال الذين سقطوا من أجل أن أكون حيث أنا فى ذلك اليوم وفى النساء والرجال الذين ضحوا من أجل القضية التى كتب لها أخيرا النجاح: فى أوليفر تامبو وكريس هانى والرئيس لوثولى وبرام فيشر وتذكرت أبطالنا الأفارقة العظام من أمثال جوشيا جيومبيدى. وج. م فيكر، ود/عبدالله عبدالرحمن، وليليان نجوتى وهيلين چوزيف ويوسف داود وموسيس كوتانى فلم أذهب فى ذلك اليوم إلى مركز الانتخابات بمفردى ولكنى كنت أعطى صوتى

معهم جميعا.

وسارت صفوف طويلة من المواطنين الصابرين فى الطرق غير المعبدة فى المدن والقرى وكانت هناك العجائز من النساء اللاتى انتظرن طول حياتهن ليشعرن بآدميتهن وكان هناك البيض من الرجال والنساء الذين قالوا إنهم فخورون أن يعيشوا أخيرا فى بلد حر.

وتوقفت أعمال العنف وكأنما البلد قد ولد من جديد.

وفاز المؤتمر بنسبة ٦٢.٦٪ من الأصوات أقل بقليل من ثلثى الأصوات اللازمة لكى نضع الدستور بمفردنا. وشعرت بالراحة لأننا لو كنا تمكنا من وضع الدستور بمفردنا لأصبح من الممكن أن يقال إنه دستور المؤتمر وليس دستور جنوب إفريقيا. فقد أردت حكومة وحدة وطنية.

وفى مساء ٢ مايو ألقى دى كلارك خطاب تنازل لبق.. فبعد أكثر من ثلاثة قرون تقبلت الأقلية البيضاء الهزيمة وسلمت السلطة للأغلبية السوداء. وفى المساء أقام المؤتمر حفلا بالانتصار فى قاعة الرقص فى فندق كارلتون ونصحنى الأطباء بعدم الذهاب حيث كنت قد أصبت بالإنفلونزا ولكنى ذهبت حوالى التاسعة والتقيت أوجهاً باسمة سعيدة. وكانت هناك على المنصة السيدة كورتينا سكوت كينج أرملة مارتن لوثر كينج المناضل الأمريكى ونظرت إليها وأشرت إلى كلمات زوجها وقلت:

إن تلك لمن أهم اللحظات فى حياة بلدنا وإنى أقف هذا أمامكم مليئا

بالفرح والفخر بمواطني هذا البلد المتواضعين العاديين. فلقد أبديتم تصميما هادئا صبورا أن تستعيدوا هذا البلد والآن يمكن أن نعلن فرحين من أسطح المنازل «لقد أصبحنا أخيرا أحرارا.. أخيرا أحرارا».

ومنذ اللحظات التي أُعلنت فيها النتيجة رأيت أن مهمتي هي التوفيق وخلق الثقة. وكنت أعرف أن كثيرا من الأقليات وخاصة البيض والملونين كانوا يشعرون بالقلق بشأن المستقبل وأردت أن أشعرهم بالأمان. وذكّرت الناس مرارا أن معركة التحرير ليست معركة ضد مجموعة معينة أو لون معين لكنها ضد نظام طاغ.

-١١٥-

وأشرق يوم ١٠ مايو ساطعا. وكنت في الأيام القليلة السابقة سعيدا بحصار الأفراد المرموقين وقادة العالم الذين توافدوا ليعبروا عن احترامهم قبل حفل الافتتاح وكان للافتتاح أن يشهد أكبر تجمع لقادة العالم على أرض جنوب إفريقيا.

وأقيم الاحتفال في مبنى الاتحاد في بريتوريا الذي ظل لعقود مقرا لسيادة البيض وأصبح الآن مكانا للقاء مختلف الألوان والأمم لقيام أول حكومة ديموقراطية لاعنصرية في جنوب إفريقيا.

ورافقتني ابنتي زيناني في ذلك اليوم. وعلى المنصة حلف دي كلارك اليمين كنائب ثان للرئيس ثم حلف مبيكي اليمين كنائب أول. ولما كان دوري تعهدت بإطاعة والتمسك بالدستور وأن أكرس نفسي لخير

الجمهورية وشعبها وخاطبت الضيوف قائلا:

إننا نحن الذين كنا خارجين على القانون لوقت قريب قد منحنا اليوم امتياز استضافة أمم العالم على أرضنا..

فقد حققنا أخيرا سيادتنا السياسية ونتعهد أن نحرر شعبنا من استمرارالعبودية للفقر والحرمان والمعاناة العرقية ومختلف أنواع التمييز.

فلن يحدث أبدا أبدا أن تتعرض تلك الأرض الجميلة لطغيان أحد على الآخر. فلن تغرب الشمس عن إنجاز إنسانى كهذا.

فلتسد الحرية.. وليبارك الله فى إفريقيا.

وبعد لحظات رفعنا جميعا أعيننا فى خشوع حيث حلقت الطائرات الحربية لجنوب إفريقيا فى تشكيلات رائعة فوق مبنى الاتحاد ولم يكن ذلك عرضا للدقة والقوة العسكرية ولكنه إثبات لولاء الجيش للديمقراطية لحكومة جديدة انتخبت بحرية وعدالة. وقبل ذلك بدقائق كان الجنرالات الكبار من قوة دفاع جنوب إفريقيا وشرطتها قد أدوا لى التحية العسكرية وتعهدوا بولائهم ولم أكن قد نسيت أنهم منذ سنوات لم يكونوا يحيوننى، بل كانوا يلقون القبض على.

وبعد ذلك رسمت طائرات الجيت اللون الأسود والأحمر والأخضر والأزرق والذهبى لعلم جنوب إفريقيا بدخانها.

فى يوم الافتتاح اجتاحنى إحساس بالتاريخ، ففى العقد الأول من

القرن العشرين رتقت شعوب جنوب إفريقيا البيضاء خلافاتها وأسست نظاما للتمييز العنصرى ضد البشرة السمراء فى أرضهم وكان النظام الذى أسسوه أساسا لمجتمع من أكثر المجتمعات التى عرفها العالم شراسة ولا إنسانية. والآن، وفى العقد الأخير من القرن، وعقدى أنا الثامن، أُقتلع هذا النظام إلى الأبد و أُستبدل بآخر يعترف بحقوق جميع الشعوب وحرياتهم بغض النظر عن لون بشرتهم.

وقد أتى ذلك اليوم عن طريق تضحيات لا يمكن تصورها من جانب الآلاف من شعبى. ذلك الشعب الذى لا يمكن تقدير أو مكافأة شجاعته. وشعرت ذلك اليوم، كما شعرت فى أيام أخرى كثيرة أننى ببساطة نتاج كل أولئك الوطنيين الأفارقة الذين سبقونى وآلمنى أننى لم أكن باستطاعتى شكرهم ولم يكن باستطاعتهم رؤية ما حققته شجاعتهم.

لقد أوجدت سياسة الأبارتايد جرحا غائرا مستديما فى شعبى وسيقضى كثير منا سنوات عديدة إن لم يكن أجيالا لنشفى منه. لكن عقود الظلم الوحشية كان لها أثرها الذى لم تقصده. فقد أتت بأناس مثل أوليفر تامبو ووولتر سيسولو والرئيس لوثولى ويوسف داود وروبرت سوبوكوى وبرام فيشر، رجال ذوى شجاعة غير عادية وحكمة وكرم، الذين قد لا يعرف لهم مثيل مرة أخرى. إن بلدى غنى بالمعادن والأحجار الكريمة المدفونة تحت أرضها لكنى كنت أعرف دائما أن ثروتها الحقيقية فى أناسها. وإنه لمن أولئك الرفاق فى المعركة قد

تعلمت معنى الشجاعة فقد كنت أرى مرارا نساء ورجالا يضحون بحياتهم من أجل فكرة وقد رأيت رجالا يواجهون هجمات وتعذيبا دون أن يهنوا مظهرين قوة واحتمالا يفوق الخيال. وتعلمت أن الشجاعة ليست هى انعدام الخوف لكن الانتصار عليه.

ولم أفقد الأمل أبدا أن التغيير لابد آت ليس فقط بسبب هؤلاء الأبطال لكن بسبب شجاعة النساء والرجال العاديين من شعبى. فلا يوجد أحد يكره شخصا بسبب لونه أو خلفيته أو دينه فإن الناس لابد أن يتعلموا أن يكرهوا وإن كانوا قادرين على تعلم الكراهية فلابد وأنهم قادرون على تعلم الحب. ففى أحلك أوقات السجن حينما كنت ورفاقى نساق إلى حافة القدرة على الاحتمال كنت أرى وميضا من الإنسانية فى أحد الحراس، ربما لمدة ثانية، لكن كان ذلك الوميض يطمئننى.

وقد اخترنا المعركة وأعيننا مفتوحة ولم تكن لدينا أوهام أن الطريق سيكون سهلا، وعن نفسى فلم أندم أبدا على التزامى بالمعركة، لكن أسرتى دفعت ثمنا رهيبا نتيجة لالتزامى.

ففى بلد مثل جنوب إفريقيا كان من المستحيل القيام بالالتزام نحو الأسرة ونحو قومى وبلدى بسبب مولدى ولونى. ففى جنوب إفريقيا كان الشخص الذى يحاول أن يفى بواجبه تجاه شعبه يُنزع من أسرته ومنزله ويُجبر على أن يعيش منفصلا فى وجود غير محدد من السرية والعصيان. ولم أختر فى البداية أن أضع شعبى فوق أسرتى ولكنى

لأنى حاولت أن أخدم شعبى وجدت أننى منعت من تأدية واجبى نحو أسرتى كابن وأخ وأب وزوج.

ولم أولد وعندى فهم للحرية فلقد ولدت حرا قدر معرفتى عن الحرية. كنت حرا أن أجرى فى الحقول قرب كوخ والدتى وحرا فى أن أسبح فى القناة الصافية فى قريتى وأمارس النشاطات الصبيانية الأخرى.

ولكن فى جوهانسبرج رأيت ببطء ليس فقط أننى لست حرا بل إن جميع من هم لونى لايتمتعون بالحرية. والتحقت بالمؤتمر الوطنى الإفريقى وعند ذلك تبدل فهمى لحريتى بفهم أكبر لحرية شعبى.

وكان خلال تلك السنوات الطويلة الوحيدة أن تحول فهمى لحرية ناسى إلى فهم لحرية كل الناس بيض وسود. فقد كنت أعلم أنه لابد من تحرير الظالم من الكراهية والتحيز وضيق الأفق.

وحينما خرجت من السجن كانت مهمتى هى تحرير الظالم والمظلوم وقد يقول البعض إنه قد تم إنجاز ذلك ولكنى أعلم أن هذا غير صحيح، فقد خطونا الخطوة الأولى فقط على طريق أطول وأصعب- فلأن تكون حرا لا يعنى فقط أن تلقى بقيدك لكن أيضا أن تعيش بطريقة تحترم وتُعلى من حريات الآخرين.

ولقد سرت ذلك الطريق الطويل نحو الحرية وحاولت ألا أتعثر ولكننى اتخذت خطوات خاطئة على الطريق. وقد اكتشفت السر أنه بعد أن يكمل الإنسان تسلق تل يكتشف أن هناك تلالا أخرى كثيرة عليه تسلقها. لقد أخذت لحظة هنا للراحة لأسترق النظر إلى ذلك المشهد

المجيد الذى يحيط بى وأنظر خلفى إلى المسافة التى قطعتها. ولكنى لا أستطيع التوقف سوى لحظة لأن مع الحرية تأتى مسئوليات. ولا أستطيع الإطالة. لأن مسيرتى لم تنته بعد.■

قائمة المحتويات

منافذ بيع مكتبة الأسرة
الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم
١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق
مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة - ت : ٢٥٧٧٥٣٦٧

مكتبة مركز الكتاب الدولى
٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو
١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف
٣٦ ش شريف - القاهرة
ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى
٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة
ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين
مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة
ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة ساقية
عبد المنعم الصاوى
الزمالك - نهاية ش ٢٦ يوليو
من أبو الفدا - القاهرة

مكتبة المبتديان
١٣ش المبتديان - السيدة زينب
أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ١٥ مايو
مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز
ت : ٢٥٥٠٦٨٨٨

مكتبة الجيزة
١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة
ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة
بجوار كلية الإعلام - بالحرم الجامعى -
الجيزة

مكتبة رادوبيس
ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة
مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون

ش جمال الدين الأفغانى من شارع

محطة المساحة - الهرم

مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة

ت : ٣٥٨٥٠٢٩١

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦

مدخل (أ) - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة -

الجامعة الجديدة - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى - أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية - أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب - المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب -جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا

ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقاً

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتبة المنصورة

٥ ش الثورة - المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية

جامعة منوف

مكتبـــات ووكــــلاء
البيع بالدول العربية

لبنان

١ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
شارع صيدنايا المصيطبة - بناية الدوحة-
بيروت - ت: ٩٦١/١/٧٠٢١٣٣
ص. ب : ٩١١٣ - ١١ بيروت - لبنان

٢ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
بيروت - الفرع الجديد - شارع
الصيدانى - الحمراء - رأس بيروت -
بناية سنتر ماريبا
ص. ب : ١١٣/٥٧٥٢
فاكس: ٠٠٩٦١/١/٦٥٩١٥٠

سوريا

دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع -
سوريا - دمشق - شارع كرجيه حداد -
المتفرع من شارع ٢٩ أيار - ص. ب: ٧٣٦٦
- الجمهورية العربية السورية

تونس

المكتبة الحديثة - ٤ شارع الطاهر صفر-
٤٠٠٠ سوسة - الجمهورية التونسية .

المملكة العربية السعودية

١ - مؤسسة العبيكان - الرياض
(ص. ب: ٦٢٨٠٧) رمز ١١٥٩٥ - تقاطع
طريق الملك فهد مع طريق العروبة -
هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ - ٤١٦٠٠١٨ .

٢ - شركة كنوز المعرفة للمطبوعات
والأدوات الكتابية - جدة - الشرفية -
شارع الستين - ص. ب: ٣٠٧٤٦ جدة :
٢١٤٨٧ - ت : المكتب: ٦٥٧٠٧٢٢ -
٦٥١٠٤٢١ - ٦٥١٤٢٢٢ - ٦٥٧٠٦٢٨.

٣ - مكتبة الرشد للنشر والتوزيع -
الرياض - المملكة العربية السعودية -
ص. ب: ١٧٥٢٢ الرياض: ١١٤٩٤ - ت:
٤٥٩٣٤٥١.

٤ - مؤسسة عبد الرحمن
السديرى الخيرية - الجوف -
المملكة العربية السعودية - دار الجوف
للعلوم ص. ب: ٤٥٨ الجوف - هاتف:
٠٠٩٦٦٤٦٢٤٣٩٦٠ فاكس: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٧٧٨٠

الأردن - عمان

١ - دار الشروق للنشر والتوزيع
ت: ٤٦١٨١٩٠ - ٤٦١٨١٩١
فاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦١٠٠٦٥

٢ - دار اليازورى العلمية للنشر والتوزيع
عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين
ت: ٩٦٢٦٤٦٢٦٦٢٦ +
تلفاكس: ٩٦٢٦٤٦١٤١٨٥ +
ص. ب: ٥٢٠٦٤٦ - عمان: ١١١٥٢ الأردن.



تذكرت بمناسبة مرور عشرين عامًا على بدء مشروع القراءة للجميع عام ١٩٩٠، حكاية تقول إن الفيلسوف اليوناني "أرسطو" كان معلمًا للإسكندر المقدونى، وإنه استطاع أن يشحن وجدان الإسكندر، ويشحذ رغبته ولعًا بكل أشكال التعليم والقراءة، حتى إن الإسكندر لم يكن يظهر إلا وفى يده كتاب، لكن حدث خلال إحدى رحلاته إلى آسيا أن عانى قلة الكتب، فإذ به يأمر أحد قادة جيوشه أن يحضر له بعض ما يقرؤه وكأن هذه الحكاية قد جاء تذكرها بمثابة حساب للنفس عما أنجزناه حتى لا يعانى أحد قلة الكتب وجودًا وثمنًا، فتجلت مكتبة الأسرة، التى بدأت عام ١٩٩٤، هى المصالحة الواقعية التى تجاوزنا بها تلك المشكلة، تحقيقًا للإتاحة العامة للكتاب، وذلك بالربط بين اتساع إصداراتها المتنوعة فى شتى مجالات المعرفة، والدعم المادى الذى تتمتع به أسعار تلك الإصدارات، فتجعلها فى متناول الجميع. وقد تلازم نشاط مكتبة الأسرة لسنوات عدة مع فعاليات مشروع القراءة للجميع، لكننا أخيرًا أكدنا ضرورة استمرار إصدارات مكتبة الأسرة طوال العام، انطلاقًا من حكمة قديمة مازالت تعاصرنا، وهى أن من يستطيع القراءة، يستطيع رؤية ضعف مايراه الآخرون.

سوزان مبارك






ISBN# 9789774216735



٢٠١٠

٤ جنيهات